معاوية محمد نور

قصص وخواطر

مؤلفات معاوية نور

مؤلفـــــــات

معـاوية نــور

الجـزء الثانى

قصص وخواطر

قســم التــأليـف والنشــر
جامعــة الخرطوم

قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم
ص . ب ٣٢١ الخرطوم
جمهورية السودان الديمقراطية

طبع بدار الطباعة
قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم

فهـــرس

صور وأقاصيص سودانية :

خواطر يومية :

بحـــوث اجتماعية وســـياسية

العالم بعد نصف قرن*

من مقال للكاتب الإنجليزي الشهير هـ . ج . ولــز .

نشرت مجلة «جورنال أوف لندن» في عددها الأخير مقالاً للأديب الإنجليزي الكبير «هـ . ج . ولز» تناول فيه الحالة الحاضرة للعالم، وتنبأ بما سوف يكون عليه بعد مضي خمسين عاماً . وقد آثرنا أن نأتي هنا بأهم ماجاء فيه، لأنه قد شخص مكان الداء في العصر الحديث والأزمة العالمية الحاضرة، خصوصاً وان هذه أول مرة تسمع فيها صوت «ولز» القوي الدافق عن أزمة العالم الحاضرة — وليس معنى ذلك أننا نوافقه على كل ماجاء في مقاله قال :

«سألني رئيس التحرير عما أتنبأ به لحالة العالم بعد مضي خمسين عاماً ؟ والسؤال شائق ولذيذ، كما أنه صعب لايسهل معه التكهن. فربما تحصل مئات من الحوادث غير المنتظرة تؤثر على سير العالم وإتجاهه . ومثل هذا السؤال كان سهلاً قبل خمسين عاماً ولكنه ليس كذلك الآن، إذ أننا نعيش في عصر لم يستقر بعد» .

ولقد كان العالم قبل خمسين عاماً مقسماً إلى أمم وحكومات ثابتة تعززها تقاليد موروثة متينة . وكان التقدم الميكانيكي مطرد النجاح ثابت الخطى . وكان التكهن بإختراع الاوتوميبل والطيارة وقصر المسافات وتضخم المدن سهلا مع القياس . وكان الراديو معروفاً في المعامل والمختبرات .

وكانت كل المظاهر التي كملت وتمت الآن مرموقة منتظرة من دلائل الأحوال وطبيعة التقدم. ولم يكن هناك شيء يمنع التسلح، ولذلك كانت الحرب الجوية أمراً مقطوعاً به متأكداً منه كتأكدنا من اليوم التالي . وكان التنبؤ من أبسط الأشياء وأسهلها ، وأنه لرجل مغلق القلب ضيق الذهن ذلك الذي لايصيب في كثير من تنبؤاته .

والحال على خلاف ذلك الآن . فبدلاً من التقدم المطرد، تكتسح العالم من أقصاه إلى أقصاه أزمة شاملة. وليس هناك حكومة واحدة — حتى حكومة الولايات المتحدة — لها من الثبات والرسوخ مثل ما كانت عليه القوات الكبرى في أواخر القرن الماضي . بل إننا نشك الآن في صلاحية أية حكومة من الحكومات القائمة . فإن كل الحكومات المعاصرة لم تعد تصلح لمقتضيات العصر الحاضر وحاجات العالم .

والقضاء على المسافات التي كانت تبعد الامم بعضها عن بعض قد تم ، ولم تعد

---

* جريدة مصر ـ العدد ١٠٣٠٣ ـ ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

الحكومات الحاضرة صالحة للبقاء . وحكومات العالم المختلفة تعمل كلها بالطرق العتيقة مزاحمة بعضها البعض بعد هذا التقدم الذى بلغه العالم أخيراً . وكان أجدر بالعالم أن يساس كوحدة عالمية كبرى .

والحياة البشرية أصبحت شيئا يهم كل حي ولكن الحكومات ماتزال حزبية ضيقة. وهذا الذى أقول قد ابتدأ يتدبره بعض المفكرين . غير أنهم لايعلمون إلى الآن كيف يقومون بتلك التجربة الجديدة .

وبينما نحن في هذا فإن الأمم دائبة في التسليح ، ماضية في سياسة السلطة . والسياسة العالمية مازالت محصورة في جهود هذه الحكومات المختلفة، وأن تفوز كل منها على الأخرى وأن تعمل على الرخاء داخل حدودها الجغرافية، بينما تعتدى وتجور على مصالح الشعوب الأخرى .

وهكذا تستمر هذه الحالة البالية العتيقة. لأن ليس عندنا القوة الفكرية التي نحطم بها هذه الطرق البالية .

وها نحن نقوم وسط حرب إقتصادية بليدة توصلنا ولاشك إلى حرب نارية حقيقية . ولقد كتبت قبل أعوام قائلا : « إن المدنية سجال بين التعليم والدمار غير أنى أزيد على ذلك الآن أن المصائب تزداد وتقطع مراحل . و « التعريفة » تكبل التجارة وتمنعها من الإزدهار ،والذهب مخزون ومكدس . والتسلح فى إزدياد، وأسباب الشجار والتصادم بين الدول تزداد ، والحروب الجوية وحروب الغازات مقبلة . و « التعليم » لم يبدأ بعد . ليس هنالك إذاً من سجال . إن الطريق سهل معبد « للدمار » !

ففي مدارس بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان مازال المعلمون يعلمون الطلبة تلك الدروس الوطنية الضيقة التي تملأ أذهان الطلبة بالغرور القومي وكراهية الشعوب الأخرى . وفي هذه المدارس تسلح الأمم تسليحاً عقلياً !

وكلنا نذكر أقتراح الرئيس « هوفر » بتوقيف دفع الديون الحربية غير أن أثره وقتي . وسرعان ماعادت الحالة إلى ماكانت عليه من قبل .

والنبي يود لو كان في مكنته أن يتكهن بالأشياء الحسنة،ولكن واجبه يحتم عليه أن يقول مايرى . وهو يرى عالماً لم يزل محكوماً بواسطة الجنود الوطنيين وأصحاب رؤوس المال ، عالماً مازال رازحاً تحت عواطف البغض والتخوف مقسماً إلى طبقات

تتناحر فيما بينها وتتحارب ، ودولاب الحركة الإقتصادية واقف معطل . ونحن نرى النقص بأعيننا ، فالإنتاج فى نقص مستمر والتجارة فى حالة إنحطاط . وسوف نسمع غداً أن تكاليف التعليم وشئون الصحة كثيرة لاتتحملها الميزانية . وبذلك تنقص المدارس وتقل العناية بالشئون الصحية .

فنحن لانشعر بمتع الحياة الحاضرة إلا بعد خمسين عاماً عندما تقل أوقات فراغنا ويسوء طعامنا وتتفشى الأمراض ، وأنه لايبعد أن يكون السفر فى ذلك العهد المشئوم من « سان فرنسسكو » مثلا إلى « لندن » أو « باريس » أصعب وأخطر بكثير من السفر من « لندن » إلى « موسكو » فى القرن الثالث عشر ! .

فإن النبى يجب أن يقول مايرى — وإننى لأرى بعين بصيرتي الآن كيف أن هذا العصر الذى إبتدأ يانعاً مأمولاً قد تكون خاتمته أليمة سوداء . ولكن الجزاء الوحيد أن تلافى هذه الحالة المذكورة ليس مما يصعب إذا أردنا . غير أن جهودنا فى هذا السبيل محدودة لاتشير الى شيء من القوة وكبر الأثر .

فإن طريق السلام مازال مفتوحاً أمامنا ووجب علينا ألا نقبل الفشل طالما كان بعيداً عنا فى الوقت الحاضر — غير أننا نرى بعض الناس يحتقرون هذه الجهود فى سبيل إنهاء الخصومات السخيفة والحروب وطرق الدمار التى إكتظت بها صحف التاريخ .

ويمكن إنهاء هذه الأزمة الطاحنة بإحياء الصفات الإنسانية مثل الشجاعة والخلق . ولكن الشيء الذى يؤسف له أن ليس هنالك بوادر قوية الأثر تشير إلى مثل هذا الإحياء ولكن من يعلم ؛ فقد يكون بين شباب العالم الناشيء عناصر ذلك الإحياء .

فإن بضعة آلاف من النفوس الحية المثقفة القوية وبضعة ملايين من الجنيهات لنشر الدعوة لهذا النظام الجديد ، كفيلة بأن ترد العالم من نظام الضيق والقسوة القطيعة إلى عالم النور والحياة الجديدة .

ولقد قال الأستاذ «أينشتين» مامعناه «لو امتنع اثنان فى المائة من سكان أوربا وأمريكا عن دخول الحرب ، وأشهروا مخاصمتها ، لما حصلت حرب ولإنتهت الأمم من جنون التسلح » . !

وأنا أزيد على ذلك قائلا إنه لو كانت هذه النسبة فى دول العالم الكبرى فقط لانتهى كل هذا الذى نرى — يعنى إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وروسيا . ولو قامت هذه الدول كلها تحاول توحيد العملة وتشرف على الديون و « الإنتاج » « والتوزيع » إذاً لإضطرت الأمم الأخرى لأن تخضع لهذه « الدكتاتورية النافعة » !

هذه هي المسألة سهلة هينة . ومن عجيب الأمور أن ساستنا وملوك المال بيننا لايرون هذا الطريق ولايفهمونه ،مع أن الخراب والدمار واضح جلي أمام أعيننا وضوح الشمس وجلائها .

وبينما العالم يواجه هذه المشكلة . مشكلة الموت والخراب والدمار .نرى ساستنا مشغولين بالظهور أمام آلة التصوير وطرق الدعاية الحزبية الضيقة .

فإذا انتشر هذا النظر السليم وعمل به كل إنسان فأى عالم ذلك الذى يكون بعد خمسين عاماً ؟ يصبح العالم وطناً واحداً . ومامعنى ذلك ؟ معناه أننا نستطيع السراح والمراح فى هذا العالم من غير رقيب ولاشروط . وتكثر أوقات فراغنا وتصبح كل ضروريات الحياة ، كالغذاء وطرق المواصلات والسكنى والأمن فى إستطاعة كل إنسان بعد أن يعمل لها فى بادىء الأمر كل فرد .

ويستطيع كل فرد أن يحيا حياة كاملة بعد أن تتخذ التدابير الصحية والتعليمية وتنظيم الأرياف . وليست هذه الأشياء التى أحصيها هى خيالات كاتب حالم ، وإنما هى حقائق يؤكدها علماء الإقتصاد ويؤكدها البحث العلمى الدقيق .

فإن عشرين عاماً فى أعمال التربية والنمو والإصلاح الإقتصادى كفيلة بأن تجعل الحياة فراغاً كله للخلق والحياة الأنيقة والحركة والتجاريب الواسعة .

وليس هنالك أى مبرر لقوانين الهجرة الضيقة ، أو أن يبقى أى إنسان فى هذه الحياة غير موفور الصحة والعيش والسكن . وكل مانراه الآن من هذا القبيل لامحل له ماديا لو عرف العالم أن يدبر شئونه كوحدة واحدة يصيبها خير واحد وينالها شر واحد .

ماهو السبب إذن فى عدم هذه الوحدة العالمية ؟

السبب بسيط . هو أن معظم ساستنا — بكل بساطة .. ضيقو العقول أنانيون . عقولهم آسنة قديمة . ومع ذلك فهم كثيرو الدعوة كثيرو الضجيج . وهم لايقبلون أن يكيفوا أنفسهم على حسب مطالب العصر الحديث . ونحن أيضا أغبياء كسالى لأننا لا نحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم تلك !

وفيما هم يعيشون فى حياة الرغد والنعيم نجد آلافاً من الناس يحيون حياة الفاقة والمرض والويلات الأخرى !

ولكن بعد خمسين عاما — إذا حصل الإحياء الذى نود — يكون العالم متعلما مثقفا يقرر مصيره ويجدده ويعلو به . وكل فرد يولد فى مثل هذا العالم يولد فى عالم نظيف

ويساهم بنصيبه في رخاء النوع وسعادته ، وسوف تعلم المدارس تاريخاً خلاف تاريخ الحروب ونهضات الأمم والنعرات القومية ، كما أنهم سيعلمون لعباً خلاف صف الجنود وتنظيمها لكي تحطم أخيراً .

هذه الحياة الجديدة في متناول العالم، لكن العالم عنها مغض ، وانني جد خائف أن توضع البنادق في أيدينا ونقتل بعضنا بعضا فنعيد بذلك آلم صفحة وأشنعها في تاريخ البشرية وحق الذكاء الإنساني . ويعيد التاريخ القديم كرته لأن ليس لنا الشجاعة الكافية لكي تقبل الجديد الحي .

فوضى العالم ومسئولية العلم *

للكاتب الإنجليزى « وليم ماكدوجال »

World Chaos: The Responsibility of Science

-تلخيص وتعليق-

الأستاذ«وليم مكدوجال» كاتب إنجليزى نابه الذكر وباحث فى الشئون الإجتماعية ولى منصب أستاذ علم النفس فى أكبر الجامعات الإنجليزية والأميركية . وله مذهبه الخاص فى «السيكولوجيا» عامة وفى « السيكولوجيا الإجتماعية » خاصة ، فإذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الأوربية فقد حق لنا أن نسمع له وأن نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العمق والصواب .

ولقد تناولت الصحف الأدبية هذا الكتاب حين ظهوره بشىء كثير من الإهتمام والعناية وكتب عنه النقاد هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة، لأن المؤلف تناول فيه مسألة المسائل فى الوقت الحاضر، وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل إلى لب الموضوع وجوهره . وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحماسة بينة .

فليس شك أن العالم الآن يجتاز أعصب فترة فى تاريخه ، وأن الحضارة الأوربية تهددها الأخطار من كل حدب وصوب : وأن رجال الفكر يتوجسون شراً أن تكون هذه الأزمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الأعوام .

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى ، هو بحث جدير بالنظر وكتاب يشعر العالم بأنه فى شديد الحاجة إليه .

فهذه الفوضى البادية فى كل ميادين النشاط الإنسانى ، وهذا الخلل الظاهر فى معظم النظم الإجتماعية ، وهذه الأخطار التى تحيق بالمدنية وتكاد تودى بالحضارة مما يهيب بكل كاتب وبكل باحث أن يدلى برأيه وأن يقترح سبل الخلاص والنجاة .

وقد رسم المؤلف صورة حالكة لحالة العالم اليوم ثم عزى هذا الحلك وتلك الفوضى التى نشهد ، والتى تهدد الحضارة بوشيك الدمار : إلى طغيان العلوم الطبيعية على كل مرافق الحياة العامة وصور النشاط البشرى : طغياناً أصبحت معه هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هى الكل فى الكل . وعاد كل ماعداها صدى لها أو نفاية لايعتد بها ولا يحسب حسابها .

---

* مجلة المقتطف - يوليو ١٩٣٢ .

وليس « مكدوجال » هو الباحث الوحيد الذى ينظر إلى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف ، ولاهو بالرجل الوحيد الذي يلاحظ مظاهر الدمار وبوادره قوية الإندفاع ، غير بعيدة النتائج . بل هو واحد من رهط كتاب أجلاء ، يشاطرونه الرأى ، ويشايعونه النظر ولايبتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف .

غير أن الجديد الجدير بالعناية فى هذا البحث أن المؤلف عزى هذه الفوضى فى قوة وبصورة واضحة إلى تقدم العلوم الطبيعية تقدماً ليس فى ميدان العلوم الإجتماعية ودراسة النفسيات مايقابله أو يقرب منه . فقرر — فى غير تلكؤ أو شك أو إستثناء — أن العلوم الطبيعية ، ومايتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية ، هى المسئولة أولاً ومباشرة عن هذا الإختلال فى النظام العالمى ، الذى إبتدأت مظاهره تبدو فى النظم الإجتماعية والمصاعب السياسية والأزمة الإقتصادية الحاضرة . فليس من شك فى أن العالم يعاني اليوم من أزمة إقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلها من قبل ، وأن مسائل السياسة العامة قد بلغت حداً كبيراً من الخلل وإختلاف الرأى وتعدد المذاهب . ولعلها لم تعرف فى يوم من الأيام مثل ماهى عليه اليوم من القوة والعنف .

فضعف نظام الاسرة . وإنتشار الجريمة . وتفشى الرشوة وما ماثلها من مظاهر النقص والخلل الإجتماعى فى الحضارة الراهنة ، ماكل ذلك إلا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمي وإستفحال أمر الآلة الميكانيكية ، مما أصبحت معه الحياة الهادئة المطمئنة متعسرة صعبة ، أو هى بالفعل وفى واقع الأمر ، معدومة .

يقول المؤلف إن الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما يخيل إلى البعض ، وإنما هى ترجع إلى ماهو أبعد من العلم الحديث وأكثر إيغالاً فى التاريخ من « كوبير نيكوس » . فهى ترجع إلى الفلسفة الإغريقية ، وإلى القانون الروماني وإلى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبي القديم .

والعالم لايضطرب الآن ، ولاتختل نظمه لو أنه لم ينس أو يتناسى تلك الدعائم وذلك الأساس القديم . ونتج من ذلك أن أصبح البناء أثقل من أن يحتمله الأساس الذى أهمل أمره . وفى الوقت الذى نجد فيه أن أحد جوانب هذا البناء قد تضخم و«استكرش» نجد الجانب الآخر مازال هزيلاً ضامراً . وإذا تصور القارئ شكل بنيان أهمل أساسه ، وثقل سقفه . وتضخم جانب من جوانبه كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو « لمكدوجال » وكملت لمخيلته صورة الإنهيار الذى لابد أن يحصل .

فقد صرح الاستاذ « رمزى ميور » — وهو من الأحرار المجددين — فى حديث له

مع إحدى الصحف « إن الحضارة الراهنة مهددة بالخـــراب ، إذا لم تتمخض الأعوام المقبلة عن حرية واسعة للتجارة العالمية ، وإذا لم تعمل إنجلترا ضد هذا التيار الجنوني » .

وصرح دوق « نورثمبرلاند » — وهو الرجل المحافظ — بقوله « إننا على وشك أزمة كبرى فى الشئون العالمية . وأن ليس فى الدلائل الحاضرة مايشير إلى التقدم المطرد ، وأن الأمل فى السلام العالمي لم يعد إلا حلماً جميلاً . وكذلك الحال فى شئون الإجتماع والسياسة ، فقـــد دلت النظم الحاضرة على إفلاسها وأنها لم تعد صالحة للوقت الحاضر ، وهذه الظاهرة التى نلمحها فى التاريخ الأدبي الحديث سيستفحل أمرها إلى أن تقضى على البقية الباقية من النظم القائمة . والسبب فى كل ذلك أن أى حضارة إنما تقوم على أساس الدين والوطنية — وقد فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها فى العصر الحديث » .

ويتضح من هذا أن معظم الكتاب ورجال العلم — على إختلاف مشاربهم وأحزابهم — يرون هذه الفوضى ويتوجسون شراً من دوام هذا الروح الخطر .

يقول « مكدوجال » فى تعزيز رأيه إن الإنسان العصرى قد إهتم بالعلوم الطبيعية فنالت هذه العلوم كل الحظوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأى العام ؛ لأن فوائدها نفعية مادية ، فالآلة البخارية والطيارة والأتومبيل ووسائل المواصلات الأخرى التى قربت المسافات وجعلت السفر من مكان إلى آخر لذة ومتعة ؛ هى فى واقع الأمر النتيجة المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وإزدهارها .

والسينما والراديو ، والنـــور الكهربائي والفنوغراف وأشباهها من آلات الترف ومعدات النعيم ؛ هى الأخرى من ذخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لايقبل عليها الناس ويولونها العناية ويساعدون من يعمل فى حقلها ويقوم بالتجارب والمباحث فى ميدانها ، إذ جعلت لهم الحياة جنة تجرى من تحتها الأنهار .

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الإحترام الذى يقرب من العبادة فى مظاهره . ولا يختلف عن الإيمان الدينى فى شىء ، لأنها قد أذلت لنا الطبيعة ومكنتنا من خيراتها ، وجعلتنا السادة الحاكمين بأمرنا ، نقول « كن فيكون » .

غير أن كل ذلك الترف ، وكل تلك الملذات : قد إبتدأ ظلها يتقلص . وإتضح — ولكن أخيراً — أن الصناعة وحدها ، وأن الإنتاج الفائض ، وأن الآلة وسهولة المواصلات وما إليها ليست هى كل شىء فى نظام العالم ليستقر العالم ، ويرفل الناس فى حلل الرخاء والسلام والنعيم . لأن هنالك عناصر وعوامل إجتماعية وإنسانية لايمكن أن تقوم حضارة ، أو يعم رخاء ، أو تزدهر ثقافة ، أو يستتب أمن ، أو يستقر نظام ، وتطمئن حياة ، من غير

معرفتها والتوفر على درسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس .

في هذا العصر الذي نرى فيه كل شيء يغري بالتبحر في العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل التثبيط إنصراف رجـال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الإجتماعية ، ممـا وقف معه كل بحث نزيه في حقيقة الإنسان ، وعلوم المجتمع والحياة عامة .

فالكنيسة مثلا قد وقفت حجر عثرة أمام أي بحث في التقاليد والمعتقدات ودرسها درساً حراً . ولم تسلم الجامعات –وهي المعاهد الحرة– من هذه العراقيل الرجعية ،وحكم بذلك على علوم الإجتماع أن تبقى راكدة آسنة ، وأصبح درس الكواكب والإلكترونات أهم عندنا بكثير وأحق بعنايتنا من درس الإنسان ، وهو « الدرس الحق » كما قال «بوب» في قصيدته المعروفة .

يقول «مكدوجال» مامعناه : « إننا نعيش في عصر بلغت فيه الفوضى الإجتماعية أشدها . ومرجع هذه الفوضى ولاشك هو العلوم الطبيعية . فما علاج ذلك ؟ . . العلاج من داء العلم هو زيادة العلم . ولكن أي علم ؟ ! . . عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهي التي تحمل تبعة هذا الخراب . ولنفرض أننا إزددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وتبحراً ، وأكتشفنا المدهش الرائع في ميدانها . وجاءنا « أينشتين » آخر فبرهن على أن هذا الفضاء الذي نرى لا وجود له ، ولاحقيقة فيه . فهل ذلك العلم ياترى يحل مشكلتنا الإجتماعية الحاضرة أو يجعلنا أبصر بنظام الحكم ، وأعلم بطبيعة الإنسان ؟ ! » .

فعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبه قوى مختلفة ، وتتنازعه دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم من الصدق والحق مايجعلنا أشد ريبة وأكثر شكاً في حقيقة أي نظام وصدق أية نظرية . وقيام النظم السياسية المختلفة من فاشية ودكتاتورية وديمقراطية وشيوعية إلى آخر النظم السياسية الحاضرة هو الدليل المادي على أننا لانفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الأصلح ، وإننا نجهل هذا الإنسان الذي نود أن نشرع له ، ونسن له القوانين ، ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً أقل ما يقال فيه إنه لايمكننا من الإضطلاع بهذه المهمة الخطرة .

هل يستطيع الرجل السياسي الآن أن يطمئن إلى نتائج بعينها من أسباب محدودة ؟ وهل نحن نعرف الدوافع الإنسانية وإختلافها ، والظروف الخارجية وتشعبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو أسلوباً من النظام ينجح في مكان ما وبين قبيل ما ، ولايكون نصيبه مثل ذلك النجاح في مكان ثان وبين قبيل آخر ؟ ! .

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الأجناس والأفراد . وهل التشابه بين

الأجناس البشرية أكثر ، أو أن وجوه الإختلاف أكثر وأظهر وأبعد ؟ وهل إصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، أم أن لا إصلاح للنفوس ولاتدريب للطباع ؟ وهل البشر يتفاوتون من حيث إنتاج الحضارات والإبقاء عليها ، أم أنهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب أن تكون ؟ ! وبالإختصار ماطبيعة علـــم الحياة ، وحقيقة « الإنسان » وصـــحة النظم الإجتماعية ! ؟

إننا لانعلم من كل ذلك شيئا يصح الركـــون إليه والإعتماد عليه . وهـــذا العلم — لو علمنا — هو وحده القدير على انتشالنا من هذهالوهدة التي تتردى فيها الإنسانية اليوم.

وعلم الإقتصاد ، هل هو علم حقا ؟ أيمكن عرفان النتائج المحتمة من المقدمات المقررة ؟ يكفي رداً على هذا السؤال وأمثاله أن يطالع القارىء أي صحيفة عصرية تتناول الشئون الإقتصادية فيجد من الإختلاف في الرأي ، والتبلبل في وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشفى جواب .

ونحن لو كنا أعلم قليلا بشئون الاقتصاد والمعاملة لما وقعنا في هذه الأزمة الطاحنة التي إختلفت الآراء وتعددت في أسبابها ، حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، إلا جهلنا بها !

بل أن هنالك مسائل إقتصادية أولية ، مثل الأساس الذهبي للعملة ، وقانون الطلب والعرض يختلف في شأنها هؤلاء « العلماء » الأجلاء ولايعرفون وجه الصواب فيها .

ومع كثرة أحاديث الإقتصاديين هـــذه الأيام عن « الدوافع والقوى » المجهولة ، وعن « الثقة » فالعالم مازال ينفق ملايين الجنيهات في البحث عن الغازات السامة ومعدات الحروب ولاينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلا .

وليس يبعد في ظننا أن بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء أن يكتشفوا لنا محلولاً كيمائياً تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الأفراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ماهي طبيعة هذه « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها في كتابات الإقتصاديين ؟ إننا بلاشك في حاجة إلى نور يضيء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريخ والبحث عن معادلة لحامض الفنيك ! .

و « **السيكولوجيا** » : هذا العلم الحيوي الذي لايمكن أن تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير أساسه—ما حقيقته ؟ . . . إن هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجاوز — مازال مرتعاً خصباً لمختلف الآراء المتنافرة ، ومتباين الأحكام والنظريات . وفي السيكولوجيا الحديثة من النظريات والفروض والمدارس الفكرية مايخيل للقارىء معه أن هذا « الشيء » الذي نسميه إنساناً قد يكون إلهاً ، أو قد يكون آلة ، أو قد لايكون شيئاً من الأشياء على

وجه الإطلاق ! .

هذا هو مجمل آراء المؤلف . وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسبغ عليه شيئا من مرارة تهكمه وشدة حماسته ، ونكون امناء فى نقل آرائه بعد كل ذلك. والرأى الذى يخرج به الإنسان من كتابه هذا هو أن علوم الإقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس والسياسة وخلافها من العلوم يجب أن تكون قبلة الباحثين والنبهاء إذا رغبنا فى الإبقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضرورى بين معلومات الإنسان . ذلك لأن هذه العلوم هى الأسس التى لايمكن أن يقوم الرقى الآلى والصناعى إلا عليها .

غير أننا نلاحظ -- ولو أننا نوافق المؤلف فى النتائج التى توصل إليها والدعوة التى ينادى بها — أن الأستاذ « مكدوجال » فى إعتقادنا قد فاته أن يشير إلى أكثر الأسباب قوة ووضوحاً وصدقاً فى تقدم العلوم الطبيعية . وتخلف علوم الإجتماع . ويبدو لنا أن المنفعة المادية التى ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية . وإن كانت نتيجة من نتائجها . غير أنها لم تكن الحافز الأول والهام لدى العالم فى معمله. أو الرياضى فى مكتبه. بل أن هنالك من العلوم الطبيعية ، المزدهرة ماليس فيها أى فوائد مادية مباشرة تنجم عنها أويقبل عليها الجمهور لفائدتها ، كأبحاث « أينشتين » مثلاً ودراسة الفلك والطبقات الأرضية الخ.

وعندنا أن السبب الأول والهام فى تقدم العلوم الطبيعية إنما هوسبب طبيعى لا سبيل إلى تكرانه أو تخطيه وهو أن العلوم الطبيعية أسهل من العلوم الإجتماعية إذ أن البحث فى العلم الطبيعى يرجع إلى ملكات الإنسان الأولية المشاعة ، وأن أسلوب البحث العلمى أسهل ووسائل التثبت والفحص فيه قريبة التناول . والباحث فى العلوم الطبيعية لايحتاج إلى أكثر من الذكاء العادى إلى جانب الملاحظة والفحص والتجربة والمثابرة —الأشياء التى يعتمد فيها على الحواس — والعلم الطبيعى فى هذا المعنى لايعنى إلا بعالم المحسوسات ولايهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة ، والسبح وراء التأملات والتخيلات . وعالمه إنما هو عالم المادة والمحسوسات وأدواته موجودة فى « حيز الفضاء والزمن » . على خلاف علوم الإجتماع ودراسة الإنسان فإن حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها أكثر . ونصيب التخيل والذكاء أوسع . فنحن قد نتفق عموما على وجود هذه الحروف والكلمات التى تكون هذا المقال . ثم نحلل هذه الصحيفة ومحتوياتها وعناصرها الكيمائية والطبيعية فنرد الورق والحبر إلى أصلها والحروف والرسوم إلى طبعها . ولكننا قل أن نتفق على قيمة هذا المقال، أو نفسية كاتبه، أو الدوافع التى دفعت به إلى تسطيره ، لأن مرد هذه الأشياء إلى غير الحس وإلى غير المنطق الذى يسهل الإتفاق عليه بين معظم الناس .

فإرتقاء العلوم الطبيعية إذاً شيء طبيعي لم يتعد قانون البساطة والسهولة . وليس الغريب أن ترتقي العلوم الطبيعية أكثر من علوم الإجتماع . بل الغريب أن تنعكس المسألة . والعلوم الطبيعية مهما إرتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — إذا قيست بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً . فإذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض الفوائد النفعية فليست هذه الفوائد بواعث تقدمها والإقبال عليها ، وإن كانت مما يشجع على البحث فيها والمضي في درسها . ولطالما ظننت أن العلم الطبيعي — مهما ظن الناس بعظمته — أولى في وسائله وفهمه إذا قيس بالدين في صميمه ولبابه .

الاستعمار والحضارة *

بقلم الكاتب الإنكليزى « ليونارد ولف »

تلخيص وتعليق

ينتمي « ليونارد ولف » إلى رهط كريم من كبار مفكرى الإنجليز الأحرار فى العصر الحاضر ، ذلك الرهط الذى ينتظم فيه « ولز » و « شو » و « برتراند رسل » و « هارولد لاسكي » و « سدني ويب » وأندادهم من « الإنتلجنسيا » ذات التفكير الحر . وانه لمن الدلائل الطيبة التى تذكر لهذا العصر أن بعض علمائه وفلاسفته ورجال الفنون فيه قد إهتموا بمسائله الإجتماعية، وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنايتهم . فنرى « ولز » القصصي الأديب فى عهده الأخير لايكتب حرفاً واحداً إلا وهدفه الإصلاح الإجتماعي ، ونرى « برتراند رسل » يهمه أمر الثورة فى الصين ويكتب فى الشئون الهندية مثل إهتمامه بالفلسفة الرياضية، وسمات التفكير المجرد ، وننظر إلى صديقنا العالم البيولوجي الفذ « جوليان هكسلى » ينشغل بالشئون الافريقية ويجد لها مكاناً رحيباً إلى جانب الحديث عن التطور وخصائص الأحياء والوراثة وماإليها من الشئون العلمية . فهذا عصر علماؤه أدباء ، وأدباؤه علماء ، وفلاسفته يشتغلون بالصحافة ، وصحافته لايفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة الفلك . ولعل هذه النزعة الإنسانية الجديدة « New Humanism » هى من أرقى ماتمخضت عنه الحضارة الغربية فى طورها الأخير . هذه النزعة التى ترى العلم والفلسفة والسياسة والأدب والصحافة وحدة إنسانية من أسمى أغراضها خدمة النوع الإنساني « Homo-Sapiens » والعناية بروح الإنسان وجسمه . وإذا كان للإنسانية أن تعلو وللحالة الراهنة أن تبقى فهى بلاشك مدينة لهذا الروح الجميل ، الذى يذكيه فى أميركا « بابت » و « ممفورد » وفى انجلترا « هكسلي » و « ولز » وفى فرنسا « رومان رولان » وفى الشرق أمثال « طاغور » . فهؤلاء الكتاب يعنيهم شأن الإنسان أكثر مما تعنيهم شئون أوطانهم الضيقة ، ويعنيهم مستقبل الحضارات الإنسانية أكثر مما تعنيهم سيادة أوربا أو امريكا ، ويهمهم أن تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الأواصر ، خيرة الإنتاج فى إحترام متبادل وعطف سام . فهم يخافون ويتوجسون شراً من بواعث المنافسة الرخيصة ، والعداء العنصرى والبغض ، وعوامل الظلم والجشع ، والإستغلال المادى القصير النظر ، وطغيان السياسات العمياء التى دفعت بالعالم إلى الحرب الكبرى ، وهى على وشك أن ترديه فى حرب مثلها أو أهول

* المقتطف — ابريل سنة ١٩٣٤

وأخطر . فهؤلاء الكتاب يكتبون الكتب ، ويلقون المحاضرات ، وينشرون المقالات في الصحف في هذا المعنى . وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الإنسانية الجديدة بالشرح والإفاضة . وإنما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الإستعمار والحضارة ، عرض فيه لمشكلة الإستعمار الاوربي الحديث في قارتي أفريقيا وآسيا ، وعلاقة ذلك الإستعمار بالحضارة الاوربية الراهنة ، وعلاقة تلك الحضارة في زيها الصناعي المادي بسكان افريقيا . وتناول أسباب ذلك الإستعمار الحديث ومايترتب عليه من آثار وأخيراً بحث في مانتج عنه وما أتي به من مساوىء ومشكلات ، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب ، وماسيقود إليه العالم من خراب محقق إن هو إستمر على خططه وأساليبه المعهودة . وقد إخترت هذا الكتاب بعينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم مايشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعامل هذه المسائل ذهن عالم صافي التفكير ، ناصع الأسلوب مستقل الرأي غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ، وإنما همه الأكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له .

يقول الكاتب إن الحضارة الاوربية الحديثة هي شيء مختلف كل الإختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ، بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز أشد ماترتكز على الملوكية والأرستقراطية من جراء الغباء الذي صحبها ، ومن جراء الثورة الفرنسية ، ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية ، والمعمل والآلة والقاطرة والطيارة والنور الكهربائي ، فتضخمت الصناعة في أوروبا ، وأشتد التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والنجاح المادي فإضطرت تلك الحضارة أن تبحث عن أسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للإنتاج والعمل . ومن هنا شعرت أوربا بحاجتها إلى سائر العالم إذا كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة ، فتنافست الدول الأوربية في الإستئثار بالأقطار الأسيوية والأفريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعاتها . وساعدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت أمر إختراق البلدان النائية وربط العالم كله بعضه ببعض . وهذا من أهم الأسباب التي أسبغت على الحضارة الراهنة أهم خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون أي حضارة مهما كانت قوية ممتازة أن تجتاح بقية الحضارات أو تجبرها على الأخذ بها ، فكانت العزلة تامة بين آسيا وأفريقيا من حيث أساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في أوروبا بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ وهو تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف ، ولعله أعظم قفزة قفزها الإنسان .

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها . كذلك كان الإستعمار

الحديث إقتصادياً صناعياً في دوافعه وموجباته . ولم تستطع آسيا أو أفريقيا رداً له لأنه أتاهما فجأة بقوة ووسائل ليست في طاقتهما، ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختبارهما. فهي في الواقع حضارة إستعمارية غازية بمعداتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة. وقد كانت الوسائل الأولى في ذلك الإستعمار عن طريق التجار وأصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يعزز من مركز مقامها دول حربية قوية . ويقول المؤلف إن حادث الإستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام أي من ١٨١٤ – ١٩١٤ إستطاعت أوروبا أن تخضع القارة الأسيوية والأفريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذى لاينازع .

وقد كان الإعتقاد السائد في أوربا أن هذا الإستعمار هو الشيء الطبيعي، وأنه في صالح الشعوب الأجنبية أكثر منه في صالح أوربا إلى أن وقفت الحبشة أمام الطليان في عام ١٨٩٦، فدافعت عن أرضها دفاع الأبطال وهزمت الطليان شر هزيمة، ثم تلا ذلك حادث تغلب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥. ومن هنا إبتدأ التشكك في قيمة الحضارة الاوربية عند بعض الاوربيين . فإن انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الإستعمار الحديث ، إذ فهمت أوربا لأول مرة أن فتحها وغزوها للعالم بأجمعه قد تلاه رد فعل قوى من العالم بأجمعه، ثم جاء نجاح اليابان وإرتفاعها إلى مستوى الدول الأوربية الكبرى حافزاً ألهب حماسة العالم الأسيوى والافريقي ودفع به إلى الغض من أمر هذه الحضارة الجاحدة لحقوقه والتي فرضت عليه فرضاً . واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الاوربية وسبلها المختلفة . ويمكن أن يقال إنه إلى مستهل القرن العشرين لم تقم حركة قوية تناهض الإستعمار الأوربي . غير أننا نرى الآن أن معظم البلدان الأسيوية قد تحررت أو كادت تتحرر من السلطان الأجنبي . فتركيا والصين والهند هي الآن في ثورة ناجحة ضد الإستغلال الأجنبي. وفي الهند إضطراب قوى رغم كل الإصلاحات الدستورية، والحركة الهندية الآن لاترضى بأقل من الإستقلال التام .

وقد رفض الوفد في مصر بإباء منحه إستقلال زائف، ومازال يطالب بإستقلال البلاد إستقلالاً تاماً . وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجد المصاعب الدائمة في تونس، وسوريا تلتهب حماسة وثورة ضدها. وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا وأسبانيا في الريف مازالت ماثلة للأذهان . وفي أفريقيا نشأ شعور قوى ضد الإستغلال الأجنبي والسلطات الأوربية . والمؤلف يعتقد أن سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات ، وعنده أن مشكلة الإستعمار الحديث إنما هي مشكلة نزاع عنيف بين حضارة صناعية آلية لابد لها من الإستعمار لنجاحها ، وبين حضارات لاتريد الفناء فيها . والشيء

الجديد في هذا النزاع أن العالم لم يشهد نزاعاً في الحضارة بلغ من الشدة والطغيان مثل ماهو عليه الآن . وذلك لأن من خصائص الحضارة الاوربية الراهنة أنها تطغى على كل النظم والمؤسسات الإجتماعية في الحضارات الأخرى ولاتعرف التساهل أو الموادة في فرض مرها وإتباع سبلها . وهي تقوم على القوة الحربية في أساليبها والتنافس الإقتصادى العنيف في نسيجها .

ويعتقد « ليونارد ولف » أن الذين يقولون بأن النزاع الحالي بين أوربا وبقية العالم إنما هو نزاع عنصري أو ديني أو وطني إنما هم على خطأ واضح ، ذلك لأن العوامل العنصرية والدينية والوطنية غالباً ماتظهر على أنها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها . والحقيقة أن ليس العنصر ولا الدين أو الوطنية العامل الأول ولا العامل الهام في هذه الظاهرة . إنما يقول طغيان الحضارة الأوربية وأساليبها في الإستعمار والاستغلال هو الذي أذكى نار الثورة في الصين ، والقلاقل في الهند ومصر ، والتجديد في الدولة التركية ، وبعض العالم الإسلامي لدول أوربا جميعاً . والذين يخيل إليهم أنهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الإنقلابية وتفوق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون البشرة يستحقون الإستخفاف والريبة ، فاليابان بعد أن أصبحت دولة مستقلة لاتراها تشعر بمثل هذا العداء للرجل الأبيض الذي يشعر بمثله الرجل الصيني . اليابانيون يكرهون الأمريكيين لأن بينهم خصومة إستعمارية دائرة على توازن القوى الحربية في المحيط الباسفيكي ، والنزاع العنصري ماهو إلا ظاهرة سطحية يوجدها الشعور بالغنى والسيطرة الإقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يدقق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الأقصى يرى أن السبب الجوهري فيها نزاع بين الحضارات .

فالحضارة الأوربية الراهنة في مظهرها الإستعماري الحربي الإقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الإجتماعية بالزوال . وليس عجيباً أن تدافع تلك الحضارات الحادثة التي لاتعتبر المادة ولاترى رأى أوربا في المنافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما إتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية أو زى العنصر والدين فإن مصدرها بلاجدال هو إختلاف يسير في أسلوب الحياة أرادت الحضارة الراهنة القضاء عليه .

يجب أن لايغرب عن البال أن كيان الحضارة الأوربية الراهنة يقوم على التنافس الإقتصادي الصناعي . والتنافس الإقتصادي لايعرف سوى مبدأ الربح المادي للفرد سواء في أوربا أو في آسيا وأفريقيا . غير أن مثل ذلك الاستغلال لايتيسر في أوربا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق . وأوربا لاتحس بوطأة مساوىء حضارتها لأنها متجانسة قريبة

بعضها من بعض . ولكن آسيا أو أفريقيا تحسان بها إحساساً يهدد حياتهما ويكاد يفنيهما . والحضارة الراهنة التي أنجبت الإستعمار في آسيا وافريقيا وخلقت مصاحباته ومشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والإقتصادية بين الدول الأوربية نفسها .

وقد بدأت أوربا تشعر بمساوىء الحضارة الأوربية مع أن سكان أوربا لم يشهدوا جوانبها المبتذلة مثل ماشهد سكان آسيا وأفريقيا . وهذا الفرق في الحضارة الصناعية الآلية قد يقود في أوربا إلى نزاع عنيف بين إنجلترا وفرنسا مثلاً ، إذا كانت الأولى قوية جداً في وسائل الصناعة ومعدات الحرب ،وكانت الأخرى لاحول لها ولاسلطان من كل ذلك . فالمشكلة إذاً ليست مشكلة عنصرية ولا دينية ولاقومية ،وإنما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة وسبلها ووسائلها . وفكرة الوطنية نفسها هي من نتاج الحضارة الأوربية الحديثة. فهي غير معروفة في آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث . فإذا كانت الشعوب الأسيوية والأفريقية تستعملها فذلك لأنها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها للتحرر منها ؛ كما وقع في اليابان وتركيا مثلاً .

وقد عقد الكاتب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن الحضارة الرومانية والإستعمار الروماني ، فأبان الفرق الشاسع بين الإستعمار الروماني والإستعمار الحديث . ففي ذلك الإستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها والعمل بمقتضاها ، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق معيشتهم وحياتهم ذلك لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية ،وإنما كان دافعها الأول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي . وليس معنى ذلك أن الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها . وإنما كان يأتي ذلك تدريجياً وفي رفق وهوادة ، حتى أن الرومان أخذوا من الحضارة الإغريقية الشيء الكثير ، مع أنهم كانوا الغزاة الفاتحين .

والحضارة الإغريقية أيضاً مثل آخر نسوقه . فقد بلغت تلك الحضارة في أوج مجدها مستوى رفيعاً في الإجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون . وفتحت معظم شعوب العالم ، فكان لها فارس في الشرق ، ومصر في الجنوب ، والشعوب اللاتينية وفينيقيا في الغرب ، وإتصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنه لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم . ولم تتلاش أية حضارة من تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط . ذلك لأن الأغريق لم يحاولوا توحيد إمبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال والثقافات في شئون السياسةالاقتصادية أو النظم الإجتماعية الأخرى . فقد كانت الحضارة الأغريقية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التي دانت لها . وكذلك كان استعمار

« عصر النهضة » « Renaissance » كل غايته التبادل التجارى فى المحصولات وفتح الأسواق الأجنبية . وأخذ المواد الخام . وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سليمة لم يعقبها أي فتح حربي ، فلم يقع نزاع بين الحضارات لأن أوربا لم تكن فى معداتها الحربية بأعظم شأناً من الهند أو الصين .

أما قصة الاستعمار الحديث في آسيا فهى معروفة مشهورة ، إبتدأت فى أول الأمر بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوربية والأمراء الأسيويين كما حدث فى الهند .

ويتضح تصادم الثقافات جلياً ناصعاً فى الحركة الهندية الأخيرة التى أخذت تشتد بعد أوائل القرن العشرين . فهى فى الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الأوربية ونظمها الاستعمارية فـ« غاندى » ينفخ فى أمته تعاليمه الهندية لإكتشاف الروح الهندى الصميم . والرجوع إلى الحضارة الهندية وإصلاحها والسمو بها إلى أوج الحضارات الرفيعة . وقد استعمل الشباب الهندى المتعلم فى نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الأوربية لمحاربتها والتخلص منها . ومن الغريب حقا أن تحمل الحضارة الأوربية نفسها بذور حتفها وهلاكها .

وقـــد ابتدأت الحركة التركية بالمدعوة الدينية الإسلامية ، ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكى تتحرر من العبء الاقتصادى والسياسى الذى لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف « ومن نتائج هذا النزاع أن آسيا أصبحت الآن تعبد فكرة الوطنية السياسية . وهى فكرة غربية بلا جدال وقد دفعت هذه الفكرة بأوربا إلى الحرب الماضية ، فإذا لم تعمل أوربا كل مافى وسعها لمساعدة هذه الشعوب الأسيوية للتخلص من طور الإستعمار الى الإستقلال التام من غير عنف ولانزاع فإن العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تتلوها كارثة عظمى . تصبح بجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئا تافهاً قليل الأثر . »

أما إستعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع إقتصادية من غير شك . وكان الرحالة الأوربي أو الوكيل التجارى لشركة من الشركات يذهب إلى أواسط افريقيا ومعه ألوان من الهدايا والمنح يقدمها للأمير الافريقى ، ثم يطلب منه إمضاء معاهدة لايفهم لغتها مع الشركات التجـــارية . ويفهمه أن هذه المعاهدة ستدر على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وقد تم استعمار معظم بلدان أفريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة و«ستانلى» حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيك بإمضاء مثل تلك المعاهدة أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية . وبهذه الطريقة استولت إنكلترا وفرنـسا على مستعمراتها فى أواسط أفريقيا ، وحينما نشب النزاع بين الدول الأوربية على تحديد أراضى مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على أن كل من أمضى معاهدة مع أمير من أمراء أفريقيا على جزء من

الشاطىء الأفريقى فمن حقه الأرض الموازية لذلك الشاطىء فى داخل القارة الافريقية . وهنا يقول المؤلف :

« إن الطريقة التى اتبعت فى الإستيلاء على تلك الأراضى الافريقية كانت فى معظم الحالات وحشية موغلة فى الوحشية . وإن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء فى العلاقة الراهنة بين سكان افريقيا وأوربا . فإن تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء ، فهى تدل على أن الحضارة الأوربية تعامل الرجل الافريقى مثل معاملتها لأى حيوان أبكم ، ذلك لأن الرجل الأوربى يعتقد أن له الحق فى الاستيلاء على أرض الإفريقى بالقوة أو بالخداع . »

مــاذا فى السودان

ملاحظـــات عامـــة *

ذهبت إلى السودان بعد غياب عامين ونصف . وكنت أمني النفس في الطريق أن أرى وطني على خير ما يود الوطني لبلاده من مظاهر الحياة ودلائل التقدم وإطراد سبل التحسين والعمار . ذهبت إلى السودان إذاً كما يذهب كل وطني إلى وطنه بعد غيبة طويلة أو قصيرة ؛ وفي ذهني صور مما رأيت في الشام وفلسطين ومصر فماذا رأيت ؟

رأيت أرضاً واسعة منبسطة تلمع فيها الشمس نوراً خاطفاً وترسل من لهيبها ناراً محرقة ورأيت الأهلين يعشون فرادى وجماعات قليلة . ساهمي النظر ضعيفي الأجسام متثدي الخطى من أثر الجو المحرق ، والتغذية الضعيفة ، والحميات الوافدة ، وأوامر الرجل الأبيض العاسفة .

فهذا الصديق قد عرفته قبل أعوام كثير النشاط ، جم المعرفة ، شديد التوثب ، ماله الآن قد خبا وضعف نشاطه وحل الوجوم والخوف مكان الوضاءة والشجاعة. وذلك البنيان ماله قد تهدم وعفت آثاره وأصبح شائخا يعشش فيه البوم ويوحي بالكآبة والحزن . وهذه معاهد الدراسة قد عرفتها في أيامي أكثر حياة وطنية ونشاطاً مالها أصبحت قليلة العدد باهتة اللون ليس لها ذلك الإندفاق السابق أو الأمل الباسم ؟ !

مالي أرى كل شخص عرفته أقل حيوية وأكثر ضعفاً ؟ مالي أرى الوجوه واجمة الألسنة معقولة ؟ مالي أرى أخي وعمي وخالي وصحبي كل منهم كئيب حزين !

مالهذه الأرض الآمنة قد حل بها الخراب !

مالهذه الإنسانية الوادعة المسكينة قد سرقت منها حيويتها ! مالهؤلاء الرجال الذين كنت أعرفهم في شبابهم أذكياء بسامين قد استحالوا أمواتاً لاينطقون إلا همساً ولا يتكلمون إلا وهم خائفون وجلون !

هذا سوق أم درمان ، مازال كل شيء فيه كما كان قبل أعوام وأعوام ، فبائع «القش» في مكانه القديم . وكمساري الترام هوهو إنما أقل حيوية ونظافة ، وبائعو الذرة والتمر كلهم في أماكنهم التي كانوا فيها قبل عشرات وعشرات الأعوام من عهد الحكومة المهدية

* جريدة الجهاد — العدد ٥٢٣ — ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ .

جالسين ينظرون إلى الأفق وليس من بيع أو شراء . والسعيد السعيد من ظفر بقوت يومه. رطل من الذرة أو قطعة من اللحم .

فالتاجر والمزارع وصغار الصناع كلهم ساخط غاضب لايصرح بسخطه أو غضبه إلا في همس وفي حرز أمين، لأنهم يعرفون أن الرجل منهم يستطيع أن يبيت على الطوى ويبكي أولاده جوعاً ولايستطيع أن يؤخر ماعليه للحكومة من الضرائب المتعددة والعوائد المتنوعة .

فالمزارع الذي يعمل طيلة يومه تحت وهج الشمس وفتك الملاريا به تراه عظاماً نخرة من طول المرض وضعف التغذية وسوء السكنى وجهله بأصول الصحة العامة .

والموظف الوطني الذي يتناول أجره الزهيد يصرفه على عائلة كبيرة كلها معتمدة عليه . والتاجر لاتبقى له الحكومة من الأرباح إلا مايعيش به عيشة الكفاف . هذه حالة الإنسانية العربية السودانية التي تسكن ضفاف النيل ؛ عمل متواصل صعب تحت جو يحرق الأعصاب مملوء بالأوباء والحميات، مسكن لايصلح للحيوانات فضلاً عن بني الإنسان، صورة عامة لاشذوذ فيها ولاشذوذ اللهم إلا حياة الرجل الأبيض وسط هذه الإنسانية السوداء . فالرجل الإنجليزي مهما صغرت وظيفته يحيا وينعم في أرض السودان بآخر ما أعدت الحضارة الأوربية من وسائل الراحة وسبل التنعم ونواحي الرياضة والتسلية .

فهو يسكن في فيلا تحوطها الجنان والخضرة من كل جانب، بها ميدان للتنس، وجراج للاتومبيل «ومراوح» تخفف من وطأة الحر «وثلج» في أيام الصيف يحيط بالجدران . ويلعب «البولو» في سهول أرض الرجل الأسود . وله من الخدم والحشم العدد الوفير. نهاره عمل بسيط في مكاتب أنيقة، وليله رياضة وتسلية يتأنق فيها ويحيطها بترف ورفاهية هي كل مايستطيع الرجل الأسود أن يعمل أو يدفع ؛ وأحياناً مما لايستطيع أن يعمل أو يدفع . فإذا فرغوا من التنس أو البولو فهناك نواديهم الكثيرة يسمرون فيها إلى ساعة متأخرة من الليل والتي يكلف الواحد منها الخزينة السودانية ما يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة آلاف من الجنيهات يحيون الحفلات الراقصة، ثم نوم هنيء مريء وأحلام سعيدة هانئة ! . . . حقا إن عبء الرجل الأبيض لعبء ثقيل فادح ! .

وإذا إستطاع القاريء أن يجسم هذه الصورة فقد وصل إلى كنه الروح السودانية في تاريخها الحديث . أصل عربي شب وترعرع في سهول الجزيرة العربية القاحلة فحمل معه شيئاً من فلسفة القضاء والقدر ، وشعور حاد مستوفز ألهبته شمس المنطقة الحارة ، وحميات تفتك بالأجسام فتسرق منها حيويتها وقوتها ، ومنظر سهل منبسط يتيه النظر في شعابه

وتقف النفس أمامه حائرة ضعيفة . وفقر تعمل الحكومة على بقائه . وسيد أبيض سخر هؤلاء الناس لينعم هو ويترف على حساب عيشة الكفاف للرجل الأسود . أغريب بعد كل هذا إذا زهد الرجل السوداني في الحياة وعلت وجهه تلك الكآبة الحزينة وذلك السهوم العبقري الشاعر !

أغريب بعد ذلك إذا أحتقر هذه الدنيا . وأصبح يمشي مشية المغلوب على أمره غير طامع في حاضرها أو مستقبلها، إنه يعيش في هذه الدنيا كما يعيش الحيوان لايعرف من فرح الحياة شيئاً ولايرى لوجوده كبير معنى. إذ أن حصته منها هي الألم والجوع والمرض.

أغريب بعد هذا تدين هذا الشعب وإيمانه العميق بالحياة الآتية ، التي من أجلها يحيا ويتألم ويصلي صلاة الخشوع والعبادة !

نتيجة منطقية لعوامل قاسية !

لكن ماهي الأعمال التي يبرر بها الإنجليز وجودهم في السودان ؟ .

أهذه هي رسالة الحضارة الأوربية إلى الوحشية الأفريقية ؟ .

أهي تسخير الرجل الأفريقي طيلة يومه لينعم الرجل الإنجليزي بكماليات الجسد، وفي سبيل هذه الكماليات يذكون مرارات النفوس وعداوات الشعوب! أمن أجل هذا يبقون على الجهل ويحاربون النور والعلم ! ألاجل هذا يميتون النفوس ويحتقرون الوجدان الإنساني !

ألأجل هذا لايطلبون للشعوب الأفريقية إرتفاع مستوى الحياة !

ليست المشكلة بمشكلة إنجلترا نحو السودان وإنما هي مشكلة أسوأ نتائج الحضارة الأوربية نحو أفريقيا ومستقبلها . إنما هي مشكلة أوربا المستعمرة نحو مستقبل الجنس البشري كله !

الإدارة الأهلية *

آخر تجربة في سياسة الإستعمار

من أكبر المسائل التى تواجه المستعمرين وتقلق بالهم قيام الوطنيات القومية بعد فترة طويلة أو قصيرة من حكمهم للمستعمرات . ويظهر أن معظم كتاب الإنجليز الإداريين الذين إشتغلوا فى إدارة البلاد الشرقية والأفريقية على إتفاق بأن عنصر الشباب المتعلم وفق المناهج الحديثة هو الذى يسبب متاعبهم ويقلق راحة الأهلين الساكنين، فتكثر مراقبته لأعمال الحكومة الأجنبية، وينبه مواطنيه إلى مواطن الخطر والإستغلال فى سياسة الإستعمار وبذلك تقوم الحركات القومية — حركات التحرر والإستقلال . ذلك ماحدث فى الهند ومصر وغيرهما من البلدان الناهضة .

وقد كتب فى هذا المعنى « اللورد لوجارد » حاكم نيجيريا سابقاً وأحد أقطاب الإمبراطورية الأفريقية . كذلك أشار إلى هذه المسألة « اللورد ملنر » عقب زيارته لمصر تلك الزيارة المشهورة . ومن هنا كثرت مراقبتهم للتعليم والمتعلمين والتضييق عليهم . وطال تفكيرهم فى هذا الصدد . ماذا هم فاعلون مع الأحزاب الوطنية التى تتألف عادة من الشبان المتعلمين فيطالبون بحصتهم فى حكومة بلادهم إذا لم يطالبوا بالإستقلال التام ؟

إجابة عـــلى هذه المشكلة وخروجاً من هـذه الحيرة الملحة إكتشفوا أخيراً ما أسموه بالإدارة الأهليـــة .

وقبل أن نناقش الإدارة الأهلية نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة عن ماهية هذه الإدارة ودائرة اختصاصها .

الإدارة الأهلية أو الحكم غير المباشر ، أو الرجوع بالسلطة الحكومية إلى أول حياة القبيلة Devolution . هو أن تعطى كامل السلطة من قضائيـــة وتنفيذية وتشريعية وما يختص بالتعليم والأمن وإدارة البلاد عامة إلى النظار والعمد والمشايخ ، وأن يحكم كل ناظر قبيلته على حدة، وأن يتصرف فى شئون أهليها بما يمليه عليه علمه أو جهله والعادات والتقاليد. وبالأختصار أن يحكم قبيلته ويدير شئونها كما كانت تفعل الجماعات الأولى منذ فجر التاريخ، لايستند إلى قانون حديث أو إلى دستور نظامى سوى نظام العادة العتيقة وسطوة

* جريدة الجهاد — العدد ٥٢٧ — ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ .

العمدة أو الناظر. وعلى هذا يأمن المستعمر أن كل قبيلة وكل قرية تقريباً تساس على حدة. لاعلاقة لها بالقبيلة الأخرى إلا علائق الجوار، ولامشاركة بينهما فى الشعور أو الوحدة القومية. وهذا هو النظام الإقطاعى فى أبشع صوره. وعلى هذه الصورة يصعب قيام أمة ذات شعور واحد أو مصالح مشتركة، بل ربما نتج عن ذلك التحاسد والتنافس بين هذه القبائل كما يحصل بين الأمم المختلفة.

فناظر القبيلة هو الذى يؤسس المحاكم القضائية فى القرى التى تقع تحت نظارته. وهو الذي يعاقب من يشاء بأى عقوبة يريد. وعليه أن يجمع الضرائب وأن يكون هيئة بوليسية داخل نظارته أو أمارته، وأن تكون له مدارس خاضعة لأوامره وسياسته. وأن يعمل هذا بما توحيه عليه العادات والتقاليد القديمة والسياسة الإنجليزية. وأن تكون مهمة المفتش الإنجليزى معه هى حصة الإستشارة. وإسداء النصح والإرشاد فقط.

وقد أسهب «اللورد لوجارد» فى كتابه «الإنتداب الثنائي فى أفريقيا الاستوائية البريطانية» فى هذا المعنى وطبق نظرياته هذه فعلا فى البلاد التى كان حاكماً عليها كنيجريا وخلافها. وهو يعتقد أن الأنظمة السياسية الحديثة، مهما يكن نصيبها من الصلاح فى أوروبا فهي بلا شك غير صالحة مع الشعوب الاسيوية والافريقية المتأخرة، وأن التعليم أو الثقافة الاوربية لاتنتج خيراً فى العقول الافريقية، وأن خير عمل هو أن تبقى الجماعات الأفريقية على ما كانت عليه سابقاً. وأن تتقدم وفق عاداتها وتقاليدها من تلقاء نفسها، ولذلك وجب على الحكومات الإنجليزية أن تعمل على تثبيت حياة القبيلة العتيدة، وأن تترك الجماعات الأفريقية على جهلها أو تعلمها ما تستفيد منه عملياً كالصناعات اليدوية وما إليها.

وغنى عن البيان أن إدارة حكومة السودان إلى سنة ١٩٢٤ أى إلى سنة خروج الجيش المصرى من السودان، كانت على وفق النظام المصرى، وليس للعمد والمشايخ من السلطة أكثر مما لهم فى مصر حتى الوقت الحاضر. إلا أن حوادث ١٩٢٤ قد نبهتهم إلى الأخذ بهذه السياسة التى تستعمل فى بعض بلدان أفريقيا كنيجيريا ويوغندا وتنجانيقا.

لهذا وخوفاً من أن يعيد السودان فى تاريخه الحديث قصة الهند ومصر مع الإستعمار البريطاني شطوا فى الأعوام الأخيرة لتغيير سياستهم فى إدارة البلاد. ورأوا أن إدارة السودان من حكومة مركزية بيروقراطية فى الخرطوم على نهج الحكومات الحديثة لابد موقعهم فى المشاكل القومية التى يخافونها ويعملون على تلافيها. وقد نبههم لذلك اللورد «ملنر» الذى ظن أن الحركة المصرية إنما نشأت لأن الأفكار الغربية فى الحكم والتعليم كانت

سائدة في البلاد المصرية إلى آخر ماقال !

ويقول الإنجليز أنفسهم ، في معرض الدفاع عن الإدارة الأهلية ، أمام الرأى العام الأوربي ،إنهم قد أعطوا السلطة لذويها وانهم لايحكمون هذه الشعوب مباشرة كما وهم يعتقدون أنهم قد قطعوا خط الرجعة لأى حزب وطنى يقوم فى المستقبل لينادى « بأن السودان للسودانيين » لأنهم سيجيبون قائلين « وهو كذلك » ويشيرون إلى الإدارة الأهلية والمحاكم القروية وما إليها .

وقد ذكرت الكاتبة الفرنسية « اوديتى كين » فى كتيب صغير عن السودان هذه المسألة فقالت : قد شعر ولاة الأمور أن ليس من الحكمة تطبيق القانون الغربي على الشعوب الشرقية ، وأن الإدارة ربما تكون أشد ثباتاً إذ هى أعطت التقاليد القومية الفرصة الكافية .وقد عمل بذلك حاكم السودان الجديد ، وأوضح بصريح العبارة حين قدومه للبلاد أن نظام الحكومة البيروقراطى المنتشر الآن فى السودان لابد أن يعيد فى المستقبل سلسلة الحوادث التى وقعت في الهند . وأن خير مايحمينا من النداء الذى لابد آت فى المستقبل « السودان للسودانيين » أن نجيب عليه بحق « نعم هو كذلك الآن » .

فكل مايقال عن قلة تكاليف هذا النظام من الناحية المالية وماشاع عنه فى أوربا أنه حكم غير مباشر لصالح الأهالى إنما هو ذر للرماد فى العيون . فالسبب سياسى بحت ؛ لكن ترى هل تنجح هذه الإدارة فى السودان ؟ وهل هى إذا نجحت النجاح الظاهرى هل ستحميهم من إمكان وقوع سلسلة الحوادث الهندية التى يخافونها ؟

يمكننى أن أقول بالتأكيد إن الإدارة الأهلية تجربة فاشلة فى السودان . ولايمكن إلا أن تفشل ، وإنها بدلاً من أن تثبت النظام الحاضر فى السودان وتنشر الأمن والرخاء فى البلاد قد خلقت موجة جديدة من الإستياء وشعوراً شديداً بالمرارة فى النفوس وعدم أطمئنان للمستقبل ، ونفوراً من الأهالى وسخطاً ، وتأففا لايوصف من جانب المتعلمين وساكنى المدن

لاتنجح هذه الإدارة الأهلية فى السودان لأسباب عدة نذكر أهمها :ـــ

أولا : ليس شك أن للسودان تاريخاً قديماً وحديثاً . وإذا تركنا تاريخ السودان القديم ، فإن فى تاريخ السودان الحديث مايكفى . فقد أديرت شئون السودان من عهد الحكم التركى السابق كوحدة واحدة إلى سنة ١٩٢٤ ؛ واعتاد الأهالى واعتاد معهم النظار والمشايخ أن ينظروا إلى الحكم المصرى أو حكم المهدية أو الحكم الإنجليزى الأخير على أنه الشيء الطبيعى . فلايمكن مهما تدرجوا فى هذه الإدارة أن يقبلها الأهالى عن رضاء وحسن نية .

وماظنك بهؤلاء العمد والنظار الذين كانوا يساقون أمام المأمور وصغار الكتبة بإهانة وذل فتعطى لهم السلطة فجأة ويحييهم المفتش رافعاً يده إلى جبينه . أى إنقلاب خطير يحدث فى نفسية الأهالى ! وفى نفسية المآمير والوطنيين المستنيرين ! بل أى إنقلاب يحدث فى نفسية العمدة والناظر الجاهل الأمى ! إنه لاشك يود إظهار سلطته الجديدة بكل مايستطيع الجهل والغباء أن يملى عليه – هذا ماحصل وسنبينه فى حينه .

ثانيا : ليس السودان بالشعب الإفريقى الذى انقطعت علاقته مع العالم الخارجى . فالسودان قد إعتاد على حكم الدولة الموحدة وإخلاصه مازال متيناً للحضارة الإسلامية العربية التى لايمكن أن ترضى بحكام جهلاء . خصوصاً وأن لهم علاقات متينة مع الشعوب العربية التى يتكلمون لغاتها ويأخذون عن قادتها أفكارهم عن الحكومة والقوميات . فالوحدة العربية والوحدة الإسلامية قوية فى السودان حتى بين القرويين إلى درجة العبادة . هذا إذا لم نذكر شيئا عن علاقتنا الثقافية والسياسية مع مصر . فعن مصر يأخذ السودانيون . وإليها ينظرون فى محاكاة الأساليب والأنظمة . ولايوجد شىء من حكم العمد والمشايخ فى مصر .

ثالثا : إن هؤلاء العمد والمشايخ لم تكن لهم قط إلا فى خيال هؤلاء المستعمرين هذه السلطة التى أعطيت لهم ، نعم قد كانت للعمد والمشايخ بين الزراع القرويين شىء من المكانة هى مكانة الإستشارة والأب الأكبر ، يلجأون اليهم فى صعوباتهم العائلية والإجتماعية . وكان هؤلاء العمد يعملون على إرضاء أناسهم بالحسنى والخير . أما الآن فإن لهم سلطة مستمدة من سلطان الحكومة الأجنبية يدعمها الجيش والبوليس وهم لذلك قد تغيرت علاقتهم مع أناسهم على هذا الإعتبار . وفقدوا صفتهم الاولى وأصبحوا موظفين أجانب لاينظر إليهم القروى نظرة الأبوة والإحترام الأولى . كما أن العمدة لايعمل على إبقاء تلك النظرة .

رابعا : إن وجود فئة مستنيرة من أبناء البلاد لاتعترف بها الحكومة ولاتعيرها أى إهتمام أو تعطيها ماتستحقه من نصيبها فى حكم البـلاد وخدمتها مما يثير سخطها وشعورها السياسى أكثر بكثير مما لوظلت الإدارة تحت يد الإنجليز المسئولين مباشرة . وهذا مانستدل عليه بالحوادث . فإننى ماتحدثت إلى أى سودانى له أى نصيب من المعرفة فى زيارتى الأخيرة سواء من المتعلمين فى المدارس الحديثة أو من المتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً إلا وكان مر اللهجة شديد الإستياء مـن هذه الارستقراطية الجديدة أرستقراطية الجهل والرجعية .

خامسا : إن وسائل هؤلاء المشايخ والعمد والنظار في الإنتقام من عدو قديم أو محاباة الأقارب والأنصار سخيفة تشبه في سخفها أساليب الأطفال ، فقد يطرد الناظر أو العمدة صاحب الأرض من أرضه لمجرد سبب شخصي ، وأن يزيد الغرامة على أي عدو قديم أو أي منافس له في الزراعة أو العمل . وليس هنالك إستئناف في حكم المحاكم القروية المعصومة من الخطأ تحت نظام هذه الحضارة التي تمخض عنها العقل الإنجليزي الحديث .

سادسا : إن إنتشار الرشوة وتقديم المصلحة الذاتية على المصلحة العامة في حكم المحاكم القروية ، وتوقيع الغرامات الكبيرة لأقل سبب ، وإعطاء الأقارب والمحاسيب أراض وحقوقاً ، وتقليل ماعليهم من ضرائب ، وفرض ضرائب كبيرة على أناس ليس عليهم تلك الضرائب ، مما يسارع بموت هذا النظام ويقضي عليه بأن يفقد احترامه وعدله بين الأهالي قبل أن تكتشفه الحكومة المركزية في الخرطوم .

نرى من هذا البحث القصير أن الإدارة الأهلية التي لم يعرفها السودان قبل سنة ١٩٢٤ ، إنما هي وليدة الحاجة السياسية للقضاء على مستقبل السودان السياسي من قبل حركة قومية مستنيرة يقودها الرأي العام السوداني المستنير ، وهي أيضا حيلة سياسية لصد المفاوض المصري في مسألة السودان بأن السودان أصبح يحكم نفسه بنفسه ، وهي أيضا تخلي عن المسئولية عن حكم البلاد مباشرة والقاء سوء الإدارة على الأهالي أنفسهم بأن القوها على عاتق رؤساء القبائل الجهلاء وتفادوا أو ظنوا أنهم بذلك يتفادون مسئولية سوء الحكم . كما أنهم أرادوا بها أن يوسعوا هوة الخلاف بين الآباء والأبناء المتعلمين ، وأن يجعلوا دافعي الضرائب يكرهون مشايخهم ورؤساءهم فينادون بأن حكم الرجل الأبيض أعدل وأحق . وأنت ترى من هذا الأغراض الجهنمية التي يعمل لها هؤلاء الناس .

على أننا نسأل سادتنا الإنجليز : إذا كان السودان يحكم نفسه بنفسه عن طريق رؤساء القبائل كما يقولون ، وإذا كانت مسئولية الإدارة غير ملقاة على عاتقهم ، فبماذا يبررون وجودهم في تلك البلاد ؟

الإدارة الأهلية ومسئولية الإنجليز *

أوضحنا في المقال السابق نشوء فكرة الإدارة الأهلية وبعض الأسباب التي نرى من أجلها أن هذه التجربة في إدارة السودان لاشك فاشلة . ونحن الآن بسبيل الحديث عن بعض نتائج الإدارة الأهلية التي بدأت تظهر والتي ستظهر أشد قوة وتأكيداً في المستقبل . ثم بيان مسئولية إنجلترا نحو هذه الرجعية في السودان وأفريقيا عامة بما تثيره من عداوات الأجناس ومرارة شعور السودانيين نحو إنجلترا . إذ هي تعمل عامدة على بقاء الحالة الأولى لنشوء الجماعات السودانية وتثبط كل عوامل الرقي والحضارة . لأنها تعتقد أن في بقاء الحالة الأولى للسودان ضمان مركزها الأبدي فيه . وسياستها من هذه الوجهة يمكن أن تعتبر أكبر قوة رجعية في العالم تحارب نهوض الأمم والشعوب الأخرى إلى مستوى من الحضارة والرقي الحديث .

فهم بعد أن فشلوا في التفاهم تفاهماً ودياً صحيحاً أساسه المصلحة المشتركة في التقدم المادي والروحي مع العناصر المستنيرة في الهند ومصر . ظنوا أن خلاصهم إنما يكون في التكاتف مع مشايخ القبائل وممثلي القديم من العادات والتقاليد . وليست هذه كما نرى بالنتيجة التي يحسدون من أجلها ! بل إنها لعلامة الفشل الأكيد وتذير تفكك أمبراطوريتهم العتيدة . لأنها ليست بالشيء الطبيعي المنطقي الذي يقره التاريخ أو منطق الجماعات ونفسياتها . وقد وجدوا أنفسهم أمام نظام حديث في السودان كانت الحكومة المصرية وهم أنفسهم أول من أسسه ، فلما أرادوا أن يرجعوا بالبلاد إلى الوراء وجدوا أن هؤلاء النظار والعمد والمشايخ قد فقدوا سلطتهم القديمة التي كانت لهم في سابق الأزمان . فبدأوا يحاولون من جديد إرجاع السلطة إليهم وتقوية شوكتهم وشد أزرهم . ولكن هيهات ! فعوامل الرقي تعمل في العصر الحديث كالنار الملتهبة . وليس في مقدور انجلترا وحدها أن تسيطر على العوامل الحديثة التي تعمل لتغيير الأفكار والنظم والتقاليد وان عملها منفردة في مستعمراتها مثل هذا العمل مما يدعو إلى الرثاء لها والشفقة عليها . إذ أنه من البديهي المفروغ منه أن حكومة واحدة مهما بلغت من القوة والجبروت لاتستطيع صد تيار الفكر .

فهؤلاء المشايخ والعمد — بطبيعة جهلهم وعقليتهم القديمة — يعاكسون كل تقدم ولايرضون عن أي شيء لم يعرفه أجدادهم . بل ان أي أسلوب جديد لعمل شيء قديم

* جريدة الجهاد – العدد ٥٣٤ – ٧ مارس سنة ١٩٣٣ .

مكروه لديهم بغيض لنفوسهم . فهم لايريدون أن يتكيفوا وفق العصر الحديث أو يبدلوا شيئا من أفكارهم القديمة الآسنة ، لأنهم يعتقدون عن حق أن في التقدم وتكييف أساليب الحياة وفق مقتضيات العصر الحديث قضاء على سلطتهم القديمة ، قضاء على سلطتهم المطلقة الجاهلة العمياء في النهي والأمر . وقد عرف فيهم المستعمر هذه الصفات فلجأ إليها وأفهمهم أن أبناءهم الذين يتعلمون في المدارس يحتقرونهم ويودون انتزاع السلطة من أيديهم وبذلك استطاع هذا المستعمر أن يعمل للخلاف بين الآباء والأبناء وأن يعمل لتوسيع هوة النفور بينهم . وطبيعي أن يصدق هؤلاء المشايخ والعمد ما يقال لهم ، لأن ليس لهم العلم أو النظرة الحكيمة التي يضعون بمقتضاها مصالح أمتهم فوق مصالح أشخاصهم في السلطان أو المال . وقد شرع هؤلاء المشايخ يثأرون لعداوات قديمة ، فهم الآن قد يطردون أناساً لاذنب لهم من أراضيهم . وقد يفرضون الغرامات الكبيرة لغير سبب سوى أن جزءاً كبيراً منها يدخل إلى جيوبهم !

وقل لي بربك كيف ينصف رجل جاهل تعطيه السلطة وتقول له : « لك أن توقع الغرامات على من تريد . وإن لك حصة النصف من هذه الغرامات المالية » !

لاشك أن مثل هذه المعاملة مما يساعد على انتشار الرشوة وقيام المحسوبيات ونشوء الحزازات وتدهور الحياة الخلقية للقرية !

وفي نجاح هذا النظام ولاشك قضاء مبرم على مستقبل أى بلد من كل النواحي من ناحية الإجتماع والعدل والسياسة والثقافة والخلق .

فتكاتف الانجليز إذاً مع أنصار الجهل والقديم لبقائهم في البلاد وتثبيت مكانتهم لايمكن أن ينظر إليه أى عارف إلا على انه سياسة قصيرة النظر لايمكن أن تثمر أو تبقى إلا قليلا ، وأنها بدلاً من أن تثبت أقدامهم فهي تكسبهم عداوات الشعوب وتذكي ضدهم حفيظة أنصار النور والعلم والعدل .

ثم انني لا أعرف هذه المخاطرة من أمة كالأمة الإنجليزية لها تاريخ في ثقافة العالم ، أن تجيء في آخر أيامها وتتحمل مثل هذه المسئوليات الجسام أمام التاريخ والحضارة . إن كان هذا الأسلوب هو آخر أسلوب من حيلها لتبقى حية فهي بلا شك قد نفدت حيلها . وإن كانت إنجلترا تقوم بهذه التجاريب في السودان وأفريقيا عامة وهي عارفة — فهي بلا شك تنتحر .

سياسة التعليم في السـودان *

اذا ما أنتقد الإنجليز أو سئلوا في الشرق أو الغرب « لماذا تحكمون الشعوب الأسيوية والافريقية ضد إرادتها . ولأى سبب تبقون بين أقوام يكرهونكم وتلحون في البقاء ؟ » أجابوا بصوت واحد في غير خجل ولاحياء « إننا نحكم هذه الشعوب المتأخرة لصالحها أيها السائلون، إنها أمانة في عنقنا نحو الحضارة . نعلم ونرقي وننشر الثقافةوالصحة والرفاه بين الأهلين .»وتمر أعوام وأعوام على حكمهم للبلاد، فلا ثقافة تنتشر . ولا رخاء يعم . ولا علم ولاتعليم ! ولو صدقوا لقالوا « إننا نحكم هذه الشعوب المتأخرة لأنها لاتستطيع أن تقاوم أيها السائلون وبذلك نستطيع أن نسخرها لتعمل لنا وتمدنا بأسباب الحياة والراحة والهناء . فإذا كان الثراء يجعلها تثور فقياً للغني ومرحباً بالفقر النصير . وإذا كانت الصحة تولد لنا المشاكل والمصاعب فلا كانت صحة ولاعافية بل ان في الملاريا لنعم النصير . وإذا كان التعليم يهدد سلطتنا المطلقة بالزوال — وما أظنه الا كذلك — فلنعلن الحرب على العلم والمتعلمين » .

ويظهر أن حكومة السودان أمينة على هــذا العهد غيورة على تنفيذه . فسياسة التعليم في السودان لم تكن في يوم من الأيام ترمى إلى نشر الثقافة والعلم بين أبنـاء البلاد . وإنما كان أكبر همها فيما مضى أن تخرج موظفين وطنيين يشغلون الوظائف الصغرى في الحكومة . فأما الوظائف الكبرى فهى بلا شك للإنجليز . وأما الوظائف الوسطى للسوريين والأرمن والاغريق وما أشبه من الأجانب .

كان هذا التعليم على قرب غايته وضآلة مهمته مقبولاً بعض الشيء بكلية غردون . فقد تخرج من الكلية في أعوامها الأولى شبان أكفاء في التدريس والهندسة والقضاء الشرعي والوظائف الكتابية ؛ لأن الأساتذة الإنجليز إنتدبوا خيرة المدرسين المصريين أمثال الشيخ الخضرى والشيخ الجداوى والاستاذ عبد الرؤوف سلام للتدريس في القضاء الشرعي والعلوم الدينية . كما أن رجالا أمثال الاستاذ هدايت بك وعثمان فريد كانوا يزينون التعليم المصرى بكلية غردون ، ويحثون الشبيبة السودانية على الدرس والقدوة والإجتهاد . وقد ظل الأساتذة المصريون الأكفاء الى عام ١٩٢٤ يشغلون أهم الوظائف في التدريس

* جريدة الجهاد — العدد ٤٤٤ — ١٧ مارس سنة ١٩٣٣ .

الثانوى والابتدائي الى أن جاء ذلك العام المشئوم فاستغنى عن خدماتهم وحل مكانهم بعض الأساتذة السوريين ، ثم أصبح تاريخ التعليم منذ ذلك الحين مأساة تتلو مأساة .

والأساتذة الإنجليز الذين يدرسون في الكلية يختارون من السلك السياسي لقضاء عدة أعوام يتمرنون فيها على الحكم لاعلى التعليم بين طلبـــة العلم وصفوة أبناء البلاد . والحقيقة أنهم يقضون أعوامهم فى الكلية « تحت التجربة » فمن أفلح فيهم وأجاد وسائل العنف والشدة والضغط والإستبداد رقى سريعا لوظيفته فى السلك الإدارى ؛ إذ أنه قد إجتاز الإمتحان وأمضى مدة « التجربة » على أحسن مايرام . ومن يرى هؤلاء الأساتذة يضيقون على الطلبة ويرهقونهم بكثرة الأمر والنهى ويعاقبونهم على أقل هفوة أو بادرة بالجلد الصارم والعقاب الشديد لهاله الأمر ولظن نفسه فى ثكنة من ثكنات العساكر لافى معهد للتثقيف والتعليم . ويظن أصحابنا « الجاهلون » أن هذه أجدى طريقة لتخريج شبان طائعين مخلصين . ولقد خاب ظنهم حتى الآن ! وأغرب مايدعو إلى الدهشة أن سادتنا الإنجليز يتعجبون من مرارة ضجة طلبة كلية غردون وبغضهم إياهم فيقولون « إن التعليم لايفيد السودانيين لهذا الدليل » . وفاتهم أن التعليم مهمة دقيقة لايضطلع بها حتى فى البلاد الحرة إلا كل خبير بشئون التعليم لابشئون الإستبداد . وأن الأستبداد ووسائل القهر والضغط فى التربية ليس أفشل منها ولا أبعد منها عن الصواب .

فالطالب فى كلية غردون لايعامل على أنه طالب علم من أهم خصائصه العطف والفهم المتبادل . ولكنه يعامل كجندى تطلب منه الطاعة والخضوع بالجلد والحبس ومر العقاب .

ومنهاج التدريس فى كلية غردون غريب فى بابه . فليس هنالك مجال للعلوم الطبيعية أو التاريخ الحديث أو الآداب . وإنما معظمه تمرين على الآلة الكاتبة أو على شؤون الهندسة العملية والمحاسبة لكي يملأ الطالب وظيفة صغيرة فى الحكومة لايصلح فى عمل سواها ولايفقه شيئاً فى عالم الأدب والتاريخ والإجتماع .

وقد شكا إلىّ أكثر من أستاذ سورى كان يعمل بالكلية أن ليس هنالك برنامج ظاهر يسير المعلم على نهجه ، خصوصاً في مادة التاريخ . فإن الكلية لاتصرف للطلبة الكتب التاريخية المكتوبة لمثل هذا الغرض أو تشجعهم على إقتنائها . لأنها تعتقد أن الطالب ربما يقرأ فى مثل هذه الكتب أشياء عن الحركات القومية . والمستعمر يود للشاب السوداني أن يبقى على جهله بهذه الأشياء . ولقد فات هذا المستعمر « النبيه » أن الطالب إذا لم يقرأ عن هذه الحركات القومية فى كتب علمية . فهو لابد سامع أو قارئ عنها فى كتب وصحف غير

علمية . وهنا « البعبع » المخيف ! فيتخرج الطالب « الجنتلمان الذى يحترم نفسه » كما يسميه « اللورد لوجارد » لايعلم شيئاً عن تطور العالم ولايهمه شيء عن ذلك ! !

فإذا عرف القارىء أن كلية غردون هى المدرسة الوحيدة للتعليم الثانوى فى كل القطر . وعرف أن بالخرطوم مدارس ثانوية عديدة للجاليات الأجنبية محظور عليها من الحكومة السودانية أن تقبل الطلبة الوطنيين . لأن بها شيئاً من التعليم الحر . عرف نوايا هؤلاء القوم فيما يتعلق بتربية الناشئة السودانية وإلى أى حد يعاكسون الثقافة ويحاربون النــور .

ولأضرب مثلاً صغيراً وقع لى . لأنه دليل واضح على سياسة التعليم فى تلك البلاد . بعد أن أتممت دراستى بكلية غردون وأردت أن أتعلم فى الخارج لحسابي قامت فى وجهى عراقيل كثيرة . فتارة يمانعون فى إعطائي جوازاً للسفر . وطوراً يفهموننى أننى سوف لا أوظف فى الحكومة عند عودتي . وحينا آخر يعرضون على مرتباً ضخماً لكى أنثنى عن عزمى . فلما لم ينفع كل ذلك . ذهبت إلى جامعة بيروت الأمريكية . وتخرجت ثم ذهبت فى الصيف الماضى الى الخرطوم، وطلب مدير المعارف هناك مقابلتى . وكنت مرشحاً للتعليم بكلية غردون فذهبت إليه وقابلته ودار هذا الحديث الذى لايخلو من فكاهة بينى وبينه .

قال : سمعت أنك حجة فى العلم بالدكتور « جونسون » !

قلت : « ليس شيء من ذلك . وإنما أنا أحب الرجل وأقرأه » .

قال : لمــاذا ؟ .

قلت : «لأني أعتقد أنه يمثل الرجل الإنجليزى وخلقه تمثيلاً صحيحاً فى أكثر نواحيه»!

وشعر مدير المعارف عندئذ أن الموقف يتطلب منه التعليق . فقال هذه الجملة التى تدل على مقدرة فائقة على الخطأ :

« إن « جونسون » ولاشك أحد أولئك الرجال الذين عاشوا مائة عام قبل أوانهم ! » والذين يعرفون أقل شيء عن « صامويل جونسون » يدركون أن هذا الحكم ربما يصدق على أى رجل آخر ولايصدق عن « جونسون » . ويمكن أن يقال إنه إذا كان هناك أديب مثل عصره تمام التمثيل فهو « جونسون » . فإن الناقد لايمكنه أن يتخيل « جونسون » سوى أديب إنجليزى عاش فى القرن الثامن عشر . ولكنها الجمل المحفوظة لعنها الله .

وعلمت عقب محادثتى هذه معه أنه كتب عنى إلى من يهمهم الأمر :

« Not the type, too celver. »

ومعنى ذلك بالكلام البلدى « مش العينة المطلوبة . ده بيفهم ! » ثم قال بعد ذلك

لبعض محدثيه من الوطنيين في معرض الحديث عن العلم والمتعلمين وقد طرقوا سيرتي « هو زى واحد انجليزى . ويعرف كلمات أنا ما أعرفهاش ! » ولهذا السبب فأنا خطر — على زعمه — في كلية غردون، لايمكن قبولى مدرساً بها . بل الأفضل أن أكون بعيداً عن الطلبة والتعليم !

فمتى كانت الثقافة عيباً لايقبل من أجلها الإنسان مدرساً إلا في السودان وتحت حكم سادتنا الإنجليز ناشري العلم بين الشعوب الجاهلة !

وإذا إستثنينا كلية غردون — وهى المعهد الوحيد للدراسة الثانوية — فإن التعليم الإبتدائي في القطر بأجمعه محصور في عشر مدارس لايتجاوز طلبتها أكثر من ١٫٢٠٠ طالب . والتعليم الأولى من بنين وبنات لايتجاوز طلابه أكثر من ١١٫٠٠٠ ، هذا مع العلم بأن عدد سكان القطر السوداني لايقل عن ٦ ملايين نفس بهم ظمأ شديد للعلم والتعليم .

وقد كان عدد طلبة كلية غردون في عام ١٩٣٠ نحو ٥٥٥ طالباً ، وخفض العدد هذا العام الى نحو ٤٠٠ طالب ، وسيخفض الى ١٢٠ طالباً فقط في المستقبل القريب !

ولقد أضرب طلبة كلية غردون في العام الماضى لسوء معاملتهم في الوظائف الحكومية . ومنذ ذلك الحين إبتدأ الإنجليز في الخرطوم يفكرون في قفل كلية غردون أو جعلها مدرسة صورية أكثر منها فعلية، وتغيير سياسة التعليم كلها ، لأنهم يعتقدون أن سياسة التعليم في السودان كانت سخية فيما مضى . وأن التعليم الحاضر ثوب فضفاض زائد على حاجة البلد . وقد ابتدأوا ينفذون هذه السياسة الجديدة التي ترمى إلى توسيع نطاق التعليم الأولى أو مايسمونه « بالمدارس القروية » وتكون تحت إشراف الإدارة الأهلية والمفتش الإنجليزى . ولايأمل الطالب بعد تخرجه منها أكثر من أن يعرف الكتابة والقراءة العربية . وأن يبقى حيث كان في قريته . وأن تكون هذه المدارس بعيدة عن المدن لأنهم لايريدون للطلبة الاختلاط بالعناصر المستنيرة الموجودة في المدن فيتسع أفق إدراكهم وتنمو أسباب قوميتهم !

وترمى السياسة الجديدة أيضاً إلى نقص عدد المدارس الإبتدائية ، وتكون هى الأخرى بعيدة عن المدن للسبب عينه ، وتحت إشراف الإدارة الأهلية الجاهلة ، وملاحظة المفتش الإنجليزى . وأن تأخذ المديريات ماتحتاجه من صغار الكتبة من خريجى المدارس الإبتدائية ، وأن يقسم السودان لهذا الغرض إلى أقاليم متعددة . وأن لاتكون هناك وزارة معارف مركزية مثل ماهي عليه الآن ، بل تصبح مسألة تأسيس المدارس وقفلها مسألة إدارية وفقا لأهواء النظار والعمد والمشايخ ، ومايمليه عليهم المستعمر الإدارى ! وقد ضجت

كل العناصر المستنيرة الوطنية حينما سمعت بهذا الخبر ، وأرسلت إحتجاجات كثيرة على هذه السياسة التعليمية الحديثة التى ترمى إلى قتل التعليم وجعله أمراً محلياً لكل قرية ولكل قبيلة على حدتها .

ولقد كانت النية معقودة على قفل كلية غردون وأشيع أن مجلس المديرين فى إجتماعه الأخير قرر ذلك ، إلا أن مجلس الحاكم العام لايرى ذلك الرأى الآن ، ذلك لأن على الكلية رقابة خارجية في لندن لاتوافق على قفل الكلية التى تعان مادياً من بعض من تهمهم ذكرى غردون في لندن .

إذا عرف القارىء أن ميزانية حكومة السودان تزيد على أربعة ملايين من الجنيهات ، وأن ما يصرف على التعليم لايتجاوز ١٤٠ ألف جنيه ، علم سوء إدارة تلك البلاد . وقد أخذ المبلغ المخصص للتعليم فيما مضى ينقص هذه الأيام . فلقد كان المنصرف على التعليم فى عام ١٩٣٠ نحو ١٩٤٫٩٥٥ جنيهاً والدخل هو ١٨٫٨٤٣ جنيهاً فنقص المنصرف على التعليم فى ميزانية ١٩٣١ الى ١٦٦٫٦٣٣ جنيهاً وزيد الدخل إلى ٢٤٫٥٢٨ فكأن صافى ما يصرف على التعليم لايتجاوز ١٤٠ ألف جنيه معظمها مرتبات للإنجليز .

بقى أن نسأل أهذه هى سياسة التعليم المالية والثقافية التى يبقى من أجلها الإنجليزى فى السودان ؟

إننى أؤكد لحكومة السودان أن سياستها فى حصر التعليم وتضييق نطاقه وجعله عملياً محلياً ، ومعاكسة كل من يود ان يتعلم فى الخارج ومناهضة المتعلمين واضطهادهم فى بلادهم لسياسة نصيبها الفشل كما فشلت سياستها الأولى ، وأن هذه الأشياء التى تأتيها حكومة السودان تثير أسباب الإحتكاك أشد مما كان ، وتملأ النفوس مرارة عليها وموجدة ضدها . وإذا كانت تعتقد أن خلاصها إنما يكون فى إتخاذ مثل هذه الإحتياطات الجائرة فإنها تخطىء وهى بذلك تتعجل شعور السخط عليها والنفور من سياستها وبغضها من جميع الطبقات على إختلاف آرائهم وعقلياتهم .

الأهالي بين المرض والصحة ٭

من أهم مايتعلل به المستعمر في السودان ويدعيه لنفسه وجهده أنه يحارب الأمراض القاتلة في تلك الأصقاع المجهولة وينشر مكانها الصحة والعافية ، وأن رجاله يعرضون أنفسهم للموت والأخطار في سبيل مكافحة الأمراض وإنتشار أسباب الصحة والراحة بين الأهالي . فما نصيب هذه الدعوة من الصحة ؟

نصيبها من الصحة نصيب كل دعوى كاذبة ينشرها المستعمرين من لايعرفون حقيقة الأمر في اوربا والشرق ، وحظها من الكذب والبهتان مما يلمس باليد ويعرف بالخبرة ويرى بالعيان .

فما أعرف امة تشقى بالمرض والألم الجسماني مثل مايشقى السودان . وما أعرف شعباً سرقت منه حيويته ومقدرته على العمل والإنتاج مثل الشعب السوداني . فالملاريا والدسنطاريا والبلهارسيا وخلافها من الأمراض المضعفة للجسم المنهكة للقوى مازالت تعمل بين جميع أهالي السودان عملها القاتل وخاصة بين الفلاحين ـ عمود الأمة الفقرى ورجالها العاملين ـ وقد أزدادت الأمراض في الأعوام الأخيرة إزدياداً عنيفاً وأنتشرت أمراض جديدة لم تكن معروفة بهذا القدر في سابق الأيام . وعندي أن الفاقة ومايتتج عنها من سوء التغذية ورداءة السكنى هي السبب الأول في انتشار الملاريا والدوسنطاريا وأنتشار الجدرى بطريقة وعلى منوال مفزع في مديرية دارفور . فقد توفى من الجدرى وحده في مديرية دارفور في أعوام ثلاثة نحو ١٫٢٩٣ نفساً . هذا هو الإحصاء الرسمي . ومن يدرينا ، فلعل مالم يحص أومالم يستطع إحصاؤه كان أكبر من هذا العدد وأشد هولاً !

وقد زرت أثناء الصيف الماضي بعض مدن وقرى النيل الأزرق ومديرية الفونج : فرأيت الفلاح السوداني عن كثب يعمل بصبر عجيب وهو يكاد من الجوع والمرض لايستطيع الحراك . وقد رأيت أولاده يسكنون معه في كوخ صغير من القش لانوافذ له وليس به أي أثاث . رأيت هذا الرجل يعمل والعرق يتصبب من جبينه وسط المستنقعات الموبوءة بالبعوض . فإذا فرغ من عمل يومه اوى إلى كوخه منهوك القوى ليتناول طعامه . وما طعامه سوى الذرة المسلوقة فحسب . ورأيت أولئك الأبناء تعصف بهم الملاريا فإذا

٭ جريدة الجهاد ـ العدد ٥٥٣ ـ ٢٥ مارس سنة ١٩٣٣ .

ببطونهم منفوخة وارمة ، وإذا بلونهم شاحب هزيل . « التراكوما » هي الأخرى تكاد تودي بأبصارهم . وهم عراة الأجسام، ضعيفو البنية، يغدون ويروحون تحت ذلك الهجير الملتهب . كيف نطلب إذاً من هذا الرجل الميت أن يعمل فيجيد العمل وينتج الثروة للبلاد، ونحن لانهيء له مسكناً صالحاً ولاطعاماً مقبولاً ولاصحة في بدن أو أملاً في راحة مقبلة أو سعادة منتظرة ! !

إن حمى الملاريا معروفة لدى الطب بأنها أشد الأمراض سحقاً للجسم وإمتصاصاً لحيويته . ويندر أن نجد فرداً في السودان سواء أكان موظفاً أم تاجراً أم مزارعاً لم يصب بالملاريا مرات ومرات . كما أنه يندر أن نجد ذلك الرجل الذي لم ينتبه مرض الدوسنطاريا في فترات من حياته ، إذا كان هـــذا شأن أعلى طبقة في البلاد من الوطنيين فكيف يكـــون شأن سكان القرى رعاة المواشي وزارعي الأرض ؟ لاريب أن حياتهم بأكملها سلسلة واحدة من المرض والضعف ربما تخللتها شهور يقظة وإنتعـــاش كالشمس تبدو بين الضباب لحظة لتختفي ساعات وساعات .

ألم يكن أولى بسادتنا الإنجليز بـدلاً من أن يسألوا لمـــاذا لم تنتج الأرض أن يسألوا هل كان ذلك الفلاح العامل قوياً على الإنتاج ؟

ألم يكن أولى بسادتنا الإنجليز بدلاً من إنشاء البيوت لجماعة الموظفين الإنجليز وزيادة الضرائب على الوطنيين لملافاة الأزمة وتسوية الميزانية أن يسألوا : ماذا أعددنا للفلاح العامل من وسائل الصحة والعيش ليبقى عاملاً قادراً على الإنتاج ؟

ذلك أولى بالسؤال وأحرى بالجواب .

والإنجليز لم يكتفوا بأن يقفوا متفرجين على آثار الملاريا والدوسنطاريا بين الوطنيين بل ساعدوا أخيراً على إنتشار مرض البلهارسيا في الجزيرة بإستخدامهم للعامل الرخيص ، فقد إستجلبوا عمالاً من غرب أفريقيا من قبائل « الفلاته » وخلافها من القبائل المتأخرة ، وقد أعتاد هؤلاء العمال الذين يعملون في ري الجزيرة أن « يتبولوا » في مجرى القناة التي تسقى الأرض ومنها يشرب الفلاح ، وبذلك أنتشرت البلهارسيا إنتشاراً مريعاً بين الفلاحين السودانيين وزادت في ضعفهم وعدم مقدرتهم على العمل . ولوحظ في الأعوام الأخيرة أيضا أن أمراضاً مثل « الجذام » و « السل » قد أنتشرت بدرجة لم تعرف من قبل في تلك الديار .

ولـــقد رأيت بعض الشبان في قرية من قرى مركز سنار مرضى «بالملاريا »

و «التراكوما » فلما تحدثت اليهم « ألايمر بكم الدكتور هنا » أجابوا بصوت واحد ملىء بالرجاء والإستعطاف « كلم المفتش ياجناب الأفندى » ثم سألت ، وقد رأيت في بعضهم ذكاء ونشاطاً رغم كل مظاهر الفاقة والمرض : أليس عندكم كتاب (مدرسة أولية) هنا أجابوا « كان زمان فيه مدرسة هنـــا . وبعدين شالوها . والعمدة طلبها ثاني من المفتش . لكن لسه ماجابوها » .

هؤلاء هم السودانيون العاملون دافعو الضرائب وزارعو الأرض ، الذين من أجلهم ذهب الإنجليز للسودان لنشر الحضارة والتقـــدم بينهم : يعيشون فى فقر مدقع ، ومرض متواصل ، وفقر روحي وجهل لايوصف !

وقدحدثني طبيب سوداني كان زميلاً لى بكلية الطب إنه كثيراً مايهم بالقيام بجولات في القرى التى تقرب من مركز عمله لمعالجة المرضى ونصحهم ولإعطائهم مايتيسر من الدواء. فكان رئيسه الإنجليزى يمنعه من ذلك لأنه لايود أن يتصل الطبيب السوداني بالمرضى من سكان القرى، لأن ذلك العمل يؤدى إلى إحكام الصلة والعطف بينه وبين الأهالى، والمستعمر لايود ذلك . فإذا أتيحت له الفرصة — وقل أن تتاح — قام بنفسه بمثل هذه المعالجات فى القرى لكي يزداد الأهالى إعجابا بالرجل الأبيض لا بالأخ الأسود !

إن كل مايقال عن محاربة الأمراض فى السودان ذر للرماد فى العيون . وإذا كانت هنالك بعض مستشفيات حكومية ، وكانت هنالك بعض إحتياجات ؛ فإنما كانت كذلك لأن صحة الموظفين الإنجليز تستلزم ذلك ، لا لأن صحة الأهالى تستوجبه . والدليل على هذا أنهم فى كل مدينة وكل مركز ينفذون مبدأ عدم الإختلاط فى السكنى ؛ فيبنون مساكنهم بعيداً عن المدينة الوطنية بنحو ٥٠٠ ياردة، ويحرمون على أى سوداني أو أجنبى السكنى بالقرب منهم. وقد رأيت بعض هذه المنازل الإنجليزية فى ود مدني ، فرأيت الجنان الخضر ، والشوارع المنظمة ، وميادين التنس الفسيحة ، وكل بيت من هذه البيوت مجهز بالسلك الواقي من البعوض، وبكل وسائل الراحة والرفاهية والوقاية . حقاً أن حكومة السودان سخية فى محاربة المرض وتوفير أسباب الراحة ، وإنما للإنجليز لا للأهالى وإن كانت على حسابهم . كل هذا على حساب مالية الجمهور . ماذنب هذا الجمهور المحروم من العيش والعافية يثقل كاهله ببناء بيوت تعـــد فخمة مترفة فى أرقى عواصم العالم ؟ نعم . نعم . إنما ذلك لمحاربة المرض وإنتشار الصحة بين الأهالى !

ألم تفهم أيها القارئ العزيز ؟ جدير بك أن تفهم هذه الرقة الإنجليزية !

ومن قبيل محاربة المرض وتعميم الصحة بين الأهالى مايقول به اللورد « لوجارد »

وهو ضرورة العناية بالطبخ للموظفين الإنجليز ، وأن تؤسس فى المدارس الحكومية فصول لتعليم بعض ناشئة الوطنيين أصول الطهى الإنجليزى لكى يتخرج الشاب الوطنى فيجد مركزه مهيأ كطباخ كفء لأحد الإنجليز !

فإذا لم تؤمن بأن هذه الوسائل هى من قبيل محاربة المرض وتعميم الصحة والثقافة بين الأهالى فأنت لاتفهم المنطق ولم تستفد من التعليم ، جاحد لجميل الإستعمار ، كافر بنعمة الإنجليز !

فى الثقافة العــامة

فن التفكير *

« ارنست دمنت » كاتب فرنسي معاصر ، يجيد الكتابة في الإنجليزية إلى حد كبير ؛ ولقد ألف معظم كتبه فيها كما ألف في الفرنسية واللاتينية الشيء الكثير . والذي يعنينا الآن هو كتابه الذي وضعه أخيراً وأسماه « فن التفكير » ، ولقد وضعه بالإنجليزية فأبان مقدرة واجادة يغبطه عليها الكثير من الإنجليز أنفسهم . ولقد أثار هذا الكتاب إهتمام الصحف الأدبية واهتم به أساتذة الجامعات ورجالات الفكر . فكتبوا عنه وتحدثوا عن مكانته الأدبية كثيراً . ولقد كان يحق كتاب السنة الماضية لما شغله من أعمدة الصحف وما أثاره من الجدل والتحدث عنه . ولهذه الأسباب أردت أن أشرك القارىء معي لذة هذا الكتاب الطريف .

فن التفكير ! كلمة ساحرة جذابة . فللتفكير إذن فن . ويمكن لمن يجيد هذا الفن أن يفكر تفكيراً صحيحاً منتجاً وأن يكون عبقرياً خالقاً . ذلك مايتبادر إلى الذهن من مثل هذا العنوان الساحر ! نعم . إن فن التفكير هذا ، لايخلقه الرغبة في التفكير إن لم تكن تلك الرغبة كامنة في الفرد . ولاهو يدعي خلق عباقرة خالقين ! فالرغبة لاتخلق ولا العبقرية تصنع . ولكن حسب هذا الفن أن يساعد من عنده الرغبة وأن ينظم جهوده ويعينه على التفكير الصحيح ! هذه هي رسالة الكتاب التي حاول المؤلف إبلاغها ، وقد نجح إلى حد كبير . وكتاب يوضع في فن التفكير ينتظر القارىء أن يكون جافا لما عليه من الصبغة المدرسية التهذيبية ، ولكن هذا ماتحاشاه المؤلف ، فقد وضع كتابه ولم يفشل في أن يجعل سطوره تشع نوراً ، ولم يفشل في أن يلذ القارىء ويمتعه كثيراً ؛ بل انه ليتحدث إليك فتحس بالصديق تستمع إليه من غير أن يثقل عليك ؛ وما تنفك تتطلب منه المزيد وأنت أشد ماتكون إصغاءاً وولوعاً ، ذلك لأن في هذا الكتاب من إمتاع القصص ، وقارص النقد ، ولذعات السخرية ، وضحكات التهكم ، ورقيق الملاحظات ما من شأنه أن يسر ويلذ القارىء؛ والشيء الطريف في هذا الكتاب هو هذا الأسلوب الجذاب الذي كتب به المؤلف بحثه فأجاد ووفق وأي توفيق !

يبتدىء المؤلف فيقول ليس هنالك ماتدعوه فكراً من غير أن يكون لهذا الفكر صور وخيالات ذهنية ــ فليس هنالك شيء مثل « العقل الصرف » . وهل يمكن الإنسان أن يفكر في شيء من غير أن يستحضر صورة ذلك الشيء حتى حينما نفكر في « الجمال » أو « العفة » أو ما اليها نتصور صورة إنسان هي عندنا مثال الجمال أو العفة ــ ولكن من هو المفكر ؟ ــ

---

* السياسة الأسبوعية ــ العدد ١٩١ ــ ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

هو ذلك الشخص الذي يرى حيثما لايرى الآخرون، والذي لا تقع عينه على خلاف ماتقع عليه الأعين، غير أنه يرى فيها مالايراه بقية الناظرين . ثم يعرض المؤلف لعوائق التفكير فيلخصها في نزعة التقليد الإجتماعية وفي التربية والتهذيب بنوع عام : فالطفل حينما يكون في التاسعة أو العاشرة أكثر مايكون استقلالاً في الفكر ، وتوثباً في الخيال . قد لايقل نوع تفكيره من تفكير العبقري الناضج . ففي أسئلته الكثيرة ، وفي تشوقه وتعطشه لمعرفة الأشياء دلائل على صحة ذهنه وإتجاهات فكره الأصيل ، ولكن نراه قد ترك ذلك جانبا حالما كبر وذهب إلى غرف الدرس . وكان يجب أن تكون التربية المدرسية من محفزات التفكير . ولكنها ولسوء الحظ من عوائق التفكير بل هي داؤه الوبيل . فالطالب قل أن يترك لنفسه ينمي قواه في إستقلال فكري . ولكن عليه أن يخضع لما يمليه عليه الأستاذ ، وكأنه حديث نبي معصوم لايملك له رداً ولامناقشة ولاسؤالا . فهذه « النزعة النفسية » التي أكتسحت دور التعليم لمنذرة بالخراب والدمار القريب . وإذا كانت كل هذه العوامل من بيئة وتقاليد ودروس وتعاليم تحف الطالب من كل ناحية : فأني له أن يكون حراً مبدعاً في التفكير — ثم « مودة القراءة » هــذه هي الأخرى عائقة من عوائق التفكير — فالبعض يستتر وراء القراءة لكي لايفكر ، ولكي يتلهى ويتسلى : وعلى هذا النمط يفهم القراءة والمفكرين . فهم يقرأون الروايات المبتذلة والجرائد التافهة ، فهذه هي القراءة لقتل الوقت كما يقولون . ونحن نسمع الآن لفظة القراءة تجري على الأفواه كما يقول المتكلم كنت ادخن أو « العب الورق » فليست القراءة الآن سوى نوع من التسلية كلعب الورق وتدخين السيجار . والآن دعنا من عوائق التفكير فهي كثيرة لاحد لها ودعنا ننظر في حوافز التفكير الصحيح . .

كن لنفسك . وكيف تكون لنفسك وأنت لاتخلو لها ساعة في اليوم تفكر فيها تفكيراً صحيحاً بعيداً عن الجلبة والزحام . ويمكنك أن تكون مع نفسك في خلوة أيضا ولو كانت بجانبك الكلاب تعوي والضجيج يعلو . ولكن ذلك يتطلب الجهد الكثير وهو ميسم القدرة على التفكير وحصر الإنتباه . وإن لم تكن لك هذه القدرة فحاول أن تظفر بها . وبعد المران لابد أنك ظافر بها . ويحكى عن نابليون أنه كان آية في القدرة على حصر عقله وانتباهه : فهو حيناً يتكلم عن الفن الحربي حتى إذا ماسألته عن موضوع آخر ترك هذا وإبتدأ كالسيل الجارف في الحديث الجديد . فلقد كانت عنده « أدراج عقلية » يسحب منها مايريد ويترك مالايريد . ولكي نحصر قوانا العقلية وجب علينا أن نطهر جميع الأفكار والخواطر التي تحوم بالذاكرة : وأن نأخذ ورقة وقلماً ونهم بكتابة مانفكر . ثم هنالك شكوى الوقت ! ليس لي من وقت . هذا مانسمعه من الكثيرين . ولكن كما

حقيقة مايقولون ؟ أو ليس لهم وقت للدرس والتفكير . وكم من هذا الوقت البريء يهدر عبثاً في الحديث الفارغ والمحادثات التافهة . ثم ماذا نصنع ونحن في الترام أو القطار ، هل نظل ساكتين واجمين أم نقرأ ونكون من المفكرين . إن الروائي الإنجليزي « بريستلي » ألف الكثير من قصصه وهو مسافر في القطار !

فلنقرأ الكتب . ولنقرأ أحسن مافي الكتب لنقرأها للدرس لا للتسلية . فالكتاب هو ما نعمله نحن من الأحرف والصحائف . وليست لهذه قيمة . وإنما قيمة الكتاب الصحيح هو مايحببه إلى النفس ومايوحيه إلى العقل والوجدان . يحكى عن « ولتر سكوت » أنه كان يفكر في جرثومة كتبه وهو يقرأ أشياء لاعلاقة لها بموضوع قصصه . كما أن الوحي الفلسفي كان يزور « كانط » وهو يقرأ في كتب « الرحلات » التي أغرم بها . غير أنني لا أتفق والمؤلف حينما يقول إقرأ فقط مايعطيك أعظم لذة ، فللذة دخلها وأهميتها ولكنها ليست هي كل شيء . وبإتباع هذه القاعدة يصير القارىء محصور الفكر . ضيق الدائرة . لايعرف علاقة الفنون بعضها ببعض ولايستطيع أن يدرك وشائج النسب بين فروع المعرفة الإنسانية . وهذا ولاشك مهم جداً لمن يود أن يوسم بالتفكير والدرس . غير أن مؤلفنـــا لتدعيم نظريته يأتي بقصة « شارلز لام » وهي أن « لام » هـــذا لم يقرأ في صباه ولاشبابه خلاف « الدراما » قديمها والحديث . ولم يذهب إلا إلى المسرح متبعاً في ذلك ميله الخاص ولذته النفسية . ولئن أجدت هذه الطريقة مع « لام » أو خلافه فماهي بالمجدية في كل الحالات . بل انها لكثيرة الخطر . غير محمودة العواقب . ذلك لأننا نجد مثلاً لذة لاتعادلها لذة في قراءة القصص فننتهز كل ماتخرجه المطابع من هذا النوع فنكون واسعي الخيال . دقيقي الشعور . ولكن لن نعرف التاريخ ولا علم النفس ولا الفلسفة . مثلاً إذا نحن ثابرنا على هذه الطريقة . وما أظن أحداً يجهل التاريخ والفلسفة ويعد نفسه مهذباً مفكراً .

والآن . وبعد أن نكون قد قرأنا أحسن الكتب في كل العصور ودرسناها وتفهمنا معانيها ، تتولد في عقلنا ولاشك صور يحتشد بها الذهن . ويشتغل بها الفكر . ومن هذا النشاط الفكري والتأمل في هذه الصور ينتج « الفكر الخالق » ولكن ما أقل من يقرأ الكتب العالية في هذا الوقت . وما أقل من يفكر . بل ان معظم الناس في هذا العالم يحيون حياة ميكانيكية لاحياة فيها ولاتفكير .

كيف تقــرأ ؟*

القراءة فن دقيق ، وهي تختلف بإختلاف مانقرأ . فقراءة الصحيفة اليومية تختلف عن قراءة القصة الخيالية . كما أن هذه تختلف بدورها عن قراءة كتب العلم والأدب والثقافة العامة وما إليها . فلكل نوع من الكتب طريقة خاصة فى القراءة هى به أخلق وأجدر .

فهنالك القراءة السريعة . والغرض من مثل هذه القراءة هو تتبع الحادثة أو الفكرة بقطع النظر عن التفكير فى صحة الرأى أو الأسلوب . والقارىء يستطيع أن يقرأ سريعاً بعد الممارسة الطويلة والمران ، فيستطيع أن يقرأ الصحيفة اليومية والقصة وماإليها على هذا الأسلوب . ولهذا الأسلوب فى القراءة أنصار كثيرون بين رجال الثقافة والتعليم . ويقولون إن مثل هذه القراءة أصلح لإبن القرن العشرين وأعود . فهى تعوده السرعة فى الفهم ، والإقتصاد فى الوقت فى عصر الحركة والسرعة ، وتعــدد العلوم والمعارف . وللأساتذة الأمريكيين مقاييس خاصة يقيسون بها سرعة قراءة تلاميذهم وقدرتهم على الفهم .

فكيف نقرأ فى مثل هذا العصر الذى كثرت فيه مشاغل العيش والعمل ، كما إزداد فيه عدد الكتب والصحف ؟ ليس الجواب على هذا السؤال بالأمر اليسير . غير أن القارىء الذى يود أن يمشى مع عصره وحركة العلــوم والفنون والآداب لابد له من طريقة يتبعها فى قراءته . وفى إختيار مايقرأ ، وإلا أضاع الوقت بما لافائدة فيه ولاغناء عنده .

ومما يلاحظ علينا عامة معشر الشرقيين أننا لانطيق القراءة ولانستطيع معها صبراً . ولعل للإقليم الأثر الأكبر فى ذلك . هذا ولو أن القراءة الجدية فى العلوم والآداب ليس لها هذا الاقبال الذى تناله القصص والصحف التافهة عند كل الشعوب وبين كل الامم !

وقد عرف الكتاب ذلك فتفننوا فى أساليبهم لاقتناص القارىء وتسليته وإفادته . وصاروا يعرضون أفكارهم فى العلم والفن فى أسلوب قصصى شائق جذاب يحبب القارىء فى القراءة والدرس . فما أحوجنا إلى مثل هذه الحيل فى مصر . حيث لم تصبح القراءة عادة بعد كما هو الشأن فى الغرب !

ومما يروى فى هذا الصدد ان الكاتب الامريكى «دورانت» كتب كتاباً فى تاريخ

---

* جريدة مصر – العدد ٢١ – ١٥ اغسطس سنة ١٩٣١ .

الفلسفة أسماه « قصة الفلسفة » وكتبه على النهج القصصي في أسلوب مائي رشيق، فبيع منه مئات الألوف مما لاتبلغه القصص إلا في القليل الأندر. فقد عرف ذلك الكاتب كيف يحبب قراءه في أكثر الموضوعات صعوبة، فعرض فلسفته في أسلوب شائق سائغ الطعم، لذيذ النكهة. كما أن كثيراً من كتب العلوم والثقافة قد إنتشرت في عصرنا هذا إنتشاراً محموداً.

وليتصور القارىء كتباً في علم الطبيعة وفلسفة الفلك والنجوم بيع منها مئات الألوف حديثاً ككتب « جينس » الفلكي، وشرح نظرية النسبية لـ« بول موران » الكاتب الفرنسي. « ومعنى الثقافة » لـ« كاوبر » الأمريكي وأضرابها. فهؤلاء الكتاب عرفوا كيف يكتبون فأجادوا الكتابة، وكافأهم الجمهور بأن أقبل على كتبهم كما يقبل على القصص والروايات.

وإن دلت هذه الحقائق على شيء فهي تدل على أن الامة الأمريكية والامم الاوربية قد أصبحت أمماً قارئة على رغم كثرة أعمال أفرادها ونشاط حركتها المادية.

فالقراءة والتثقيف هنالك قد أصبحا ضرورة من الضروريات لا غنى للإنسان الحي عنها. ونحن مازلنا ننظر إلى القراءة كلون من ألوان الكمال، ومتعة لايطالب بها كل إنسان.

أما كيفية إختيار مانقرأ فمسألة يدق الكلام فيها ويصعب. فهنالك أسماء لكتب عدة وضعها بعض الكتاب والمعلمين « كأحسن مائة كتاب » وما اليها من أسماء الكتب وعددها. وخير نصيحة تهدى للقارىء المبتدىء أن يقرأ مايميل إليه بذوقه ومزاجه: فإن ذلك أحرى أن يفيده ويثمر فيه، وأن يستشير الثقات في ذلك الفرع من فروع المعرفة، فيستطلع آراء كبار النقاد المعروضة في الصحف والمجلات. فقراءة الصحف والمجلات لاغنى لإنسان عنها: فهي التي تدله على حركة العلوم والفنون وأجود الكتب التي يجدر به أن يقرأها ويتمثلها.

وأحسن طريقة إهتدينا إليها بعد الاختيار هي طريقة القراءة « بالموضوع » بدلا من قراءة الكتب والمقالات كما تصادفنا في طريقنا.

فلنفرض أنك تقرأ هذا الموضوع عن كيف « نقرأ » فالأفضل أن تتبع هذا الموضوع في الصحف والكتب، ثم تقارن بين ماتقول تلك الكتب والصحف ومايقول هذا الكاتب وبذلك يرسخ الموضوع في ذهن القارىء، كما يجد مورداً من الإمتاع والفائدة في مثل

هذه القراءة لاينفد قط . وأحرى بمسألة تقرأ فيها على هذه الطريقة أن تصبح جزءاً من نفسك لايتجزأ .

لذلك فإنه مما يسرنا أن نعين القارىء في قراءته ونجيبه على أسئلته وأسماء الكتب والصحف التي تعينه في فرعه وقراءته . وعلى هذه الطريقة طالما تكون قراءة مقال في صحيفة دفعاً لك لأن تقرأ مقالاً آخر جاءت عنه إشارة في المقال الأول . كما أن تصفح كتاب بعينه قد يدفع بك إلى تصفح آخر يبحث في نفس الموضوع ، أو في موضوع مثله بأسلوب آخـــر ووجهة نظر تختلف عن وجهة النظر الاولى فيتسع بذلك أفق نظرك ، وتبعد مطارح فكرك ، وتصبح أبصر بما تقرأ ، وأقدر على الاستفادة والمناقشة المنتجة .

والقراءة بعد ذلك لاتقتصر على فريق من الناس دون الآخر . فرئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية لايستطيع إلا أن يقرأ . كما أن العامل الحقير لايستطيع إلا أن يقرأ أيضاً .

وروزفلت — رئيس الولايات المتحدة — كان من أكثر القراء معاودة للكتب والصحف والمجلات . حتى أنه يندر أن يذكر أمامه أي موضوع ســـواء في الأدب أو العلم أو التاريخ إلا ويساهم في بحثه ، ويدلي بمعلومات أو آراء تدل على اطلاع واسع تدهش سامعيه . ذلك شأن الرجل العظيم . كما أن العامل الإنجليزي لابد أن يقرأ في ليلته كتاباً أو صحيفة أو مجلة . ولاغنى له عن ذلك مهما اشتدت به الحال ، وصعبت عليه أسباب العيش والتكسب .

ثم من بعد ذلك كله فإن القراءة شرط جوهري من شروط النجاح في الحياة سواء في ذلك معاملة الإنسان للناس واختلاطه بهـــم ، أو في مقتضيات أعماله ومستلزمات حياته . وقل أن نجد إنساناً ناجحاً في عمله أو حياته الإجتماعية وهو من بعد ذلك لايقرأ ولايعنى بالمطالعة .

فلنقرأ إذاً . ولنكن أمة قارئة فلن تخيب قط أمة تقرأ .

كيف نفكر *

إذا صح القول ان الإنسان آلة مفكرة ، فإنه ولاشك أدق آلة عرفها العالم . فلندرس تلك الآلة ، وبدرسها ندرس كياننا ونعرف أنفسنا كما نادى بذلك أغريقي حكيم قبل آلاف السنين .

غير أن الإنسان ظل يدرس الحشرات والنجوم قبل أن يدرس نفسه . وعرف فصائل الحيوانات وطبقات الأرض قبل أن يفهم مافي فصائل النفوس وطبقات الوجدان. وعرف متى يحصل الكسوف . وكيف يعمل النحل والنمل قبل أن يعرف لماذا ننام . وكيف نفكر . وماهي دواعي المرض والصحة الفكرية !

كيف تعمل هذه الآلة المفكرة ؟ ما الذي يقعد بها عن العمل المنتج ؟ ماشروط الإنتاج الفكري ، ماهي أساليب النفوس في مواجهة الصعاب وتخطي العقبات ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها من المسائل التي تتعلق بحياتنا الفكرية قد أصبحت في هذه الأيام شغل المفكرين وعناية علماء النفس وجهدهم . وهو جهد ولاشك يستحق عناءه .

« إن الدرس الصحيح إنما هو درس الإنسان نفسه » كما قال الشاعر الإنجليزي « الكسندر بوب » في رائعته المشهورة « مقال عن الإنسان » وذلك الدرس ولاشك هو مناط الحكمة الإنسانية في هذا العالم .

وكما أنه ليس أحق بدرس الإنسان سوى الإنسان نفسه ، كذلك ليس أصعب من هذا الدرس ، ولا أعسر منه منالاً لطالبيه ، ذلك لأن الإنسان أدق من أي آلة عرفها العالم ، كما أن هناك من التباين بين كل فرد وآخر وبين شعب وشعب مما يزيد مثل هذا الدرس مشقة ويحفه بالصعاب . غير أن ذلك مما تحلو فيه المشقة وتخف فيه الصعاب !

وأول صعوبة تواجهنا في درس الإنسان أنه — وهو الدارس — لايستطيع أن يتجرد عن ذاتيته ومزاجه الخاص وميوله المستترة التي تعمل عملها في مسلكه وطرق تفكيره واتجاهات ذهنه ، من غير أن يشعر بكل ذلك !

غير أن الممارسة تذلل كل صعوبة ، فالقارىء الذي يعود نفسه مجابهة صعابه النفسانية التي تنشأ بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس . وبينه وبين منطق الحياة وظروفها ، لواجد في مثل هذه المحاولات لذة وإمتاعاً فوق فائدة الرياضة الذهنية والفائدة العملية والعلمية ؛ فليس أمتع ولا ألذ من سرور الإستبانة والإكتشاف عند الإنسان . خاصة إذا كان هذا

---

* مصر الثلاثاء ١٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

الإكتشاف عن المكتشف نفسه !

في سنة ١٩٢٩ م نشر « أرنست دمنت » — وهو كاتب فرنسي — كتاباً أسماه « فن التفكير » فراج ذلك الكتاب رواجا عظيماً لم يعهده ناشرو الكتاب في مثل هذه البحوث — وأصبح فيما بعد ذلك حديث القراء والصحف الأدبية ! لم كان كل ذلك ؟ كان ذلك لأن الكتاب عالج مسألة حيوية تهم كل إنسان — ومن ذا الذي لايريد أن يفكر؟— عالج « دمنت » تلك المسألة بأسلوب قصصي شائق ، يستسهله القارىء ويسترسل معه .

فالتفكير فن . وفن شائق ، والقارىء الذي يرغب في التفكير الصحيح المنتج كان لزاماً عليه أن يتبع طريقة خاصة في جمع المواد ومهاجمة الموضوعات ، فلا غنى له عن أن يقرأ مثل هذا الكتاب أو يقرأ كتابا لـ«جون ديوى » —الفيلسوف الأمريكي — « في كيف نفكر » فإن مثل هذه الكتب تعينه على تنظيم تفكيره وحصر موضوعاته .

ولإعانة القارىء نقول ان هنالك أربعة مراتب في عملية التفكير الصحيح لابد للمفكر من ممارستها إذا أراد أن يكون صافي التفكير غير مشوش الذهن — وهي :

أولا : تحديد الموضوع تحديداً دقيقاً وتعريف كلماتنا تعريفاً يسهل معه أن نعرف ماذا نعني ؟ فكثيراً ما يحيد الناس عن الموضوع الذي يفكرون فيه لأنهم لم يحددوه ولم يكن واضحاً في أذهانهم .

ثانيا : جمع المواد اللازمة من قراءة ومشاهدة وتجاريب ، حتى إذا أكتملت هذه واطلع الباحث على وجهات النظر المختلفة أخذ يقرر ويرجع في ذهنه الأجوبة والإقتراحات .

ثالثا : « دور الحضانة » وهو أن نترك موضوعاتنا مدة من الزمن لانفكر فيها بعد أن أكتظ بها عقلنا وجمعنا لها كل مانحتاج إليه ، لتنال فرصة التكوين والتكييف في عقلنا الباطن من غير وعينا — فإن شدة الوعي والشعور أحيانا تقتل الفكرة وتضعف التفكير ، ولنعمل شيئا آخر في هذه المدة لاعلاقة له بموضوع تفكيرنا ليرتاح الذهن ويعمل في هدوء إلى أن يحس بالحلول تأتي لوحدها .

ومن ظريف مايحكى في هذا الصدد أن « كوكيله » العالم الفرنسي جمع مواده وظل يفكر زمناً طويلاً في معادلة البنزين الكيمائية ، ولكن دون جدوى ، وجلس ذات يوم بعد أن يئس نهائياً من إكتشافه لتلك المعادلة أمام مصطلى النار يتدفأ ويدخن ، وقد نسي كل شيء عن البنزين ومعادلته . وفجأة وجد نفسه يلاحظ ألسنة النار وهي تتلوى ويقبض بعضها على رقاب بعض وكأنها الأفاعي فقفز لساعته وإتضحت أمامه معادلة البنزين بعد

أن فتر عنها . وقضى ليلته تلك في التحقيق إلى أن أثبت تلك الفكرة الوامضة التي أوحتها إليه ألسنة النار الملتوية — وهذا مايسمى في لغتنا اليومية « بالوحي » . وماهو بذلك !

ويروى على « أمانويل كانط » — الفيلسوف الألماني — أنه كان يكتشف أمتن نظرياته الفلسفية وهو يقرأ كتب الرحلات التي ليس لها أي علاقة بموضوع بحثه وفلسفته .

و« ازادورا دنكان » — الراقصة العالمية — كانت تبتدع أروع الأنماط في الرقص وهي تقرأ (تحليل العقل الصرف) لـ « كانط » !

وقد سئل مرة أحد المصورين الكبار عن الوقت الذي قضاه في رسم صورة بعينها فكان جوابه « طيلة حياته » لأنه وإن لم يستغرق تنفيذها سوى بضعة شهور غير أن تاريخ فكرتها وتطورها إنما هو تاريخ حياته وتطوره الفكري .

ومن هذه الأمثلة تتضح أهمية دور الحضانة الفكرية « Incubation » في عملية التفكير الخالق .

رابعاً : دور التحقيق والتجربة . ولايتم التفكير من غير التجربة والتحقيق الذي يدل على صحة الفكرة ، وانها فكرة ثابتة صحيحة دائما على تعاقب الأحوال وتقلب الظروف .

أنا والكتب *
أو
الكتب وأنا

(من أظرف ألوان الأدب الغـــربي المقال الشخصي « Personal Essay » الذى أجاد فيه الكاتب الإنجليزى الكـــبير « شارلز لام » وأصبح فيما بعد ذلك من أروج أصناف الكتابة وأخفها على النفس وأظرفها . هذا النوع من الكتابة على كثرة رواجه فى الأدب الغربي وخاصة فى الأدب الصحفي في هذه الأيام غير معروف في أدبنا ولامتداول بين القراء والكتاب . ونحب أن يروج هذا الصنف الكتابي بين القراء والكتاب . وأن يلاقى نصيبه من الحظوة والمكانة .)

* * *

لا أدرى أيهما أصح والله . أهو أنا الذى يكتب عن الكتب ويمتع قراءه بأحاديثها . أم هى الكتب التى تكتب عنى الآن وتعريني — بما علمتني — أن أعرى نفسي وأوضح مكان الضعف مني وأسخر من شخصي . أهو أنا الذى يحب الكتب ويهيم عشقاً بها ويعتبر نفسه القانص لها السيد عليها ، أم هى الكتب التى تستهويني وتجعل مني أداة لضحكها وعبثها وسلوتها — لا أدرى أيهما أصح والله !

ومهما يكن من أمر فلنعرض أمرها معى وعلى الله السلوان :

لا أعرف على وجه التحقيق متى أحببت الكتب ، أو متى هامت الكتب عشقاً بطلعتى البهية — ذلك مالايتيسر لى أمره الآن ! ولكننى أدرى أننى وصديقاً قديماً لى حينما كنت فى المدرسة الإبتدائية ، كنا نجمعها ونرصها ونفخر بكثرتها ولا أقول قراءتها . فنحن قل أن نقرأها — وكل مافى الأمر « أهو عشق والسلام » . فكنت إذا زادت مجموعتى كتاباً واحداً على مجموعته تهت عليه وشعرت بالفخر يملأ جوانبي ، وبالفرح يشيع فى كيانى ، وشعر هو بالمضاضة والألم إلى أن تتم مجموعته فنصبح أكفاء متعادلين !

تلك أول حلقة فى قصة حبى لهذا الورق الذى يدعونه كتاباً وهو كما ترى عشق مجنون لاعقل فيه . وأصبحت من بعد ذلك لا أهبط بلداً ، أو أزور مكاناً ، إلا سألت عن مكتباتها وذرعتها كأننى موكل بذلك .

وقد أكون مفلساً فلا أشترى كتاباً واحداً . ولكننى لا أفتأ أزور المكاتب العمومية كل يوم إلى أن يضج أصحابها مني ، ومن إفلاسى ، ولكننى لا أفتأ أزورها ذلك لأن

---

* جريدة مصر — العدد ١٠٢٥٦ — ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣١ .

لمرأى الكتب عندي سحراً خاصاً يزري بكل سحر ، ولطلعتها البهية فتنة تفوق فتنة الغيد الحسان . ولرائحتها الزكية وهي تخرج من المطبعة أريجاً يزري بأريج الياسمين !

كما أنه يحلو لي بنوع خاص أن أفتح الكتاب الجديد وأشم رائحة الأوراق وأنا أحتسي الشاي أو أدخن ، وأعد كل ذلك متعة لايجود الزمان بمثلها إلا في القليل النادر !

فإن إكتشاف كتاب جديد يقع من نفسي موقع القبول هو بمثابة إكتشاف قارة لدى علماء الجغرافيا ، أو إكتشاف حبيبة جديدة لدى محب عاشق ، أو إكتشـــاف كنز مخبوء لسارق ماهـــر !

وليس أجذب عندي في المكاتب من معرض الكتب في الواجهة الزجاجية ، وأروح متنقلا أنظر إلى الغلاف اللازوردي لذلك الكتاب ، ويستوقف نظري عنوان الآخر ، ويحز في فؤادي أن لا أكون الكاتب لذلك ! ويشتد حنقي على ذلك المؤلف لأنه عالج نفس الموضوع الذي كنت أعني بالكتابة عنه ، ويشتد حزني أنني لا أستطيع أن أمتلك ذلك الكتاب وأنظر إلى غلافه على الأقل . وتلك مجلة حلوة هي الأخرى فيها أفانين من القول والبحث لايجدر بي أن أجهلها . . . وذلك الكتاب عن الموسيقى . . . آه نعم الموسيقى . . . ألا يجدر بي أن أتكلم عنها وأتحدث عن أساليبها عن دراية وفهم .

فأتصور نفسي بـــين جمع من الأخـــوان أحاضرهم في كبرياء ولوذعية عن «سوناتات» «بتهوفن» وعن «الهارموني» و«الميلودي» والحركة ، وأين يختلف فن«شوبان» عن فن «فاجنر» الذي يكثر فيه التفكير وتقل العاطفة إلى آخر هذا الإدعاء الرفيع . . ! وذلك الكتاب عن التصوير عن . . . آه التصوير يا حبيبي هو كل شيء . . . الفن . . الفن ياصديقي ، والحديث عن التظليل ، والتلوين ، والحركة ، في فن «هستلر» و«ديجاس»وأضرابهما . كيف يمكنني أن أعد نفسي مثقفاً من غير معرفة أشباه هاته الأشياء . . . وأروح أتصور نفسي بين جمع حاشد وأنا أهذي بهذه المعلومات الرفيعة وكلهم أذان صاغية وأفواه فاغرة تلتهم ما أقول .

نعم ، تلتهم ما أقوله أنا !

ثم ياصديقي لايكفي الإنسان أن يعرف الأدب العربي أو الإنجليزي أو الفرنسي ليصبح أديباً واسع الإطلاع ، ولابد من معرفة الأدب التشيكوسلوفاكي ، والبولندي ، والدنماركي ، وأدب بلاد الهوتنتوت ، والمكسيك ، وبلاد واق الواق . . . ضروري كل ذلك .

ولكن أين هي النقسود ؟

لعن الله النقـــود !

ثم الوقت – لعن الله الوقت . . . هل يسمح بقراءة كل ما أريد قراءته ؟ لا انه لايسمح ولكن ذلك لايجب أن يقف في سبيل اقتنائي وجمعي لها وهيامي بها . . . يكفيني أن تكون في مكتبي أنظر اليها وأمتع ناظري بصورتها . وقد أنام أحياناً فأحلم أنني قد قرأتها من الدفة إلى الدفة ، وعرفت كل مافيها ونقدته وعلقت عليه وأي حاجة لأن أقرأها بعد ذلك !

وهكذا إذا ما أردت أن أقرأ كتاباً ضخماً لايسمح الوقت بتصفحه نمت فقرأت في الحلم (ليس معنى هذا أيها القارىء العبقري أن تنام فتحلم فتقرأ – فقد لاتسعفك الأحلام)

وكثيراً ما أشتري الكتاب فإذا أطمأنت نفسي إلى أنه ملكي لم أزعج نفسي بقراءته شأن الكثير من القراء ولكنهم لايقولون ذلك – وأنا بعد كل ذلك لا أفتأ أشكو لأصدقائي قلة كتبي وضيق ذات اليد ، وأروح المكاتب فأقضي سحابة يومي أقرأ هناك – من غير أجر طبعاً – وصاحب المكتبة يعتقد في بادىء الأمر أنني سوف أشتري : فيصبر ويسألني حاجتي ويلح في السؤال ، غير أنني أصرفه بأنني أعرف ما أريد . فإذا إتضح له أمري ضاق ذرعاً بي وحرم علي المجيء مرة أخرى إلى مكتبته وطردني .

وأنا بعد ذلك لا أعرف ما السبب في كل ذلك النهم الذي ليس له مبرر : ترى هل لي بطن آخر لا يأكل إلا الكتب ولايجوع إلا في حضرتها !

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أن القراءة لاتحلو لي إلا في مكتبات الأسواق والصحاب . فإذا خلوت إلى مكتبتي الخاصة – نعم عندي مكتبة خاصة أيها القارىء ولا أكذب – تركتها سريعاً وقفلت راجعاً إلى مكتبات الأسواق وإذا قدر لي الجلوس في مكتبتي مللت : فأغمضت عيني فنمت فقرأتها كلها في الحلم اللذيذ !

وكثيراً ما أخدع نفسي – وأنت أيضاً أيها القارىء قد تخدع نفسك – أنني قد قرأت كل ما بالمكتبات التي في السوق ، لأنني قرأت العناوين وعرفت أسماء المؤلفين فإذا قرأت المقدمات والفصول النهائية فقد قرأتها جيداً ، وأستطيع نقدها وتحليلها وتمزيق مؤلفها إرباً إربـــاً !

وأنا لو أدمنت القراءة في لون خاص من ألوان الأدب والثقافة ، خيل إلي وكبر في وهمي أنني أهدر الوقت بما لافائدة فيه ولاغناء منه ، وأن هنالك من الكتب ماهو أجدر بالعناية والمطالعة ، فإذا قرأت كتب الجد خيل إلي أن في مجلات السينما وما إليها أشياء

لايجب أن تفوتني ولاتكمل حياتي من غير معرفتها . فأروح أشترى منها الكفاية إلى أن أملها !

وإذا أكثرت من القراءة خيل إلى أنني لا أستطيع أن أكتب. ولابد أن أجرب نفسي في تلك الساعة التي يخطر لي فيها ذلك الخاطر المقلق . فإذا كنت أكتب وددت لو أنني كنت أمتع النفس بالقراءة الساكنة الحلوة . وإذا أكثرت من القراءة والكتابة خيل إلى أنني سخيف ليس لدى أي توازن وأن في الحياة غير القراءة والكتابة — فإذا لحوت رجعت أعقابي ومللت حياة التبطل واللهو بأسرع من لمح البصر . فإذا كنت في «الكازينو» أنظر إلى وجوه الحسان من الراقصات تشوقت حرقاً لوجه « شوبنهور » الجميل وقوام « سقراط » النحيل . وقد ألعن « شوبنهور » ووجهه الدميم في ساعة أخرى وأفر هارباً منه ومن أصحابه الثقلاء .

والقارىء الذي يعنى بأن يكون في يوم من الأيام كاتباً لايمكنه أن يكون قارئاً كاملاً ، لأنه بدلاً من أن يفقد نفسه في الكتاب فيستلذه ويستفيد، يزداد شعوره بنفسه وبعجزه عن الكتابة مثل ذلك الكاتب ويحاول أن يعرف كيف أدار الكاتب تلك الجملة وكيف نجح في بسط ذلك الرأى . وبالإختصار يعذب نفسه ويرهقها . فمن أصعب الأمور أن يقرأ بإلتذاذ من يعنى بأن يكون كاتباً في يوم من الأيام !

فقد كنت أحاول — وأنا طالب في الجامعة — أن أقرأ المكتبة . يا للجنون ! ! فكنت أذرعها كل يوم من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال — فتجدني في بعض الأيام لا أقرأ ولاأتكلم إلاعن «السيكولوجيا» وفي آونة أخرى قد يتسلط على شىء إسمه «الدراما» . وفي آونة أخرى كتب الرحلات والمذكرات وما إليها ، وقد أترك كل هذا لخاطرة ، فأروح أدرس الكهرباء أو الجهاز العصبي أو نظام التغذية . وأدرس هذه الأشياء في الأيام الأولى بحماس شديد وسرعان مايذبل هذا الحماس . فأنقلب أقرأ شيئاً آخر وقد يكون عن التراجم أو خطابات العظماء ويومياتهم أو عن التربية إلى آخر ما كتب الكاتبون وطبعت المطابع !

وقد أغضب أحيانا لهاته الحالة النفسية الشاذة . وهذا الغرام الأعمى بالكتب فأحبس نفسي يوما كاملاً عن المكتبة لاأزورها . فيخيل إلى أن الكتب الجديدة من روسية وألمانية قد أتت فجأة — نعم فجأة أيها القارىء إياك أن تضحك — فأروح مسرعاً في صبيحة ذلك اليوم إلى المكتبة وأبدأ عملية ذرع !

لاحول ولاقوة إلا بالله — ماذا تقول في هذا !

أهو جنون ؟ نعم هو كذلك .

ولكنه جنون لا دخل لي فيه ولاسلطان لي عليه .

معني الثقافة *

للكاتب الأمريكي « جون كاوبر بـــاوز »

لعل هذا العصر الذى نشهد هو من أخصب عصور الإنتاج الفكرى فى الفنون والآداب والثقافة العامة . ففى كل يوم لون جديد من ألوان الأدب، وبين كل حين وآخر طراز جديد فى الكتابة والنهج ، أو تجديد لفكرة قديمة : أو تعميم لفكرة حديثة . أو تبسيط لرأى فلسفى . أو شرح لنظرية عملية مستعصية الفهم حالكة الجلباب .

ومن هذه الكتب التى راجت أخيراً بين الكتاب والقراء كتب الفلسفة التى تدني النظريات الفلسفية من ذهن القارىء العادي وتعرض له ضروب الثقافة الرفيعة التى كانت وقفاً على الأخصاء فى أثواب من الفن الزاهية : وأسلوب فى الكتابة حلو شائق . ومن أولئك الكتاب المفكرين الذين جعلوا الفلسفة قصة تقرأ ومستعصيات التفكير فناً شائقاً الكاتب الامريكي « جون كاوبر باوز » . فهو قد زان فلسفته بخير ماتزان به الكتب . ويدنيها من عقول القراء فى غير إسفاف، كما يعلو بها من حيث الأسلوب والعرض إلى ذروة الفن الرفيع

فقد تروج كتب القصص والروايات وما إليها، ونفهم نحن سبب ذلك الرواج والإقبال، ولكن الشيء الذى لم يعهده تاريخ النشر وحركة التأليف أن تروج مثل هذه الكتب وأشباهها . نعم أن تروج كتب « دورانت » و « باوز » و « رسل » و « جينز » و « ادنجتون » . ولعل هذه الظاهرة حسنة من حسنات الديمقراطية لو لم يكن لها غيرها لكفاها حمداً وشكراً . فالفلسفة وما إليها لم تعد مقصورة على فريق من القراء دون فريق . ولكنها أصبحت حقاً مشاعاً : وقسطاً مباحاً لكل الناس والقارئين .

قرأت أخيراً « معنى الثقافة » لمؤلفه الإنجليزى الأصل الأمريكي النشأة والإقامة « جون كاوبر باوز » ، فقرأت كتاباً من خيرة مايقرأ، واطلعت على صفحة من التفكير الصافى والأسلوب الشعرى قل أن تتاح للإنسان إلا فى القليل النادر . واخترت أن أتحدث عن هذا الكتاب بعينه لأنه يعالج موضوعاً نحن فى حاجة ماسة إلى فهمه الفهم الصحيح . وتصحيح النظرة إلى فكرة لعلنا أبعد الشعوب فهما لمعناها القويم مع كثرة إستعمالنا لها وإيرادها فى كلامنا فى كل حين . ثم اخترت هذا الكتاب بعينه لأنه من الكتب الحديثة فهو لم يمر على تاريخ نشره سنة واحدة، وقد بيع منه مئات الألوف ومدحه النقاد وأطروا صاحبه ذلك الإطراء الجميل .

---

* جريدة مصر العدد ١٠٢٦٠ — ٢٨ اغسطس ١٩٣١ .

والكتاب مكتوب فى قالب شعرى مجيد . سهولة فى اللفظ . ومرونة فى الأداء ؛ واسترسال مع الفكرة إلى أبعد أغوارها فى إيقـــاع موسيقى ووثبات من التعبير تكاد تقرب من الوحى والإلهام . فالمؤلف من أولئك المفكرين القلائل الذين يجمعون إلى عمق الفكرة وسدادها جمال الأداء وزينة التعبير ،حتى أننا نجد « دورانت » يقارنه بأفلاطون من حيث الجمال الشعرى والصدق الرفيع !

ومثل هذا الأسلوب ربما كان خطراً على القارىء السطحى الذى يسترسل مع جمال النغم وإنسجامه ولايكلف نفسه مؤنة التغلغل مع المفكر إلى ما وراء الفكرة التى أراد أن يسبح معه فى العوالم التى يشير إليها ،ويوحى بها إليه من غير أن يسترسل فى الكلام عنها ؛ غير أن القارىء العارف يستمتع بذلك الأسلوب ولايفقد عمق الفكرة . وأنا شخصياً أجد فى الأسلوب الذى يحكى « الاوركسترا » فى تعـــدد نغماته وإنسيابه وخفة حركاته ، ووقفاته المفاجئة معيناً طيباً على إستكناه تمام المعنى الذى أراد الكاتب . فكاتبنا الفاضل لايكتب كتابه بطريقة علمية محايدة خارجية ؛ فيقرر الآراء ويناقش النظريات فى جفاف وتحقيق علمى . وإنما هو يرمى إليك بالفكرة الممزوجة بإحساسه القوى ،ثم يلعب بها لعباً ويسكب عليها جمالاً من جمال نفسه ويفيض عليها روحاً من روحه ويزينها بتجاريبه وبدوات نفسه .

فالكتاب من هذه الناحية عبارة عن ترجمة حياة « باوز » مكتوبة بقلمه .وهى حياة فيلسوف مفكر ينقب عن طريق الحق والجمال . وهو ينبش أمام القارىء — فى صدق وصراحة وجمال — الجانب العامر من جوانب حياته فى الفة الصديق . وصدق الفنان الذى لايتوه ولايتفوه إلا بما شعر وأحس أعمق الشعر وأدق الإحساس .

ويقول « دورانت » عن فلسفة « باوز » إنها عميقة عمق فلسفة « سبنوزا » صادقة صدق فلسفة المسيح !

فالكتاب فى واقع الأمر ليس مقالاً عن « معنى الثقافة » فحسب ، وإنما هو سيرة حياة المؤلف ، وهى حياة حافلة ،عمل فيها الخيال عمله وهذبتها ثقافة واسعة ،ودراسة جامعة ،وذهن خصيب ،وإحساس رفيع . وهو أيضا إلى جانب أنه ترجمة حياة يصح أن يقال عنه طريقة فلسفية يعرضها المؤلف فى غير ما اعتاد بقية الفلاسفة أن يعرضوا — فى رفق وهوادة وتساهل وسعة نفس — فيطلعنا على آرائه فى الحب والثقافة وفى الدين والآداب والتصوير والفلسفة والطبيعة والسلوك الخ . فهو لايقيد نفسه بنظرية واحدة يشرحها ويعلق عليها ويصدر فى كل مايقول عنها ويضع كل مظاهر العالم تحتها كمايصنع كثير من الفلاسفة .

لا ! ليس ذلك شأنه ، وإنما هو مفكر فنان يعرض إحساسه في إطار من التفكير والشعر ! وهو يقول إنه لايؤمن بالطرق الفلسفية التي تحاول تحديد مظاهر الكون ومجالى الجمال . وإنما هو يقبل الحياة في سعتها وشمولها ، ويقرر أنه ليس من حق أى مفكر أن يدعى أن مذهبه هو الحق وبقية المذاهب خطأ . « وإنما كل المذاهب حق ، لأنها تحكى صور كبار الفنانين فى نظرتهم إلى الحياة » ؛ وأنه لمن السخف الشنيع أن يسأل إنسان أيهما الصادق والصائب فى فلسفته « سبنوزا » أم « أفلاطون » أم « توماس اكواينس » أم « هيجل » ؟ فإن مثل هذا السؤال لايدل على شيء سوى الجهل العميق ، وضيق النظرة ، وسخف التحديد ، وعدم الإفادة من الحياة والدرس . وإنما السؤال الذى يجب أن يحل مكان الأول هو أن نقول للمفكر أو الفيلسوف الذى تقرأ « أى آفاق من الفكر تستطيع أن تفتح أمام ناظرى ، أو أى قدرة لديك على إثارة أحاسيسى ومشاعرى ؛ وأى أعماق يمكنك أن تطلعنى عليها ؛ أو أى همسة رفيعة لاسبيل إلى التعبير عنها يمكنك أن توحى إلى بها عن سبيل الكلمات وإيماءاتها ؟ » .

هذه هى قيمة الفلسفة الحقة وهى كل وظيفتها ، وما أكبرها من قيمة وما أجلها من وظيفة !

وليس من مهمة الفلسفة أن تمدنا بالحقائق والمعارف ؛ بل هى ربط الحقائق والمعارف بما تثيره فى نفوسنا من شك فى قيم الأشياء وصدق النظريات . غير أنها تعلمنا التساهل الفكرى ؛ وسعة الروح لأنها تشعرنا بضعفنا وحدود ذهنيتنا وتجعلنا أصبر على النظر الفكرى وقبول الحياة ومجاوبتنا لها فى كل متناقضاتها وأغراضها المختلفة . وفى هذا المعنى يقول المؤلف الفاضل :

« إن النزعة الفكرية التى يفيدها الذهن الحساس من دراسة الفلسفة هى نزعة تجمع بين الشك المطمئن والاحترام الصادق لجميع المعتقدات والآراء . وهذه هى الثقافة الكاملة والانسان المثقف لايرفض الخرافات التى تمخض عنها العقل البشرى لمجرد أنها خرافات ، وإنما يقبلها ويزنها وينظر إليها نظرة العطف والفحص لأن تلك الآراء القديمة هى نتيجة تجارب طويلة وتاريخ مديد ، ولايعقل أن تكون كلها خطأ لا وجه للصواب فيه » .

والفلسفة تنبه إحساسنا وتوسع مدى نظرنا على هذه الطريقة ، والرجل المثقف لايقبل آخر النظريات العلمية الحديثة لمجرد أنها نظريات علمية . بل يقف منها موقف الفاحص السائل كما يقف بجانب مايسمى خرافة وتقليداً . كما تعلمنا « إن كل مايسمى حقا هو فى نهاية أمره ترجيح وتفضيل » . وإن الضغط على الآخرين لقبول وجهة نظرنا حمق وسفه

لايدل على حرية فى الفكر أو ثقافة فى الرأى . كما أن أعتقادنا أن وجهة نظرنا هى أصح الوجهات وأقومها أيضاً سخف وجهل . فإن محك الثقافة فى الرجل هو احترامه لآراء الغير كما يحترم آراءه هو . فلا يغيرها لأن مجرد البحث العلمى الحديث دل على ضدها . والرجل الذى يدعى أنه فى آرائه « على آخر موده » هو أبعد الناس عن الثقافة وأنآهم عن حظيرتها . ولو أدعى ذلك ونادى به صباح مساء . إن شأنه فى هذا الصدد شأن الرجل الذى يقبل الآراء القديمة لا لسبب سوى أنها قديمة . أو أن السلف الصالح قد قبلها وعمل بمقتضاها .

فكما أن الدين عند هؤلاء المحدثين ليس بالشيء الوحيد الذى يجب اتباعه . كذلك العلم الحديث ونظرياته ليست هى الأخرى كل شيء . ومايستطاع رفضه فى الأديان يستطاع رفضه فى منتجات العلم والتفكير الحديث أيضا .

ذلك محك الثقافة ! فالرجل المثقف هو الذى يقبل الدين والعلم على هذه الشريطة ويقبل الاثنين من غير أن يستبعد تفكيره العلم أو الدين .

وهنا مناسبة طيبة لنسأل ماهى الثقافة إذاً ؟ ماهى هذه الثقافة الرفيعة التى يتكلم عنها « باوز » ويكتب كتاباً ضخماً عن معناها وشرح خصائصها ؟

هل هى التعليم ؟ وهل الرجل المثقف هـــو الرجل المتعلم كما يظن أغلب الكتاب عندنا ؟ فأنت تسمع هذه الكلمة فى مصر فى مايقوله الناس ويكتبه الكتاب أن فلاناً هذا شاب مثقف حينما يقصدون أنه حائز على هذه أو تلك الدرجة العلمية .

هذا المعنى هو ماحدا بـ « باوز » أن يضع كتابه لتصحيح النظرة اليه . والإنسان ربما يعلم علوم الأولين والآخرين ويظل من بعد ذلك حماراً غير مثقف . وقد يدرس كل آيات التصوير ولايصبح بعد ذلك أبصر بمعناها من رجل المتحف الذى يقود الزائرين ويحدثهم حديثه السطحى عن تلك الصور وتاريخها . ولقد يقرأ الرجل آلاف الكتب ويطلع على براعات القصص وإجادات الشعر ويلتهم كل ماكتب «توماس هاردى» . ويعب فى « شكسبير » ويعرف غلطات « أناتول فرانس » ومحاسن « مارسيل بروست » ويتحدث بلباقة عن « توماس مان » و « فرانتز فيرفيل » وأندادهم ، ثم بعد ذلك كله تكون بينه وبين الثقافة هوة بعيدة ، لأن روحه خالية من بذرة الثقافة الحقة ونفسه غير عامرة بما قرأ ودرس وحياته شيء وقراءته شيء آخر — كما أنه ربما يقرأ « اولفر لودج » و « مكسويل » ويناقش النسبية ، ويتكلم فى الفلك والبيولوجيا ويسرد آخر النظريات فى « الكوانتم » وطبيعة النور و « الالكترون » و « البروتون » الخ . ويظل بعد ذلك كله كرجل الشارع غير مصقول

اللسان غير مثقف الذهن ، مسفاً في حديثه ، جازماً فيه ، مغلق الوجدان والمشاعر ، يكثر من الصراخ والضجيج .

فالثقافة الحقة إنما تكون في الإستفادة مما نقرأ وندرس ، كما تكون في الإستفادة من تجاريب الحياة وفي تقليل الإحتكاك والنزاع بيننا وبينها . وعندما يصبح تعليمنا وحياتنا شيئاً واحداً . عندئذ نكون متثقفين . فكبح النفس وضبط العواطف العارمة يعتبران من أقوى آثار الثقافة .

ونستطيع أن نعرف الرجل المثقف في اتجاهه نحو من هو أقل منه مكانة في نظام الحياة الإجتماعية ، كما نعرفه من إثارة عواطفه وسوق حديثه ولطف كلماته . كما أن الرجل الذى لايعرف كيف يخلو الى نفسه وينعم بتلك الخلوة قل أن يسمى متثقفاً . فالذى يسكن الى الضجيج ولايستطيع العيش في غير الضجة المحتدمة والصراخ والحركة هو رجل زائف الروح ، زائف الثقافة .

ويقرر « باوز » ان حب الرجل للطبيعة والسكون من أهم علامات الثقافة . والذى يحب الآلات الضخمة والبنايات العالية أكثر من التلال والرمال والأشجار لهو رجل ليس في روحه شعر .

وليس معنى حب الطبيعة أن نحبها في بعض فصولها وأزيائها ، بل نحبها في كل فصل وفي كل زى ، لأنها هي الطبيعة مهما تقلبت الفصول والأزياء ! فمحب الطبيعة الصادق الحب يحبها وهي غاضبة ، ويحبها وهي ساكنة ، ويحبها وهي ماطرة ، ولايقصر حبه دونها إذا احلولكت السماء وتجهمت معالمها ، فهو عابدها مهما ارتدت من الأثواب كما يعبد المحب محبوبته حيث لاثالث بينهما .

والرجل الذى شاهد النباتات وعرف أسماءها . والذى خالط الأطيار وعرف أنغامها ، والذى لم يبخل بنظرة نحو الجبال والكواكب . والذى يقف مسرحاً نظره في فضاء المكان والزمان الذى لابداية له ولانهاية — ذلك الرجل لايخاف من شيء حتى الموت نفسه . بل يقابله بصدر رحب لأنه قد عرف الحياة واحتملها وتثقف .

والرجل الذى تومض أمام مخيلته صور ماضيه السعيد . صور ذكريات حبيبة لم يقف عندها في ساعتها وهاهي الآن أمام ناظره كصور « الكلايدوسكوب » في تتابع حلو مشج ، يتذكر تلك التى ركب فيها الركب ، وذلك اليوم الماطر وإحساسه برائحة الشجر عقب المطر . وأماكن رآها . وأصواتاً سمعها . ووجوهاً شاهدها ، وعواطف أحسها ، ومشاعر مختلفة . وإحساسات متباينة . كل أولئك تومض في ذاكرته وكأنها تجدد

عهداً مضى وترجع بدولاب الزمن إلى الوراء هنيهة . مثل هذا الرجل مثقف الروح والوجدان، ثرى بالحياة، غنى بالشعور ولو لم يقرأ كتاباً ولم ينظر فى خريطة واحدة !

هذا هو الفرق بين الرجل المتعلم والرجل المثقف . فالأول يستطيع أن يحدثك فى تأكيد وجزم عن آخر النظريات الفلسفية والعلمية . ومايجب أن يكون عليه إعتقاد الإنسان في هذا العصر . والثاني يحس ويقارن ويرجح ويجد أنه ليس من السهل الهين أن يحدثك عن فلسفته الخاصة . فإذا أفلح في التعبير عنها شعرت أنت أن هذه النظرة هى التى عاش ويعيش بمقتضاها .

وهو لايهمه أن يقبل الآراء الجديدة كلها وأن يسمي نفسه مفكراً على الطراز الحديث ، وإنما يهمه أن يحس وأن يصدق فى هذا الإحساس . وأن يفكر تفكيره الخاص لاتفكير سواه . فالرجل المتكلم ربما يأخذ معه فلسفته في ذهنه كما يأخذ الإنسان نقوده في جيبه يخرجها متى شاء ويخبئها أنى شاء . بخلاف الرجل المثقف الذى يحيا ويعيش ويفكر حياة واحدة .

ومؤلفنا الفاضل كما يقول عنه « دورانت » : « لايؤمن بدين خاص ، ولكنه يحترم كل الأديان . وهو لايعتنق طريقة خاصة ، غير أنه عابد فى كل محراب » .

وفى الفصل الذى عقده بين الدين والثقافة يوضح « باوز » ديانته الإنسانية النزعة ، الواسعة المدى . وعنده أن الأدب أعمق من الفلسفة لأنه أقرب إلى الحياة فى تناقضه وعدم إتساقه وسمعته . وفى الأدب القسوة إلى جانب الرحمة . والشقاء إلى جانب النعيم ، والقبح إلى جانب الجمال . وكذلك الحياة ! والفن في جملته أسمى من الأدب والتفكير الفلسفى لأن وجهة الفن الجمال . الجمال أسمى مما يسمى حقاً . والجمال الذى يخلقه المصور بلمسة أو خط أو لون أرفع من كل فلسفة وكتابة . و « باوز » يرى الدين والشعر فى صور « الجركو » مثلا كما يرى الدين والجمال فى شعر « وليم بليك » وشخصيات « دستويفسكى » وألحان « بتهوفن » . وهو يقرر كل هذه الآراء والمشاعر فى فن رائع من اللفظ والعبارة لايقل كثيراً فى تعبيره وموسيقاه عن فن هؤلاء الرجال النابهين .

حرفة الكتابة *

سألني ذات مرة صديق فاضل « كيف أصبح كاتباً ؟ » على زعم أنني قد أصبحت كاتباً وأنني أقدر على معونته وإرشاده إلى الطريق الذهني في إحتراف الكتابة . فقلت له « الأجدر بك أن تجتهد في أن لاتصبح كاتباً » « ولماذا ؟ » « لانني أود لك كما أود لكل صديق أحبه أن يعيش الحياة ، لا أن يصفها . وأن يريح دماغه ، لا أن يقلقها ويكلف نفسه متاعب هو في غنى عنها . »

- ألا يعيش الكتاب ؟

- لا أدري ماذا تقصد .

- اسمع مني إذن ولك أن تختار بعد هذا إذا أردت أن تمتهن حرفة الكتابة أو أن تعيش الحياة لأن حرفة الكتابة عندي والحياة نقيضان لايلتقيان .

- إنك تلغز ياصديقي ، وماذا تكون الحياة هذه إذا كانت نقيض حرفة الأدب الذي هو الحياة في أسمى مظاهرها وأروع مجاليها وأحفل ساعاتها ؟

- أتركنا من هذا الكلام وتعال بنا نواجه الأمر الواقع .

فالكاتب هـــو ذلك الرجل الذي يعتقد أنه يرى الأشياء والحقائق والحياة عـــلى خلاف مايراها عامة الناس . وأن مهمته وحرفته أن يخرج تلك المعاني والصور التي يراها هو ولايراها غيره ، وأن يعبر عن تلك المعاني والصور بلغة الناس العاديين ، وأن يتنزل بتلك المعاني والصور والنظرات من علياء سمائها إلى حيث يرى الناس الواضح الجلي . أهذا مسلم به ؟

قال : « نعم وهو كذلك » .

- ولهذه الأسباب فقد قر في ذهنه أنه ليس كالناس العاديين . بل هو نوع قائم بذاته بين الناس . وصلته بعامة الناس هي صلة الممتاز مع العادي الذي يرى فيك أكثر مماترى في نفسك ، والذي جعل همه وكده أن يوضح لك نفسك كما يراها هو ، وأن يوضح لك الجوانب التي تغفل عنها ولاتلتفت إليها .

ولهذا السبب عينه فقد قـــر في ذهنه أنـــه يجب عليه أن لايمشي كـــما يمشي بقية الناس . وأن لاينظر كما ينظر الآخرون ، ولايعمل شيئا على النهج الذي يعمل به بقية الأحياء . وأنت ترى من هذا أنه يكلف نفسه أشياء عدة ويرهقها ، ويضع لنفسه وظيفة هي في عراك دائم مع ميول الحياة فيه : مع سمعه وبصره وبقية الحواس . فالكاتب بتكوينه الطبيعي

---

* جريدة مصر - العدد ١٠٣٤٢ - ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣١ .

لايخرج أن يكون إنساناً تسره المناظر الجميلة ويكربه القبيح الحزين . وفيه دفقة الحيوان الذي يود أن يستمتع بحواسه ويطلق لنفسه العنان . غير أن وظيفته أو مايتخيله هو كذلك تكبح كل تلك الرغبات والميول الأصيلة فيه . ومن هنا نشأ النزاع بين الكاتب كما تحتم عليه اصول مهنته ، وبين الإنسان الذي لايود أن يرهق كاهله بكل تلك الحدود والقوانين الثقيلـــة .

— بدأت أفهم ماتعني .

— وأغرب من ذلك كله أنك ترى الكتاب يتحدثون عن عدم التقدير ويبكون حظهم ويلعنـــون الناس والظروف السيئة ، ولو تمعنوا قليلاً لعرفوا أن ذلك مايجب أن ينتظروا ويوطدوا النفس عليه ، إذ أن العطف منشؤه الالفة والقرابة والشبه . والكاتب بحكم وظيفته وسلوكه ينأى عن هذا الطريق فما شأن الناس العاديين معه . بل الأغرب من ذلك كله عندنا أن يصفق الناس لمن ينتقصهم ويبرهن على امتيازه عليهم ويضحك منهم ويسخر . إن ذلك ضعة منهم وجهل وبـــدلاً من تذمر الكتـــاب وشكواهـــم يجب أن يتذمر الجمهور منهم ويشكو أمرهم ويقاضيهم أمام القضاء . ماذا يهم الرجل العادي إن لك دماغاً لايشبه دماغه ، ولك إحساس عميق أو فكـــر أصيل ؟ إنك لاتشبهه وكفى ، فكما أن القرد لايهمه شقي الإنسان أم سعد ، كذلك يجب أن يكون شأن الرجل العادي مع من يدعون العبقرية والإمتياز ، وهو محق وعلى صواب . والعبقري خاطيء وعلى خطأ في فهمه لأصول الحياة وشأن الأحياء . فأنت ترى من هذا الحديث أنه ليس من مهنة أبعد من منطق الأشياء أكثر من مهنة الكتابة وحرفة الأدب . والكتاب على هذا الزعم من أحمق الناس . لاأستثني من ذلك نفسي فكثيراً ما أمضتني هذه المهنة وضحكت على نفسي حينما أخلو الى نفسي .

— إنك تقول شيئا عجباً ، لماذا إذاً تستمر في هذه الحرفة وأنت تعتقد فيها هذا الاعتقاد ؟

— اتعلق بها لأنه يصعب على الإنسان ترك شيء عشقه في باديء الأمر . خصوصاً إذا كان في ذلك الأمر تملق للنفس انها ممتازة وغش لها في ساعات التقدير وصخب الحياة . ذلك كل مافي الأمر ! أما من يقول لك خـــلاف ذلك فإما أنه لايدري شيئا عن نفسه أو معاند مكابر في الحق الواضح !

سوف أقص لك بعض جنايات الكتابة مع أنني مازلت مبتدئاً في هذه الحرفة العجيبة . والرجل الذي يدخل الحياة على زعم أنه يود أن يكون كاتباً لايمكن أن ينظر

إلى أى شيء أو يعمل أى شيء. أو ينام أو يصحو إلا وخاطر الكتابة فى رأسه. كيف يحيل كل تلك الأشياء إلى مادة كتابية . وهو رجل مجنون فى واقع الأمر ولو أن الناس لاتسميه بذلك الإسم لأن جنونه فى دائرة رأسه . .

فإذا ما جلست آكل وكان ذلك الأكل غير أكلى المعتاد . ولنفرض أنه كان أكلاً شهياً حلواً، لم أترك نفسى تتمتع بذلك الأكل وأسير مع نشوة فرح الجسد والحواس . بل أظل أحلل وأنقب كيف أخرج من تلك الأكلة بمقالة أو قصة . فترى رأسى مشغولاً طيلة مـدة المائدة . أيكون موضوعى قصة عن جلوس الناس مثلاً على المائدة وطرق أكلهم ومايهجس به خاطرهم وهم يأكلون ! أأتناولهم كلهم وأعطى صورة كبيرة أم أتناول واحداً منهم فأصف حركاته وبدواته وأجعل المائدة كأساس للقصة ؟ أم أتوجه بنظرى إلى صاحب المائدة وعن شعوره وإحساسه وهو يقدم تلك المائدة الفاخرة ومايحس به من الزهو والخيلاء ! أم أرجع إلى نفسى أنا وأعمل عملية تحليل نفسانى فى تلك اللحظة .

كل هذه وأشباهها تعرض للكاتب وهو على مائدة الطعام وكان أولى به أن يلتذ بالأكل « والسلام » . ولكنه ينغص على نفسه ولايحس لذة الأكل والأشربة . وما كان أغناه عن كل ذلك إن لم تكن حرفته الكتابة أو مهواته .

فإذا ما ذهبت إلى حفلة رياضية أو ما شابهها لم أترك نفسى تتمتع بذلك الحفل البرىء بل أظل ساكناً كأننى نصف إله ألاحظ الناس وأقيد عليهم حركاتهم وسخافاتهم وإيماءاتهم ولا أشترك فى كل ذلك . بل أظل متفرجاً عليهم . نائياً ببصرى عن موضع الفرجة والمشاهدة إلى التمعن فى سلوك الناس ودوافع ذلك السلوك . وأروح أفلق رأسى كيف أعالج تلك المواد المضطربة التى شاهدتها فى الملعب الرياضى ، وكأننى لم أشهد احتفالاً أو ما شابهه بل شهدت أشخاصاً وسلوكاً وحركات مختلفة . أتود ياصديقى أن تكون متفرجاً واصفاً للحياة بدلاً من أن تشترك فيها وتحيا كل دقيقة من دقائقها ؟

فإذا كنت فى السينما أو فى الكازينو أيضاً إستولى على جنون الملاحظة والتحليل . وبينما الناس يرقصون ويشربون ولايحسون بوجودى أنا الضعيف أكون جالساً على مقعدى معناً فيهم وفى هواجسهم أحدث نفسى كيف أننى أمتاز على هؤلاء الناس الذين يبدون لى كالقرود أو القطط ، أقيد عليهم حركاتهم الطائشة وصراخهم وضجيجهم . وأخرج وأنا أحسب أن قد غنمت أكبر غنيمة وظفرت بسر الحياة . والحياة تعلم أنهم أعقل منى وأصوب فى قبول الحياة والنجاح فيها . وهكذا إلى آخر المنغصات. فما يتحرك الكاتب . أو من يعنى بأن يكون كاتباً حركة، أو يشاهد منظراً ، أو يأكل أكلة، أو يصدق إنسان

أو يأكل ، أو يضحك ، أو يعمل أى عمل من الأعمال ، أو يظل صامتاً لاينبس ببنت شفة ؛ إلا وهومشغول به ناظر فيه محلل لهيئته تلك . وكان أجدر به من كل ذلك أن يسأل نفسه قائلاً : « وما شأنك أنت يافضولى بمثل هذه المهمة الثقيلة ؟ أأنت ولى أمرهم ؟ ومن الذى كلفك بتلك المأمورية والقيام بتلك الوظيفة ؟ . . . هو الجنون والعياذ بالله ! » .

وليس للكاتب الناجح في مهمته حياة خاصة بنفسه ، وإنما حياته كلها مكرسة لحرفته ، ولا أعرف حرفة قط تشغل الإنسان وتسلبه نعمة الحياة فى الليل والنهار مثل حرفة الكاتب الفنان ؛ فهو يحيا فى حياة الآخرين ويضيع وقته واصفاً الحياة ؛ وموقفه منها موقف المتفرج الفضولى لاموقف المشترك الصحيح الشعور الفاقد لنفسه في الحياة ودفعتها .

زد على ذلك أن الكاتب قل أن يخلو من الغرور وذلك طبيعي ، إذ يحسب نفسه ليس كالناس العاديين ، ولذلك فهو يظهر أمام الناس وقد وضع هيئة لاتمت إليهم بسبب ، فهو في الترام وفي ساعات الغرام لاينسى أنه كاتب . والناس مطالبون بأن يعرفوا فيه هذه الخلة ويحترموه لأجلها ، وكان أولى بهم والله أن يهينوه ولايحترموه لأنه كاتب .

ولكى نترك ياصديقي فكرة الكتابة فإننى سأحكى لك هذه القصة التى وقعت لى قريباً :

دعاني أحد الناس ممن لهم مكانة فى الهيئة الإجتماعية وقال فى خطاب الدعــوة إنه معجب بمقالاتي ويود التشرف (خلى بالك التشرف) بمعرفتى ، وحدد لذلك موعداً ، فما جاء الموعد إلا وكنت قد تزينت بأحسن ماعندى من الثياب وخرجت أخطر كأننى قد نزلت الآن من جبل «الأولمب» وأدخلنى الخادم إلى حيث الصديق . فلما وطئت عتبة الدار رأيت أمامي منظراً كدت أفر من قبحه لولا أن تشجعت وقلت فى نفسى الأمر لله . وحينما اقتربت قليلا وتبينت الحائط الذى كان أمامى وجدت أن به مرآة كبيرة !

الفن في حياتنا اليومية*

أو

كيف نحيا حياة فنية

يتكلم الناس عن الفن كأنه وحدة من المعارف العليا أو الوظائف الكبرى التي لادخل لحياة كل يوم فيها . ولا لعامة الناس شأن بها . يتكلم الناس عن الفن والفلسفة وما إليهما من المعارف الرفيعة كأنها أشياء خصصت لفريق خاص من الفنانين والنقاد والفلاسفة . وإننا لنسمع فى كثير من الأحيان أن ليس للفن دخل بالحياة فى معناها العادى المألوف . وإنما هو هبة والحياة الرفيعة تمنح للنخبة الممتازة من أبناء الحياة : ويعنى به ويستأثر بشئونه جماعة المثقفين والفنانين ! ذلك هو سوء الاستعمال وإستئثار الطبقات وتعجرف الأخصائيين الذين يحصرون الفنون في آفاق ضيقة وحدود معلومة . ويعطونها من الرموز والأسماء والإصطلاحات مالاطاقة لرجل الشارع بمعرفته والإضطلاع بتفهم أسراره. فذلكم هو الإستئثار فى أشنع صوره ؛ والفردية متنكرة في زى العلم والمقدرة والضيق الذهنى يسمى بأسماء الإستنارة وانتفاضة المعرفة !

ليس الفن محصوراً فى موسيقى كبار المؤلفين ؛ ولافى صور المصورين ،وأشعار الشعراء ،وفن الأدباء الخالدين ،وإنما هو يواجهك حيثما أدرت نظرك شكلاً من الأشكال أو وضعاً من الأوضاع . أو مطلباً من المطالب : أو حاجة من الحاجات . ولا أحسب أن الحياة كلها في جملتها وتفصيلها سوى عمل فنى محكم الأصول . بديع الوضع : موثق التكوين .

إن « الخلق الذكى » هو طريق الحياة وسلواها وغايتها القصوى التى لاغاية بعدها . هذا الخلق الذكى لادافع له سوى « إرادة » الحياة التى لا إرادة فوقها . والحياة تخلق لأنها لاتستطيع غير ذلك طريقاً أو سبيلاً ، تخلق كل شىء بعد أن تخلع عليه هيئته وتميزه بالميزة التى تدل عليه. وتعمل من كل ذلك المزيج المختلف الصور المتضاد الأغراض صورة واحدة كبرى ونغماً واحداً جليلاً . وذلك هو مظهر « الإرادة الذكية » فى الخلق الفنى .

وفى واقع الأمر وحقيقته نحن كلنا خالقون — كلنا خالقون بالفطرة . خالقون حينما نقوم بأتفه الأعمال ونتحرك أقل الحركات . فلتكن أعمالنا إذاً مجودة ، ولتكن حركاتنا موفقة رشيقة . ولنعد العهد اليونانى فى عبادة الجمال : فليس أحق بالعبادة من الفن والجمال !

---

* جريدة مصر — العدد ١٠٣٧٣ — ٧ يناير سنة ١٩٣٢ .

وإنه لمن البديهي أننا لانستطيع كلنا أن نكون موسيقيين وشعراء ومصورين. ولكننا نستطيع كلنا أن نكون فنانين في حياتنا اليومية بأقل جهد، إذا جعلنا نصب أعيننا أن الفن معناه الخلق والترتيب والإتساق، ويستطيع الطفل الصغير أن يرتب أدواته ويفنّن في تنسيقها على نمط خاص هو مؤلفه والمبتكر له، وأن يجمع بين الأشياء المعروفة نظاماً جديداً، ويظفر بتلك النشوة الروحية التي لايعرفها إلا من عرف الفن وذاق لذة الخلق والترتيب والإختيار، وليس معنى الخلق والإبتكار أن نأتي بأشياء من العدم، بل أن ننظم المعروف المألوف في أوضاع جديدة يرتاح إليها النظر ويسكن إليها الخاطر. وتوحي بتسلسل الأفكار الحية والمشاعر اليقظة وتسكب على الكل جمالاً وجلالاً، وتضفي على حياتنا قصداً ومعنى يصبح بذلك الفرد منا حياً في كل جزء من أجزاء جسمه.

ولقد ذاعت بعض النظريات الخاطئة عقب الثورة الصناعية أن المادة وحدها هي الأمر الهام في هذه الحياة، وأن «المنفعة» هي الدافع الوحيد لكل أعمالنا، وأن مايقال عن ضرورة الفن والشعر كله سخف وجهل. وليس أبعد من هذا الرأي عن الصواب ولاأنأى منه عن الحقيقة ومعرفة الحياة.

هل وراء الحياة كلها نفع مادي؟ هل لهذا النظام البديع أي قيمة مادية؟ إن الحياة في كل نظامها لاتدفعها المادة ولاتقيد أعمالها وسننها المنفعة. وكذلك الإنسان قد عرف كثيراً من الأشياء على سبيل الزينة والفن قبل أن يعرفها على سبيل الضرورة والمنفعة، عرف الملابس وأواني الأكل على سبيل الزينة قبل أن يعرف ضرورتها. بل أي مادة وأي منفعة تدفع بالرجل الثري أن يكدس المال وأن ينظمه أكواماً وأن يظل ينظر إليه نظرة النشوة والظفر؟ إننا في ملابسنا وفي مراكبنا يدفعنا الفن والمظهر قبل أن تدفعنا الضرورة أو المنفعة، وهذه حقيقة ثابتة يجب أن تقرر بين هذه النظريات المادية التي تملأ جو التفكير العصري. فإن أصل الفن عريق في أصل الحياة.

إننا نرجو أن نكثر من هذه النزعة الفنية في نفوسنا وأن نغذيها، ونتعهدها. وعلى هذا الإعتبار تستطيع ربة البيت أن تنظم بيتها على نسق خاص مهما قلت مؤثثاته بما تختاره من الألوان وطريقة تزاوجها، ووضع الأواني والأسرة والمقاعد، وتجعل من كل تلك الأشياء العادية تحفة جمال، وقطعة شعر هي مؤلفتها والخالقة لها، وتظل تشعر بفخر الإنتساب إليها، وتنظر إليها نظرة المعجب الراضي في حضرة الغرباء والزائرين كما ينظر المصور الفنان إلى متحف صوره حينما يحس بأنه خالق، وأنه يشترك في نظام الحياة الذكي، ويجاريه في معرض المسابقات والتفنن لتجديد فن الحياة. وكذلك تحس ربة البيت الخالقة الفنانة في دائرة عملها، تشعر أنها «كل واحد» مع نبض الإرادة الخالقة ونغم متسق

مع نظام الأشياء والتكوين . وليس بعد ذلك معنى ولاحياة !

وكذلك يستطيع الموظف والتاجر والعامل كل فى حقله أن يجعل عمله الذى يقتات منه تحفة جمال وآية فى حد ذاته . وإنما يكون كل ذلك بالاختيار الذكى والترتيب المهذب والإستنباطات المبتكرة ، فيشعر الفـــرد وهو يقوم بواجباته كأنه يلهـــو ويتسلى ؛ لأن تلك الواجبات والأعمال تعطيه نشوة من نفسها ورفعة من عندها ، ويعطيها هو نظاماً من نظام حياته ، ويخلع عليها روحاً من معين روحه . وجدير بمن يؤدى عمله على هذا النهج أن لايحتاج إلى رياضة أو سلوة لأن عمله هو رياضته وواجبه وسلواه .

وكنت ألهو حديثا بمطالعة كتاب ضخم ألفته كاتبة أمريكية واسمته «روح غرفة» . وكنت أظن قبل تصفحه أنه إسم رواية خيالية . فإذا به بحث فى طريقة تأثيث الغرف ، فلم أعجب ، بل زاد شغفى بمطالعته .

ولقد عرفت النهضات الدينية شأن الفنون الجميلة فى العبادة الدينية واتساق النغم الروحى فى نفس الإنسان . فأدخل الإغريق الدراما فى معابدهم وهياكل آلهتهم ، وقام الكاردينال « نيومان » بنهضة أكسفورد المعروفة فى العصر الفكتورى لإدخال الفنون فى حظيرة الكنيسة . بما لها من بليغ الأثر فى تصفية الروح الإنسانى وهدأة كيانه . وقام من بعده الشاعر الإنجليزى المعروف « وليام موريس » يبشر بالفن الجميل ويكرس حياته للصناعات الفنية وانشاء مصانع للزجاج الملون وتلوين الملابس والأثاثات . وعنى بكل مايجعل الحياة فى البيت فناً من الفنون لاضرورة من الضروريات ، فأحال البيت الإنجليزى إلى معبد أرواح ، وهيكل جمال وفن ، وأراد للفرد البريطانى أن يعيش الفن صبحه ومساءه ، وفى نومه ويقظته ، وفى عمله وفى ساعة فراغه . ذلك لأن الذهن يتجه هذه الناحية فيصبح مشغولاً بالفن ويدخله فى حسابه ، ويظل يتلمس طرق تجميل معاشه وهو فى الشارع أو فى الحقل ينظر ، أو فى الترام يشاهد مختلف الأزياء والأنماط .

وفى الحق ان حياتنا مليئة بالفن . بالرغم مما يقال عن المادية والمنفعة ، غير أن أغلبه هو من الزينة ، ونحن نريد حياتنا أن تزان بفن الخلق ، فإذا ما اتجهت أمة من الأمم هذ الاتجاه الفنى المجيد فبشرها بحياة مجيدة .

وقصة اليونان فى هذا الصدد معروفة مشهورة . غير أننى أكتفى بأن أقص الحكاية التالية لما لها من بليغ الأثر والدلالة ، لأن للفن المكان الأسمى فى حياة كل يونانى ، وكل فرد هناك فنان بالمقدار الذى يستطيع وفى الدائرة التى يتحرك فيها .

كانت الأمهات الاغريقيات يحفظن التماثيل الجميلة الشكل ، البديعة التكوين فى

حالة الحمل . لاعتقادهن أنهن بإدمان النظر فى تلك التماثيل الكاملة سيلدن أولاداً على ذلك الطراز التمثالى البديع ،ومهما يكن من صحة هذا الزعم فالشيء الذى لاشك فيه أن«الإيحاء» حقيقة علمية لاشك فيها ، وأن من يحيط نفسه بصور الجمال وتسكر روحه من موسيقى القوالب الخالدة لايسعه إلا أن يكون جميلاً نبيلاً صادقاً فى كل مايأتى ويشعر ويحيا .

فلنكن أمة تعرف الجميل . ولنكن أفراداً خالقين . ولنعن بالفن فى حياتنا اليومية لأن عنايتنا به هى عناية بحياتنا. ولنعط أعمالنا وحركاتنا حقها من القالب واللون والحركة، ولنحل كل صوت نسمعه إلى نغم ، وكل شكل نراه إلى صورة متسقة ، وكل حركة إلى معنى نضير . إذا عرفنا كل ذلك ، وإذا حيينا على هذا النهج القويم ، وعشنا هذا الفن الصميم عدنا أمة ناهضة آخذة بأسباب الحياة والنجاح ، وعادت حياتنا حافلة مليئة وعاد كل فرد منا مؤلفاً خالقاً لايتطرق السأم إليه ولايعرف ماهو التشاؤم لأنه يحيا حيوات عدة هو مبدعها والخالق لها. إذ ذاك تطلع علينا الحياة فى إطارين من الجذل والفرح والامتلاء: إطار إلهى ، وإطار إنسانى بديع . وعدنا نحن أبناء الحياة نحكى الحياة فى لعبتها الكبرى وسلوتها العظمى ، لأننا نساهم فى عملية الخلق الأبدى ، ونأكل من المائدة الإلهية ونبارى الخالق فى صنعه « تبارك الله أحسن الخالقين » .

الثقافة اللاتينية *

وهل هي خير لنا من غيرها

الثقافة اللاتينية من ثقافات العالم المعدودة . وإذا كانت الصحف المصرية تلهج هذه الأيام بأخبار مؤتمر الصحافة اللاتينية ،حق على كل من يهمه أمر الثقافة في هذا البلد أن يعيد النظر في أمر هذه الثقافة اللاتينية وتحديد علاقتنا بها .

فليس من شك أن حظ مصر من هذه الثقافة إلى الآن وافر كبير . وهنالك مسائل تعن للذهن الباحث كلما ذكرت هذه الثقافة ومالها من ميزات ومايؤخذ عليها من نقائص ومعايب .

لست من الذين يجزمون بأفضلية أي ثقافة إطلاقاً على أي ثقافة أخرى . وعندي أن مسألة الأفضلية مسألة نسبية تختلف بإختلاف أوجه النظر وحاجات كل فرد، وكل مزاج وكل أمة ، ونحن هنا بسبيل عرض هذه المسألة وإتصالها بمصر وبقية البلدان الشرقية .

ولقد كنت أقرأ هذين اليومين مقالات نقدية عن فن التصوير الفرنسي بمناسبة إفتتاح معرض الصور الفرنسي في مدينة لندن . وقد أتاحت هذه الفرصة لنقاد الإنجليز الفنيين أن يتحدثوا عن ميزات الفن الفرنسي وخصائصه،ويكادون يتفقون على أن فرنسا هي قائدة جميع الأمم في هذا الفن الجميل .

نقول هذا لنوضح أننا لسنا من أولئك الذين يتنقصون الثقافة الفرنسية عامة في لهجة الجزم والتأكيد. وإن دل مثل ذلك الحكم على شيء فإنما يدل على ضيق أفق النظر وسطحية الحكم والتفكير .

الثقافة اللاتينية من ثقافات العالم المعدودة. لاشك في ذلك ولاريب . وهي ككل ظاهرة لها خصائص نائتة تشير إليها وتعطيها طابعها وتسهل أمر الحديث عنها للعارفين الدارسين . فما هي خصائص الثقافة اللاتينية إذن ؟

أول خصائص الرجل اللاتيني أن له عقلية يقظة ذكية تلمح ألوان الحياة ودقائقها وتفاصيلها، ويثبت كل ذلك في الفن المكتوب أو المخطوط ، وتعطيه من لذة الحياة وإندفاع الشعور ومسرات الساعة ألواناً صافية مشرقة . و « حكمة الحياة » عند الرجـــل الفرنسي أو الطلياني،إنما هي في لذة الحياة، فالعقلية اللاتينية متوفرة الشعور دائماً، متحفزة الفكر، عندها القدرة على الإستمتاع بالحياة ولمح الدقائق، والاسترسال مع مطالب الساعة ونزوات

---

* جريدة مصر — العدد ١٠٣٧٨ — ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ .

القلب والفكر . يعدل من هذا الاتجاه نزعة منطقية فكرية محضة ، تعبد الوضوح وتعرض كل شيء في دقة حسابية لامكان للمجهول ، أو الغامض ، أو العميق الملتوى ، أو الرمز من مكان فيها . فالأدب والفن والفلسفة اللاتينية ترى فيها هذه الخصائص أكثر مانرى . هذا هو لونها الغالب المتسيطر . ومرجع هذا اللون هو المزاج اللاتيني وطبيعة تكوين الشخصية اللاتينية .

فالشعوب اللاتينية تنظر إلى الحياة — ويرجع ذلك الصدى فى ثقافتهم فى الأغلب والأعم — نظرة اللاهى المرح الذى يديم النظر فى « كلايد وسكوب » الحياة بلذة واستمتاع ويرى الأشياء في لحظات خاطفة ، ولايؤمن بالواجب و «الرواقية» والنظر إلى الحياة نظرة الجاد المتجهم الذى ينظر إلى الحياة وكأنها « ميدان قتال » — شأن الأنجلو ساكسون — ولكنه أقرب لأن ينظر إليها وكأنها « فراش من الورد » كل مافيه ملذ وهم يؤدون أعمالهم وكأنهم يلعبون أو يتحادثون .

وبالإختصار فإن العقلية اللاتينية تشبه عقلية أكثر الشعوب الشرقية . خاصة ماكان منها على البحر الأبيض المتوسط مثل مصر . فإجادات اللاتينيين ليست بغريبة عنا . كما أن مايؤخذ عليهم عادة من خصال وخصائص يمكن أن يؤخذ علينا أيضا . وهنا وجه الشبه . وذلك راجع من غير شك إلى أثر الإقليم فى المزاجين .

فنحن نفهم الفن الايطالى أو الفرنسى بعناء أقل مما نفهم به الفن الألمانى أو الإسكندناوى مثلاً ، لأن ذلك إلينا أقرب وبنا أشبه .

هذه هى المسألة . فهل نحن نربح فكرياً بدراسة فكر يشبه فكرنا ، وتقرب أمثلته العليا من أمثلتنا ، ونشترك معه فى أهم الميزات والخصائص؟ أم نحن أقرب إلى الصواب الفكرى بدراسة ثقافة وفكر يختلفان عن ثقافتنا وفكرنا فى أهم الخصائص والشيات ؟

الجواب على هذا السؤال ليس مما يسهل أمره . بل هو من الصعوبة بمكان كبير !

هل نضيف إلى محصولنا الثقافى وإلى نمونا الفكرى بدراسة ثقافة وطرائق فكرية لاننكرها بل لايبدو عليها وجه الغرابة لدينا . وهل « المثل » يعين « المثل » أكثر ويساعده على تفهم نفسه ونموه الفكرى أم أن « الضد » أو الشىء المختلف أقمن بالدراسة وتكميل أوجه الضعف ومعرفة أوجه النظر الأخرى ؟

أعتقد أن دراسة البعيد عنا ، الغريب عن طبعنا ، أحرى بأن يفيدنا فى الخلق والشخصية ، ولكننى لا أستطيع الجواب على هذا السؤال من حيث الفائدة الفكرية وفهم الأشياء .

وأقرب الأمثلة التى ترد إلى الذهن فى هذا المضمار هى :

لماذا نغير وجهة فهمنا إلى الأشياء ؟ وهل من خير فى ذلك ؟ وهل من الطبيعى المأمون العاقبة للتقدم الفكرى أن نقحم على مزاجنا مزاجاً آخر ؟

تلك بعض المسائل ، وحسبى أن أفتح هذا الموضوع لأدبائنا ومفكرينا ، خاصة رجال الجامعة المصرية الذين يقومون بمهمة تثقيف النشأ المصرى .

ساعة مع اندريه موروا *

الكاتب الفرنسي الشهير

« أندريه موروا » كاتب ملحوظ المكانة ، عالي الشهرة ، كثير التفنن في ضروب الأدب وألوان الكتابة . فهو يعد ثالث ثلاثة في كتابة التراجم الفنية الحديثة ، هم أشهر من عرف في هذا الباب ، وبرز في ذلك المضمار : «موروا» و« ستراتشي » الانجليزى الذى توفي أخيراً ، « وأميل لدفج » الألماني ثالوث يذكر كلما ذكرت كتابة التاريخ وجاء ذكر السير والعظماء .

وهو إلى جانب هذا مؤلف قصصي ، بارع الفن دقيق التصوير ، يمزج في فنه بين حقائق الحياة الواقعة ، وسابحات التخيل الجامحة ، ولعب التصورات الفكهة ، فتخرج قصصه حلوة الخيال والذوق ، فكهة المنحى والأسلوب .

وهو إلى جانب كتابة القصص والتراجم ، ناقد ملم بحركة الآداب العالمية ، خبير بالأدب الإنجليزى والأمريكي ، وله دراسات في هذا الصدد معروفة مقروءة ، كما أنه صحفي يكتب للصحف في الشئون الإجتماعية والنفسانية ، وينقد لها الكتب الأدبية الهامة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا — نقد عالم خبير .

إنتهزت فرصة زيارته لمصر — في شهر مارس الماضي — وطلبت منه أن أتحدث إليه في شئون الأدب والفن فأجابني إلى طلبي ، في أريحية وظرف ، وجدته في غرفته في فندق شبرد وأمامه على المنضدة عدد وافر من الكتب التي تتناول شئون مصر ، بعضها بالإنجليزية وبعضها بالفرنسية ، وكنت أعرف قبل ذلك أنه يجيد اللغة الإنجليزية يقرأ بها ويتحدثها بلباقة ومقدرة ، فحييته وأعربت له عن أعجابي بكتبه التي قرأت ، وأطلعته على بضعة أعداد من مجلة الهلال — وكان من بين مقالاتها مقال عنه — فتصفحها شاكراً ، وابتسم حينما وجد أسماء بعض كتبه بين الحروف العربية ، وأعرب عن أسفه أنه لايستطيع أن يقرأ العربية ، ثم لمح صورة غاندى في احد الأعداد فعرفه وتحدث عنه ، وابتدأت أسأله قائلا :

« هل فكرة وضع كتاب عن مصر هي التي حدت بكم لزيارة هذه البلاد ؟ »

---

* مجلة الهلال ، أبريل سنة ١٩٣٢ .

الكتابة عن الأمم :

فأجاب : « كلا ، إنني لا أفكر الآن في وضع كتاب عن مصر . وإنما أتيت إلى هذه البلاد بدعوة خاصة من الكلية الفرنسية في الإسكندرية لألقي عدداً من المحاضرات في الأدب ، وانتهزت هذه الفرصة لأزور القاهرة . وأنا لا أستطيع أن أضع كتاباً عن بلد من البلدان مالم أبق به ردحاً من الزمن ، وأتعلم لغته ، وأتحدث إلى عدد وافر من أهله . وعلى هذا الإعتبار أستطيع أن أكتب عن انجلترا والإنجليز لأني أقمت هنالك زمناً وعرفت لغتهم ، كما يمكنني أن أكتب عن الأمريكان .. فإذا أستولى على خاطر الكتابة عن مصر مثلا ، فإن أول شيء أعمله أن أتعلم اللغة العربية . وأن أقيم هنا بضعة أشهر على الأقل . وربما أستطعت تحقيق ذلك في المستقبل . أما الآن فربما أكتب قليلاً من المقالات للصحافة عن مشاهداتي الخاصة في مصر . ولست أومن بهذا الضرب من التأليف الذي يعمم في الأحكام ، ويستنتج النظريات الكبيرة من الحوادث الصغيرة . ولا أومن كثيراً «بالسيكولوجيا » الوطنية ، وإنما أومن « بالسيكولوجيا » الفردية . فأنا إذا ماكتبت عن مصر مثلاً كتبت عنك أنت أو عن صدقي باشا أو عن أي شخص آخر قابلته وتحدثت إليه . وأنت ولاشك تعرف مثل أرسطو المشهور القائل : « إنني أعرف هذا الجواد ــ ولكنني لاأعرف صفة الجوادية » . وعندي أن خير وصف لشعب من الشعوب هو أن تعطي صورة أمينة لما عرفت واختبرت بنفسك . وهذا مالم يتيسر لي على وجه طيب أثناء إقامتي القصيرة هنا »

مقارنة بين الخلق الإنجليزي والخلق الأمريكي :

فقلت : « يسرني بهذه المناسبة أن أعلن اليكم مزيد إعجابي وتقديري لسعة النظر التي اتصفتم بها ، وحسن الإنصاف الذي أملى عليكم ماكتبتموه عن الأمريكان والإنجليز فهذه ميزة نادرة بين الكتاب الأجانب الذين يزورون غير بلادهم : فهم عادة يطلقون لخيالهم العنان في الكتابة عن أخلاق امة من الامم ، ويسمحون لأفكارهم السالفة بالتحكم في أفكارهم وملاحظاتهم . فهل لك أن تحدثني عن الفرق ــ بوجه عام ــ بين الشخصيتين الإنجليزية والأمريكية التي عرفتها حديثاً ودرستها عن كثب ؟ »

فقال : « ليس الفرق بين الخلق الإنجليزي والأمريكي بالواسع المدى والصفات المشتركة بينهما أكثر وأهم من وجوه الإختلاف ونواحي الفروق . ذلك لأن معظم الأمريكان من أصل إنجليزي كما تعلم ، وإن كانت الأجناس الاوربية الاخرى قد خففت من أثر الدم الإنجليزي بينهم وغيرت ــ بعض الشيء ــ من الخلق الإنجليزي الأصيل .

« ويمكنني أن أقول ، أجمالاً ، إن الأمريكان ، لأنهم شعب حديث ــ شغوفون

بالحياة . يستولى عليهم القلق والتطلع . بينما ترى الإنجليزى هادىء الأعصاب متئد الخطى . يستقبل الحياة إستقبال الواثق المطمئن . ولأن الأمريكان أحدث من الإنجليز فى التاريخ فخلقهم لم يتمركز ويتبلور بعد . وأمام الامة الأمريكية – فيما أعتقد – مستقبل مجيد ليس أمام أى أمة اخرى . وأدبهم آخذ فى النماء والنضوج . وأظن أنه بعد مضى فترة من الزمان سيصبح أدبهم من أعظم آداب العالم . وأسرع فأقول إنه ليس معنى ذلك أن ليس للإنجليز أدب رائع . فهم ولاشك لهم الآن ذلك الأدب المجيد . »

فقلت : كنت أقرأ هذه الأيام كتاباً لمؤلف دنماركى عاش فى إنجلترا زمناً ووضع كتاباً مشهوراً عنهم إسمه « الإنجليز هل هم إنسانيون » وفى مقدمة ذلك الكتاب يشير المؤلف الى صمت الإنجليزى وعدم مقدرته على الإفصاح والإبانة .

قال : « إنما هم كذلك لأنهم شعب متأدب محتشم لايحب الثرثرة والمباهاة » .

فقلت : « أذكر أننى قرأت لكم فى أحد أعداد مجلة « الاتلانتيك » الأمريكية منذ بضعة أعوام خطابا لصديق فرنسى يرغب فى زيارة انجلترا . تنصحون لـــه وتحدثونه عن الخلق الإنجليزى . وقد قلتم لذلك الصديق فى مقالكم المذكور فى فكاهة ظاهرة : « إن الإنجليزى يدعوك لأن تزوره فى كوخه الصغير فى القرية الفلانية . فإذا ذهبت وجدت ذلك الكوخ قصراً منيفا . وانك سوف تحب الكتب الإنجليزية أكثر من كل شيء آخر . ولكن إياك أن تتحدث عن حبك لها – الى آخر ماقلت لذلك الصديق من هذا القبيل – فهل ترون فى ذلك إحتشاما وتواضعاً أو هو نفاق وكبرياء ؟ »

فإبتسم وقال ؟ « إننى أذكر ذلك المقال جيدا . والاحتشام « modesty » ربما جاء من فرط الضعف أو فرط القوة والطمأنينة . ومصدر إحتشام الإنجليزى وعدم تحدثه عن ممتلكاته ومعارفه بتأكيد والحاح هو أنه شاعر بقوته ، واثق من نفسه . وأغلب مايكون الرجل الكثير الكلام الكثير التأكيد ضعيفاً غير واثق مما يقول ، فيلجأ إلى الحديث ليوهم نفسه بوجود ماليس له وجود . وعليه فأنا لا أرى فى هذه الصفة أى نفاق أو كبرياء . وإنما أرى فيها إحتشاماً وأدباً وقوة خلق . »

إتجاه الأدب الحديث فى الغرب :

قلت : « هل لى أن أعرف رأيكم فى الإتجاهات الحديثة فى أدب أوربا وأمريكا ؟ »

قال : « هى واحدة . ومصدر ذلك أن أدب أى جيل من الأجيال لابد أن تؤثر فيه المكتشفات والبحوث العلمية لذلك العصر – ويجب أن أسرع فأقرر أننى لا أومن بالمدارس والحركات الأدبية ، وإنما أومن بالكتاب أفراداً لاجماعات أو مدارس خاصة .

فإذا عرفنا هذا أمكننا أن نرجع بأسباب الحركة الأدبية الحديثة في اوربا وأمريكا إلى عاملين إثنين :

« أولهما – بحوث « فرويد » و « أدلر » وأضرابهما من أفذاذ علماء « السيكولوجيا» الحديثة . فقد شجعت هذه المباحث النفسانية جماعة الأدباء وحفزت قواهم وأمدتهم بالقوة اللازمة لأن يصرحوا بما يعتقدون ويكتبوا مايفكرون من غير خشية ولاخوف من لوم . »

« ثانيهما – نظرية النسبية المعروفة للعلامة « أنشتين » . فالحقائق والنظريات لم تعد مطلقة . وأي شيء لم يعد هـــو نفس الشيء . ولكل رأى – فالأشياء تختلف بإختلاف الأفراد. وقد يختلف الشيء الواحد لدى الفرد الواحد باختلاف المكان والزمان .

وأول من استفاد من بحوث « انشتين » في النسبية هو إمام القصة في العصر الحديث بلا مراء أعني – مارسيل بروست – فهذا القصصي لم يصف الحوادث كما هي بالطريقة الزمانية المكانية المألوفة : وإنما حاول أن يدون تيارات التصور والخيالات في وعي أشخاص قصصه. وهو على هذا الإعتبار قصصي في عالم الأحلام والرؤى ! »

قلت : « غير أن بروست – فيما يتضح لى من مطالعته التى لم أقو عليها طويلا – عالم بقتل دنيا أحلامه التى يصورها بكثرة التحليل والإسهاب في الوصف والتوضيح العقلى . وانني أجد كتاب انجلترا المحدثين أمثال «فرجينيا ولف » و « كاترين مانسلفيد » أسهل على الفهم وأخف في القراءة لأنهم يستعملون الإيحاء بدلا من التحليل الممل ».

فأجاب : « كل هؤلاء ولاشك يقتفون أثر « بروست » ويأتمون به . فـ« بروست » هو إمام العصر الحديث في القصة كما كان « بلزاك » إماما للقصة في عصره. وكما كان « فلوبير » زعيم القصة في أواخر القرن التاسع عشر . »

متى تصبح الترجمة عملاً فنياً :

ثم سألت : « ماهى الخواص التى تجعل الترجمة عملاً فنياً وتميزها عن بقية التراجم وكتابة السير العادية ؟ » .

فقال : « يجب أن نعرف العمل الفنى أولاً . فأنت تذكر كلمة « باكون » القائل : «إن الفن هو الإنسان مضافاً إليه الطبيعة » ومعنى ذلك أن الفن هو الطبيعة كما تتضح لذهن فرد من الأفراد .

« والترجمة – على هذا الإعتبار -- تصبح عملاً فنياً حينما تتعدى أن تكون جملة من الحقائق والأفكار . وهي عمل فنى حينما يرتب المؤلف حقائق كتابه ويعرضها –من

غير أن يشوهها — في نظام خاص يبرز به عوامل الشعر في حياة من يترجم لهم، ويشير من طرف خفي الى موضوعات الحياة الرئيسية ! فأنت تذكر « عنصر المـاء » وأهميته في ترجمتي لحياة شلي . وأن يكون المؤلف قد أحس بمثل أحساس بطله . وأن يعطف عليه . وأن يحاول أن يرى وجهة نظره كاملة تامة » .

قلت : « أذكر أنكم عقدتم فصلاً خاصاً في كتابكم « نواحي الترجمة » عنوانه «الترجمة كتعبير ذاتي» ومؤدى ذلك الفصل أن المؤلف يجب أن يأخذ حياة بطله إلى نفسه وأن يعبر عنه بعد أن يرى رأيه ، ويدير هواجسه في وجدانه وأفكاره في مطارح فكره . أفلا ترون أن ذلك النهج حري بأن ينأى بالمؤلف عن محجة الصواب والوقائع . فيضع اشياء وأفكاراً وعواطف لا أصل لها في حياة البطل أو هي لم توجد بذلك القدر وعلى ذلك الوجه ؟ »

قال : « ذلك صحيح . ولكنني لا أعني التعبير عن النفس حرفياً ولا أقول بوضع أشياء لا وجود لها فعلاً في حياة البطل . وإنما أقول بضرورة العطف وتفهم وجهة نظر من نترجم له . »

ثم استأنف حديثه قائلا وقد بدت عليه علائم التفكير واستجماع الذهن :

« ولكي تصبح الترجمة عملاً فنياً يجب على المترجم أن يلاحظ عنصر التناسب في تخطيط كتابه . وأن يجعله من هذه الناحية مفهوماً واضحاً من غير أن يظهر أثر الذهن الذي يوضح ويقوم بعملية التخطيط والتوزيع » .

وكان كلما انتهى من الرد على سؤال إبتسم إبتسامة الطفل ثم قال « next » « بعده » مقلداً المدرسين الإنجليز الذين يستعجلون الطلبة .

مستقبل القصة :

فقلت : « ما رأيكم في مستقبل القصة . وهل ترون أنها آيلة إلى ———— » .

فلم يدعني أتمم جملتي **وقال :** « تريد أن تسأل هل القصة آيلة إلى الإنقراض كما يعتقد بعض صحفيي فرنسا ؟ لا ! وعندي أن هؤلاء الذين يقولون ذلك لايعرفون الطبيعة البشرية . ويمكنني شخصيا أن أرسل إليهم تلغرافاً كما فعل أحد ادباء فرنسا في أخريات القرن التاسع عشر حينما شاع أن المذهب الطبيعي في الوصف القصصي قد مات . فقد أرسل ذلك الأديب يومئذ هـذا التلغـراف « النزعة الطبيعية — naturalism — لم تمت. الإيضاح بالبريد » وعلى هذه الطريقة يمكنني أن أرسل هذا التلغراف « القصة لم تمت . الإيضاح بالبريد » !

ثم قال : « إن رواية القصص ، ووضع الروايات من أهم خصائص الطبيعة البشرية وإذا أمكن الإنسان أن يستغنى عن الخبز الذى يأكله أمكنه بعد ذلك أن يستغنى عن القصة التي يقرأها ، وأنا شخصياً لو خيرت بين الخبز والقصة لاخترت القصة. فهى تشبع عاطفة إنسانية لاسبيل إلى إروائها من غير ذلك السبيل ، زد على ذلك أن القصة قد تطورت —في شكلها الحاضر — حتى أصبحت تشمل كل شيء يمكن أن يفكر فيه أو يشعر به الإنسان ، وهي ولاشك أصح الأدوات الفنية في وقتنا الحاضر .

كيف يؤلف الكتاب :

ثم سألته عن سر الخلق الفنى . وقلت : « إننى أظن أن معظم القصصيين و كتاب المسرح في أوروبا قبل أن يتركوا مكتباتهم ، وهم بعد ذلك يكتبون عن الطبيعة البشرية واختلاف وجوهها ، وألوان الشخصيات ، وتعدد المذاهب الخلقية ، والأفراد والأماكن المتباعدة ، فكيف يتيسر لهم ذلك ؟ وهل هم يستوحون نفوسهم—في ذلك — ويترجمون لعواطفهم وميولهم الخاصة بهم ؟

فأجاب : « كلا ، ويمكننى أن أقول لك أن كل الكتاب يعرفون الحياة أولاً قبل البدء بالكتابة الخالقة. وأنا لم أبدأ أكتب إلا بعد الثلاثين من عمرى ، وقد عشت ولاشك أثناء ذلك وعرفت ألواناً من الحياة وصنوفاً من الناس والشخصيات المختلفة .

« ومن جهة أخرى فأنت قل أن تجد كاتبا يجلس إلى مكتبه طيلة الوقت ، فالكتاب يعيشون مثل كل الناس وإن لم ترهم في الطرقات والشوارع . »

نصيحة إلى ادباء مصر :

وكان آخر سؤال وجهته إليه : « ماهى نصيحتك لمن يحترفون الكتابة في مصر إذا أرادوا أن ينتجوا أدباً يقرأ في الخارج ؟ »

فأجاب : « إن هذا البلد مليء بالمواد الكتابية البكر ، خاصة في ميدان الأدب القصصي ، وليس على الأدباء إلا أن يخرجوا صورة أمينة لمختلف الأهواء والميول ، وتفاعلها مع بعض في هذا البلد الذى ضم خليطاً من الأجناس والعادات والأمزجة . فذلك خير موضوع يصلح للكتابة القصصية ، وقد قرأت بعض مقطوعات شعرية لشاعر مصرى وأعجبت بها كثيراً ، كما قابلت عدداً من الشبان الأذكياء ، وميدان الخلق الأدبي في مصر واضح ، وكل مايطلب منكم هو التصوير الصادق لهذه الحياة التى تعيشون ، ومن حسن الحظ أنها مازالت بكراً لم تتناولها الأيدى بعد بالكتابة والشرح ، وإننى أود لو كنت قصصيا في هذه البلاد ، إذاً لكانت المادة لدى متيسرة وفرص الإحسان والإجادة ليست البعيدة النائية . »

الحب والفن *

ازادورا دنكان

الراقصة العالمية

قرأت أخيراً حياة «ازادورا دنكان» — الراقصة العالمية — مكتوبة بقلمها، فقرأت كتابا فريداً في بابه . طريفاً في نوعه . غريبا بما احتواه ، شجياً في نغمته ونمطه ! . . هو تاريخ حياة فنانة . محبة محبوبة ، قضت حياتها بين العمل للفن وإعلاء شأنه . وبين الإخلاص للحب وفناء النفس فيه . وقد إحتوى هذا الكتاب إعترافات جريئة ، بأسلوب جرىء عن إمرأة تتكلم بكل صراحة . وبكل صدق برىء ، في غير كبرياء أو أنانية ، أو اختيال أو غرور عن قصة حبها . ومجموع ما حصل لها في تاريخ أيامها المليئة بالمجد والنجاح والفشل والبؤس ، وبالسرور والألم . وباليأس والرجاء . وبالأحلام الهائمة وبالحقائق المرة — وهي في كل هذه الحالات بين حالين وعاملين قويين : بين « الحب والفن » . وما الحب وما الفن ؟ إنهما لعنصران لحقيقة واحدة، وإنهما لشيء واحد في ثوبين . وهكذا نرى « ازادورا » فبينما هي في فنها تنكب عليه ، وتعمل من أجله . وتفنى فيه وتبتكر في أنماطه ونواحيه ، إذا بالحب يخطف قلبها . وإذا بها تركن إليه فاقدة لنفسها بين أمواجه ولججه الزاخرة ! . . . وأنت في كل ذلك تستشف وتقرأ روحاً غنية ثرية . غنية بأنواع الشعور ، ثرية بوفرة الحياة وشدة الإحساس . وتوهج العاطفة . وشدة الطموح ، وتألق العبقرية الخالقة . . .

إن هذا الكتاب لأعجب بكثير من إعترافات « روسو » في صراحته التي لايشوبها الإدعاء ، أو يخالطها الغرور ، أو تفسدها الأنانية — وفي أن كاتبته إمرأة ، وقل أن تصدق إمرأة في مسائل حبها ! . . .

ظهر هذا الكتاب « حياتي » بقلم « ازادورا دنكان » عام ١٩٢٨ . فطبع مابين مايو وأغسطس أربع طبعات على غلاء ثمنه، وقرظه الأدباء ، وأثنت عليه الصحافة ثناء كبيراً. والحق أنه لكتاب فذ بين كتب التراجم والإعترافات ، والحق أنه لتحفة فنية باقية . وأثر من آثار البيان الخالدة ، ووثيقة إنسانية شجية قل أن نظفر بمثلها ، فإن هذا الكتاب ليعرض حياة غنية بحبها وفنها . بمثلها وحاضرها . حياة جياشة متعطشة إلى اللانهاية ، ترمقها حيناً في الفن فتبدع ، وتراها حينا آخر في الحب فتفقد نفسها بين أمواجه الزاخرة ! . .

غريبة هي حياة الفنان جد شجية . . هي دمعة باكية . وهي ابتسامة ضاحكة .

---

* السياسة الاسبوعية — العدد ٢١٣ — ٥ ابريل سنة ١٩٣٠ .

ولكنها في كلا الحالين من ابتسام ودموع هي شجية حقاً . هي حياة حائرة أثيرية . لاتستقر على حال ولاترضى بشيء ولاتطمئن إليه. ولاتركن إلى الراحة أو السكون ! وانها لتجد وجودها في هذه الحالة القلقة ، وفي هذا التطلع إلى الشيء الغريب البعيد . . إلى العالم المطلق .

قضت «ازادورا» حياتها نهبا مقسماً بين الحب القوي المتأجج . وبين الفن البديع المبتكر . وكانت ترجع في فنها إلى الفن الأغريقي القديم — الرقص الشعري — تستوحيه وتحاول إحياءه . ولقد أكبت تقرأ كل ماكتب عن الرقص قديماً وحديثاً . وبعد أن قرأت كل هذا لم تجد وحيها هنالك . وانما وجدته في كتاب « اميل » لجان جاك روسو . ووجدته في شعر « ولت وهيتمان » الأمريكي . وفي صرخات « نيتشه » الألماني ولقد كانت تقرأ — وحق لك أن تعجب — « نقد العقل الصرف » لـ « امانويل كانط » فتجد فيه وحياً لفنها . وتقف أمام المرآة نحو ثلاث ساعات وقفة حائر مشدوه . في غير حراك أو ملال . تنتظر الإلهام وتستهبط الوحي . وإذا بالحركة المطلوبة تقفز . والرقصة المشتهاة تجيب ! . . هكذا كانت حياة هذه الراقصة ! . .

هذه قصة إمرأة ولدت راقصة . وقضت كل حياتها راقصة . وكان رقصها رقص الحياة ! . . . ولدت فوجدت أن أمها قد طلقت والدها . فكرهت الزواج ومآسيه . وآلت على نفسها ألا تتزوج طيلة حياتها . ولقد كانت أمها فنانة بطبعها . تقرأ الشعر وتعزف على البيان . وتتذوق الأدب . فنشأت العائلة كلها محبة للفن هائمة به محترفة إياه . فالأخ مصور والأخت راقصة . وللأم — كما قلنا — ولع بالفنون كبير. ولما لم تقدر أمريكا فن «أزادورا» ورقصها، ولم تفقه نيويورك عبقريتها — ولقد كانت في ريعان شبابها — رحلت اسرتها إلى لندن والشيء الطريف في حياة هذه الاسرة هو هذا الحب للفنون الذي بلغ درجة الجنون . فهم لم يطأوا أرض لندن إلا وتراهم قد فقدوا أنفسهم في المتاحف والمكتبات وما إليها . ليس لهم بيت يأوون إليه ولاقوت يسدون به غائلة الجوع !

وبسم الحظ لـ « ازادورا » فتعرف اليها الفنانون والشعراء . وعلا صيتها وذاعت شهرتها ورقصت في البلاط الملكي . ودعاها الملوك والأمراء . وظلت متنقلة بين عواصم اوربا ومدنها فتلاقي الشهرة . وتلاقي التقدير . ويعبدها رجـــالات الفنون والآداب . حتى لقد كان المرضى يأتون الى مسرحها ويتبركون من قداستها ويستشفون من أمراضهم ببركتها . فكأنها القديسة لديهم ! وهي الفاجرة الإباحية عند غيرهم . وكم للأيام من سخرية . وللقدر من تهكم هازئ مرير !

كانت إذا ماحلت بأمة . تعلمت لغتها ودرست آدابها . وقرأت فلاسفتها وكتابها فتعلمت الفرنسية وقرأت « روسو » وأتقنت الألمانية وقرأت « شوبنهور » و « نيتشه » و« كانط » وذهبت إلى اليونان من بعد هذا كله فالتهمت « افلاطون » وحاولت أن تسكن فيها فبنت لها بيتاً في ضواحي أثينا حيث الأرباب والآلهة . حيث « ديونيسيوس » إله الرقص والغناء . . !

إن حياة هذه الراقصة لقصة رائعة تفوق كل القصص : فهي تبتديء وتنتهي وكأنك تشاهد أغرب الدرامات والمآسي ، أو ما هو أبلغ من كل دراما ومأساة ! حياة حرة مطلقة « يتوبية » ترمق المثل الأعلى : وتعمل له وكأنه حقيقة لاخيال ! فتسكن الضواحي من أجل فكرة . وتتهافت على طلبها المسارح الشهيرة : فترفض كل ذلك مفضلة عليه هذا العيش الشعرى الرائع المليء بالفن ، وحلو الذكريات ، والتعطش الالهي ! . . .

وأنا قد قرأت تراجم عدة : وسررت لها وأعجبت بها ، وتأثرت منها : ولكن شعورى بهذه الترجمة هو شعور غريب لا أعرف كيف أكيفه ولا كيف أصفه للقاريء . ولا أذكر أنني أكببت على قراءة كتاب مثل أكبابي على هذا الكتاب ! . . تقرأ بعض صفحاته الأليمة فتبكي وأنت لاتشعر ولاتدري — حينما تفكر — لماذا تبكي لهذه الراقصة الخليعة ، وتظل بعدها تفكر في الحياة والعاطفة والفن وما إليها من أفكار الحياة العميقة . فهذا الوصف الرائع الحزين لموت إبنيها ، وهذه الصورة الباكية المشجية هي وأمها حين ترجع إلى الوطن بعد خمسة وعشرين عاماً ، فترى أمها وترى نفسها على المرآة معا : فتهولها الصورة ، وإذا بامها قد شاخت ،وإذا هي قد كبرت ،فتذكر ثم تتأسى وتتوجع !. أين ذلك الجمال الناضر : وأين تلك الوضاءة الباسمة ، وأين تلك الفتوة ، وأين ذلك الشباب ، بل أين الإشراق وأين القوة ! . . حينما عبرت هي وأمها المحيط لأول مرة طلبا للمجد والشهرة ! . . . كل هذا تصفه لك بلغة ساحرة قوية مؤثرة ، فأنت تقرأ الفقرة فتعيدها مرة وثانية : وتقرأ الصفحة وبودك أن تقرأها ثانية ، وتقرأ الفصل فتشعر بجوع نفسي وشبع فني في نفس الوقت ، وتقرأ الكتاب كله فما تتركه من يدك . بل ترغب في إعادة قراءته من جديد وذلك لعمرى منتهى الإبداع ، إن كان للإبداع منتهى . وغاية الأدب والفن . ان كان للأدب والفن من غاية ! . .

ولقد سألت نفسي مراراً : لماذا يجد القاريء في مثل هذا الكتاب كل هذا الغذاء الروحي ، مع أن الكتاب مملوء بما يسمى خلاعة وشهوة ومجوناً : فعرفت أن ذلك يرجع إلى أن الكاتبة لاتصف لك ما اعتراها من ألم وحزن : وشهوة وحب ،وسرور وفرح فحسب ، وإنما تعرض عليك نفسها كما هي ، وتقف أمامك مخلصة تقول لك « ها أنذى أمامك . لم

أغشك في شيء ولم أخف عنك أمراً ، تقول لك هذا في غير إبتسام متكلف . بل في براءة الطفل وصدق القديس فتنال عطفك ، وتتأسى لها وتفرح معها . وهي إذا ماتكلمت عن فنها شعرت بالنبي يتكلم في ذهول ووجد ونسيان . في طموح وإيمان وألوهية ! . . وهذا في ظني مايعطي الكتاب سحره . ويجعله ذروة من الفن عالية ! . . فالكتاب وثيقة إنسانية صادقة لحياة إمرأة ثرية في عواطفها . مضطرمة بحبها . جياشة طموحة في فنها . منطلقة هائمة في روحها ! . فيرى القارىء نفسه في الكتاب ، نفسه الداخلية لا هذه النفس المتشحة بالتقاليد والطقوس . فيقبل على الكتاب يلتهمه التهاماً . وهو في الحقيقة ينظر إلى نفسه . ويحدق في صورته . وإن كان لايدري ويتذكر عواطفه وما أحسه هو في مختلف حالاته وما أكتشفه من جوانب روحه وطموحه ! . . .

والكتاب يعرض عليك من بعد هذا كله معرضاً أنيقاً لرجالات الفنون ، والأدب في هذا العصر الأخير . فيدهشك أصدقاء هذه الراقصة ومعارفها . أمثال « أرنست هيكل » العالم الطبيعي . و « رودين » الفنان الشهير « ودانزيو » الشاعر الإيطالي ، وخلافهم من الشعراء والفنانين .

ولقد كانت « أزادورا » أغريقية في فنها . ثائرة على هذا الرقص الأرضي الرياضي الذي لاشعر فيه ولاحياة ، فأقبلت على موسيقى « بتهوفن » تترجمها رقصاً موفقاً بديعاً ، وتنقل الحالات النفسية من غضب وسرور وطموح وحب إلى عالم الحركة والأثير ، وكانت ترمى إلى بعث دين جديد يتخذ الرقص شكلاً له . ويبعث إلى معتنقيه معرفة الجمال والقداسة الإلهية ! . ولقد قالت عن فنها « إنه محاولة في أن أوضح كياني الأزلي في قالب اللفتات والحركات » ولقد سئلت عن علاقة الحب بالفن فقالت إنها لاتستطيع أن تفصل بينهما . فالفنان الملهم إنما هو الحب الوحيد في هذا العالم ، هو وحده ذو النظر الصافي في معاني الجمال . وما الحب ؟ . إنه لنظرة الروح إلى الجمال الخالد ! . .

فالفن إنما يرفع صاحبه إلى سماوات غير هذه . ويجعله ينظر بعين غير هذه العين الأرضية إلى الأشياء والأكوان . فيرى الحب ويذوب فيه كما تذوب ألوان قوس قزح بعضها في بعض .

فالحب والفن عنصران لحقيقة واحدة كبرى وطموح نحو مثل واحد أعلى ، حقيقة الوجود وعالم النور وعاطفة الأزل . ونبض الحياة والكون .

ولقد وصف رقصتها « روزفلت » بقوله « إنها بريئة كبراءة طفلة . ترقص على أشعة الشمس في الصبح . وتقطف أزاهير خيالها الجنية ، من حديقة نفسها الجميلة ! »

ووصفها ناقد آخر كما جاء في كتابها بقوله : إنها زلفى محلولة الشعر هاربة من أحضان « ابولون » !

وخير ماتختم به هذا المقال هو هذا الوصف الشعرى البديع الذى وصفها به أحد المحررين الفنانين . والذى نقلته فى كتابها قال :

« إن روح الإنسان لترجع إلى كهوف الماضى السحيق حينما ترقص « ازادورا » ترجع روح الإنسان إلى صبح الحياة ، حيث كانت عظمة الروح معبرة فى جمال الجسد . وحيث كان إيقاع الحركة في إتساق مع إيقاع الصوت ، وحيث كانت حركات الجسم الإنساني واحدة مع الريح والبحر ، وحيث كانت الإيماءة من ذراعها كتفتق الكم من الوردة ، وحيث كانت حرارة الدين والحب والوطنية أو العاطفة معبرة فى الصوت يبعثه الطبل الداوى أو ينفثه المزمار الرقيق . وحيث كان النساء والرجال يرقصون أمام الأحجار النارية . وأمام الآلهة فى وجد وذهول ونسيان . كما كانوا يرقصون بين الغابات والأحراش ، وعلى شواطىء البحار ، فرحاً بالحياة الكامنة فيهم ، فإن كل نازعة قوية أو جميلة من نوازع النفس لتنبعث فى الجسم من الروح ، فى اتساق كامل مع إيقاع الوجود . »

فن التراجم الجديد *

لون ذائع من ألوان الأدب الغربي اليوم .

« الترجمة هي أكتشاف الروح الإنساني. » لدفج

« الترجمة الجيدة قليلة قلة الحياة الجيدة . » كارليل

« التراجم الحديثة هي قصص تطور نفوس بشرية . » موروا

في الأدب الغربي اليوم ألوان من الأدب المجيد ، وأزياء من الفن الرفيع ، وأنماط وقوالب لامعة في التعبير والنهج ، تتطور بين كل حين وآخر . وتتخذ من الأشكال والأساليب ومذاهب التفكير ، وصور « التنفيذ » مايغرى بالإطلاع . ويحبب القراءة ويستهوى القارىء بالمزيد . فإذا هو يقبل على القراءة، ويمعن في الإطلاع ، ويلتهم هذه الألوان الشهية التهام الجائع المريد . وهو كلما ازداد إقبالاً على مثل هذه الألوان . تفنن الكتاب إلى غير حد . وأبرزوا روائع أفكارهم في أزهى الحلل والثياب ، وجاء الطابعون والناشرون فزادوها زينة فوق زينة ، وجمالاً فوق جمال ، وفي مقدمة الألوان الذائعة في أدب اليوم : التراجم التي ذاعت في السنوات الأخيرة ذيوعاً محموداً .

ومن غريب المصادفات أن ينتعش هذا الفن في وقت واحد في ثلاثة أقطار من أوربا الكبرى ، فتنتج انجلترا « لايتون ستراتشي » مصور الملكة فيكتوريا ، وتخرج المانيا « اميل لدفج » مصور «نابليون» و «بسمارك» و«جيته» ، وتنجب فرنسا « أندريه موروا » مصور « شلي » و « دزرائيلي » و « بيرون » ، وغير هؤلاء كثيرون من المعاصرين أمثال «هارولد نيكلسون » في انجلترا . غير أن اولئك الثلاثة هم زعماء هذا النوع من الترجمة . أما مقلدوهم والناسجون على منوالهم فلا يأخذهم الحصر والتعداد .

فأى سر ياترى هذا السر الذي جعل هذه التراجم الحديثة تزاحم القصص وما إليها في الطلب والرواج ؟ ثم لم كل هذا الذيوع والإنتشار والإقبال؟ يعزو «هارولد نيكلسون» الكاتب الإنجليزى في كتابه « تطور الترجمة الإنجليزية » هذه الظاهرة إلى هذا العصر ؛ عصر الشك والقلق النفساني الذي يجتاح العالم اليوم . ويرى أن كل التراجم يقل الإقبال عليها في عصور الإيمان . الوافرة الإطمئنان . المطمئنة إلى الأديان وتعاليمها . الواثقة من الحياة الاخرى ، كما تروج في عصور الشك وتمجيد الإنسان. وهذا رأى مقبول ولاشك له حظه من الإصابة والصدق ، ولاننكر على عصرنا هذا قلة إيمانه وشكه واعتداده بنفسه وإيمانه بمجد الإنسان ، وجلاله وخطره . ولذلك يجد قراء هذا العصر سلوى في التراجم

---

* مجلة الهلال ، ابريل ١٩٣١ .

ومرآة تنعكس عليها أضواؤه وعناصر إنسانيته . ذلك لأن القارىء العصرى مؤمن بهذه الحياة . يود أن يرى نفسه فى تراجم عظماء الإنسانية ، فيتطلع إلى مثلهم العليا ، ويجول معهم في عوالم الفكر والإنشاء ، ويشعر معهم مثل مايشعرون ، فيحس بوقدة الأمل تعمر صدره ، وبصحراء اليأس تحطم نفسه ، ويعلو معهم إلى أعلى القمم ، كما ينزل إلى أضيق السراديب . وهو فى كل ذلك يرى مظاهر القوة ودلائل الضعف ومواطنه . فلا يعيبه أن يكتشف نفسه فى هذه المرآة السحرية التي تطلعه على صورتين في صقال واحد ، او على صورة واحدة ذات أوجه متعددة . ويغلب في الظن أن شغفنا بعلم النفس فى هذا العصر له حظه في رواج هذا الفن الذى يعتمد على « التحليل » النفساني قبل كل شيء فى إعداد صوره .

وسهل على الإنسان أن يعرف لم لاتروج التراجم فى عصور الورع والتقشف الدينى وماحاجة المرء أن يقرأ سير أبناء الحياة الهالكين، ويشغل نفسه بأخبار هاته الحياة الفانية . وما الدنيا : « إنها متاع الغرور » و « باطل الأباطيل » . واذا كان الأمر كذلك أليس الاستعداد للحياة الاخرى أجدر بالناس وأعود عليهم من قراءة السير وما إليها ؟ بلى ولاشك ! أما إبن هذا العصر فهو وإن يكن للمجهول أثر فى حياته لاينكر لكنه يعمل بمقتضى النص الشريف : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » فليقرأ إذن هذه الكتب التى تطلعه على أروع صفحات الحياة يستشف فيها جلال النفس ، وإعتداد الذهن وقوة الإنسان ، وضروب الجهاد الروحي . كل ذلك يشد أزره ، ويقوى عزمه ، ويجعله يستقبل هذه الحياة وقد أصبح أكثر لها صلاحاً ، وبها هياماً ومعرفة .

وبديهى أن التراجم لم تكن يوماً مجهولة ، فقد عرفها القدماء واعتنوا بها ، وكتبوا فيها الشيء الكثير. غير أن نظرتهم إلى الترجمة كعمل فنى تختلف عن نظرتنا فى الأغلب والأعم ، فهم يؤرخون أو يترجمون لرجالهم ليشيدوا بذكرهم ويشيعوهم بالثناء والمدح إلى مقرهم الأخير . وبديهى أيضا أن غرض المترجم الحديث خلاف هذا ، فهو قل أن يعنى بالمدح وما إليه ، وهو لايتغاضى عن سوءات أبطاله ، ولايخفى من مواطن ضعفهم ، ولايهول مما يحسب لهم فى الحسنات ، ولايجعل لأى هوى أو غرض مكاناً من نفسه وفنه سوى غرض التصوير الحق وإحياء الشخوص الميتة نفوساً تتحرك على الورق .

وقليل من أولئك المترجمين القدماء من قرب من هذا المنهج ، وإختط مثل هذا السبيل . وفى طليعة هؤلاء القليل ولاشك ذلك المترجم الإغريقى الفذ « بلوتارك » ، بل ان « لدفج » يرى أن فن بلوتارك أحدث من كل حديث وأن مهمة الكاتب المترجم الحديث أن يتقبله ويقتدى به ، وكل من عرف فن « بلوتارك » لايسعه إلا أن يوافق « لدفج »

على وجه العموم . فإن في إحكام ذلك الإغريقي وفنه ودقة تفاصيله وحيوية صـــوره مايجعله رجل فن محدث ، تام الفن ، مشرق التصوير . وكان « تيودوروس اجازا » من أكابر علماء الأحياء في «عصر النهضة» حين يسأل أى الكتب يحفظ إذا اريد للبقية أن تحرق كان يقول : «بلوتارك» ولاشك ! ولقد قيل عن «نابليون» ذلك الجبار العبقرى أن تراجم "بلوتارك" لاتفارقه ساعة ، يصطحبها معه في ميدان القتال ، ويقرأ ترجمة قيصر قبل ابتداء كل معركة. والذى يقرأ «بلوتارك» يخيل إليه كأنه يعرض مدنية كاملة ، ممثلة فى أنجب أبنائها وأفذاذها. أو لكأن القارىء حينما يقرأ «بلوتارك» فى فهم وعطف يستقبل محفلاً قوياً من الجد والجلال ويستعرض متحفاً رائعاً ، دقيق التصوير ، ألمعى الأداة والتعبير ، فيرى أجسام العظماء ويلمس صدورهم فى غير الحجر والرخام بل يراهم ويلمسهم نابضين بأسباب الحياة ، زاخرين بأسباب الفتوة والبطش .

وإذا ذكرت تراجم الماضي المجيدة فنحن ولاشك ذاكرون « سير الشعراء » للدكتور «جونسون» ، ذلك الدكتاتور الأدبي ، الضخم الجسم. وذاكرون أيضا حياة « سكوت » للأديب «لوكارت» ، وذاكرون فوق هذه وتلك « حياة جونسون » لـ « بوزول » تلك الترجمة التي صارت مضرب المثل في إجادة التصوير ، وإحياء الميتين وتخليدهم حتى أصبحنا إذا أردنا أن نكنى عن الخلود من طريق الكتابة والترجمة قلنا نريد أن « نبزوله — Boswellise » . وليست إجادة سهلة تلك التي يصبح أسم صاحبها كناية عن التخليد ، والذين يعرفون حياة «جونسون» لـ«بوزول» يعرفون فيها تحفة فنية فذة نادرة مهما صرح « ماكولى » وتبعه « كارليل » في تسخيف « بوزول » وأطنبوا في الحديث عن سخفه وخفته. فالشيء الذى يكاد يلمس باليدين ، الشيء الذى نراه ونقرأه ، شاهد عدل على قدرة «بوزول» وتضلعه. فإن تلك الترجمة وما تضمنته من التحليل الرائع ، والملاحظة الدقيقة ، والفكاهة الحلوة ، والأحاديث العذبة والنكات المستملحة يجعلها جديرة حقاً بالخلود ، والخلود جديراً بها .

هذا وقد كانت التراجم القديمة فى جملتها تقع فى المجلدات الضخمة مكتظة بالتواريخ والأسانيد والأرقام ، وكان لذلك لايقبل على قراءتها غير المشتغلين بها أو من كان جلداً صبوراً على المكاره والصعاب . ولايزال إلى الآن أناس يطلبون من التراجم أن تكون مادة جافة ميتة لاينقصها غير الكفن والدفن ، فيطلبون من التراجم تلك الحقائق التى ترى بالعيون ، وتلمس بالأيدى . وليس هنالك حقيقة يجب ان تقال سوى ماتعرضه الإحصاءات وتطلعنا عليه المستندات والأرقام ، وتشمه الأنوف وتسمعه الآذان . أما درس مايسمى بالعواطف وتحليل الدوافع ، والسبح مع نبضات القلب والغوص وراء

بدوات النفوس ، وتصوير الأزمات النفسانية ، وعرض لفتات الذهن . فليست كل هذه بكبيرة خطر عند هؤلاء العلماء الأجلاء، وطالبي الأرقام والمستندات من أساتذة الجامعات . ومن لف لفهم ، ونحن ولاشك لغير هؤلاء وفي غير هذا الضرب من التراجم نود الكلام فنقول :

يفرق « أميل لدفيج » في مقدمة كتابه « العبقرية والشخصية » بين المترجم العالم والمترجم المصور الفنان . والأول يعني بالحقائق المادية كما فصلنا ، والثاني يعنى بالشخصية عناية المصور بالوجوه ، والموسيقي بالنغم . فبعد أن يجمع المترجم كل ماكتبه بطله وما كتب عنه يروح يرتب تلك المواد بعد أن يختار منها الحوادث الدالة بما أوتي من بصيرة نافذة وملكة فنية . فهو ربما يختار بهذا المعنى من الحوادث والتفاصيل مالايأبه له المترجم العالم ولايعيره كبير إهتمام . غير أن المترجم الفنان قد يرى الدلالة في هاته الصغائر مما لايراه في أكبر الحوادث وأضخمها . فهنا سليقة الفنان العارف تعمل عملها ، ولقد كان الدكتور « جونسون » يقول في هذا المعنى : « إن حديثاً قصيراً مع خادم من تود الترجمة له ربما كان أجدى وأعود من كتاب يبدأ بتاريخ حياة البطل وينتهي بتاريخ وفاته » ! وهذا ولاشك قول صواب .

يقترب المترجم الحديث من عمله ، ومنتهى كده وفنه إبراز الصورة بكل مافيها من ضعف وقوة ، فيستعين بكتب بطله وكل ماكتب عنه . كما أنه يضع في المحل الأول خطاباته الخاصة ورسائله ومذكراته حيث النفس هنالك على سجيتها . ثم يحاول تكوين الصورة الأولية لبطله . وهو لايشترط في كل عمله هذا طريقة خاصة ، بل يرتب المواد ويحذف منها ما لايراه عظيم الخطر . كما يؤكد نواحي صغيرة تدل دلالتها الكبيرة في إحياء الصورة . ولذلك نرى التراجم الحديثة تعني أشد ماتعني بالتفاصيل والدقائق فتصف لنا صوت البطل هل كان عالياً جهورياً ، أو كان خافتاً ناعماً ، أو كان أجشاً خشناً ، أو لم يكن هذا ولاذاك ولكنه كان مزاجاً من الرقة والعنف ، والهمس والدوى . ثم كيف كان حديثه . هل كان قوي الحجة ، رائع البرهان . أو كان براق العبارة ساطع الكلم ، أو كان سكوتاً صامتاً لايتكلم إلا بمقدار ولايتحدث إلا في أشياء خاصة ، وكيف كانت سيماء وجهه حين يغضب وحدقة عينه حين يتكلم ، وإهتزاز جسمه حين يمشي ، وأضراب هذه الأشياء التي تدل على الروح وتشف عن الشخصية .

كما أن من أخص خواص الترجمة الحديثة أنها لاتحكم ولاتجامل ، ولاتحدثك ان هذا الخلق محمود جميل ، وأن ذاك مذموم شين ، وإنما قصاراها أن « تعرض » لا أن « تجزم » ، وهي لاتهتم بعصر البطل إلا بقدر صغير يعين على فهمه ، فهي من هذه الناحية

أقرب إلى القصص منها إلى التواريخ المعهودة ، وهي مستند إنساني يعرض صحيفة حياة « إنسان » لا آلهة ، ولهذا الغرض كان لزاماً على المترجم الحديث أن يألف شخصية بطله ويعاطفها ويعطيها من نفسه بقـــدر ماتعطيه من نفسها . وهذا مافعله « موروا » المترجم الفرنسي بنوع خاص ، فإنه يقول إنه لم يختر حياة « شلي » ولا « دزرائيلي » إلا لأنه قد ألفهما وأحبهما من الصغر ، ولما بينه وبينهما من وشائج القربى في الخلق والمزاج . فأقبل يترجم لهما وكأنما هو يترجم لنفسه ، ذلك لأنه قد شعر بمثل ذلك الشعور الرومانتيكي الذي شعر به « شلي » ، وأحس بمثل ذلك الصراع النفسي الذي أحس به « دزرائيلي » . وربما كان لهذا السبب عينه يعزى نجاح « موروا » الهائل سواء في فرنسا أو في أمريكا وانجلترا . لأن « موروا » لايشعر بالغرابة في حضرة «شلي » أو « دزرائيلي » لما بينهما من الالفة الروحية ، ومواقع التشابه . وكلما كانت هـــذه الالفة وهذا العطف بين المترجم والبطل أشد وأقوى جاءت الترجمة أصح وأملأ .

فالقارىء ربما يعجب حينما يرى « موروا » مثلا يتتبع شغف « شلي » بالماء ، و «دزرائلي» بالأزهار ، ويستخلص من مثل هذا الشغف نوعاً من المأساة المسرحية . فهو يحكي لك كيف أن « شلي » نظم أروع أشعاره بالقرب من الأنهار . وكيف أن غرامياته قد تمت في الماء ، وكيف أنه في الماء أسلم آخر أنفاس حياته ، يصور لك كل ذلك في جو الفجيعة الشعرية ، والمأساة البالغة ، والتحليل النفساني الدقيق . فتجتمع في ذهن القارىء إلى إمتاع الملاحظة هزة شعرية حزينة !

وخصلة أخرى في التراجم الحديثة هي أنها لاتقترب من الإنسان وكأنه خير كله أو شر كله ، وإنما الشر والخير ، أو مايسمى كذلك كله قريب من قريب . وان النفس البشرية من حيث التركيب وتشعب الأطراف ، وتعدد الإتجاهات لاتسمح بالجزم بالخير خالصاً أو الشر خالصاً ، وهذا الفهم النفساني العميق قد صار معروفاً في الفن الكتابي عقب قصص «دستويفسكي » الروسي . كما أن لـ« مارسيل بروست » أثراً أيضا في هذا النحو التحليلي . والتراجم الحديثة من هذه الناحية لها عدم تحيز العلم وقلة محاباته ، من غير أن يكون لها جفافه وجموده ، كما أن لها لذة القصص النفساني من غير أن تعتبر قصصا لها إمتاعها وفيها لذتهـــا ، وكل الفرق بين المترجم والقصصي ، أن الثاني يعمل خياله في توليد الشخوص وخلقهم ثم يترجم لهم . ولكن المترجم لايعمل خياله في خلق الشخصيات وإنما عنده الشخوص وهي من عمل الخالق الأكبر ، موهوبة بحياتها الخاصة وسيرها وحظوظ أيامها . وعمل المترجم المجيد يتلخص في إحياء تلك الخلائق مرة أخرى على الطرس في كل إشراقها وتركيبها ووضاءتها كما كانت في هذه الحياة الدنيا

تعيش وتسعى . فهو يحتاج إلى الخيال بقدر ما يعينه على هذا القدر فقط .

وخصلة أخرى في التراجم الحديثة هي أنها تقرب من التصميم الدراماتيكي ؛ بل هي في واقع الامر « دراما » ولكنها لاتمثل على المسرح . وهنالك بعض من هؤلاء المترجمين يقسم تراجمه إلى ثلاثة فصول كما يفعل « لدفج » أحيانا . أولها — النشأة والفتوة . ثم المجد والقلق ثم الإنحلال والتدهور . والواقع أن « لدفج » ابتدأ حياته الأدبية كاتبا مسرحيا . فقد كتب قصة مسرحية عن « نابليون » مثلت على المسارح الألمانية قبل ترجمته المشهورة عن « نابليون » بنحو عشرين سنة .

فالتراجم الحديثة إذاً لها أسرار الدراما وقوتها ، ولذة القصص وإمتاعه . ودقة التحليل النفساني وجلاله ، وكل مايتبع العمل الفنى من إشراق وظلال وأصوات وإيقاع وحركة وألوان .

ومن أغرب الأشياء التى نلاحظها على التراجم الحديثة أنها عالمية الوضع والقراءة . لاوطن لها سوى وطن الإحسان والإجادة . فنحن نجد « ستراتشى » الإنجليزى يترجم لـ« فولتير » و « روسو » من الفرنسيين . ونجد « موروا » الفرنسى يترجم لـ« شلى » و« بيرون » و « دزرائيلى » من رجالات الإنجليز . و« لدفج » الألماني يترجم لـ«نابليون » و « بلزاك » الفرنسيين ، كما يترجم لـ«لينين » الروسى ، و«ولسون» الأمريكى . ونجد « جامليل برادفورد » الأمريكي يترجم لـ« لام» و « كيتس » من أدباء الإنجليز ، و «فلوبير» من أدباء الفرنسيين . كما نجد «هارولد لام» الامريكي يقفز الى الشرق فيترجم لـ«تيمورلنك» و« جنكيز خان » واضرابهما . ونجد أن كتب « لدفج » تقرأ في الإنجليزية أكثر منها فى الألمانية . وكتب «ستراتشى» لها من القراء في فرنسا مثل مالها فى انجلترا ، اما « موروا » الفرنسى فقد أصبح مؤلفاً إنجليزياً ، ولايسع محب الآداب إلا أن يصفق لهاته الظاهرة الطيبة التى تبشر بفاتحة عصر ذهبى فى الأدب العالمى . وأهمية الثقافة والفن .

وربما كانت هذه الصفة — صفة العالمية — معيناً لهؤلاء الكتاب على التجرد من الأغراض والأهواء ، واستقبال العمل الفنى فى غير تحيز ولامحاباة . وهكذا تخرج أعمالهم ناصعة من غير طلاء ولا دهان ! سوى طلاء الفن ودهان التصوير .

بقيت مسألة دقيقة لابد أن نعرض لها فى مثل هذا البحث وهى : هل يستطيع المترجم العصرى أن يجمع بين صحة العلم الصحيح . وجمال القالب الفنى ؟ هل هنالك نزاع بين روعة الفن . وصلابة الحق ، أم أن الأثنين متفقان ؟ نجد « ستراتشى » و«لدفج » و « موروا » يقولون ألا نزاع هناك . غير أن « هارولد نيكلسون » يقول إن ذلك مما

يصحب أمره ولايتيسر . وتوافق «نيكلسون» في جملة أعمق من تعبيره «فرجينيا وولف» الكاتبة الإنجليزية حين تقرر : « إن الشخصية كقوس قزح في تلونها وتعدد وجهاتها . وإن الحق صلب متين متانة حجر الصوان . فأى سبيل إلى تزاوج هذين العنصرين المتنافرين؟» السبيل عندنا هو محـــك قدرة الفنان . فإذا قال لنا قائل كما تقول الكاتبة الفاضلة قلنا إن نحاتي الإغريق قد تمكنوا في براعة ولباقة من إظهار الحركة الدافقة في الحجر الصامد الجامد ! ألا يستطيع المترجم الحديث ماهو أسهل من ذلك ؟ ويصيب « موروا » حين يلاحظ ألا نزاع قط بين صلابة الحق ورقة الفن — أو على الأصح بين العلم والفن بوجه عام فيقول : «إن الكتاب العلمي الجيد التنفيذ هو ولاشك عمل فني زيادة على أنه علم . وان الصورة الجيدة هي عمل علمي صحيح زيادة على أنها فن جميل . وإذا كانت الشخصية لها تعدد ألوان قوس قزح ، وأن الحق جامد صلد ، فإن « رودين » النحات الفرنسي قد إستطاع أن يجلي في الرخام الصلد أخاديد الروح وإيماءات النفس المتعددة . وإستطاع أن يظهر اهتزازات ظل اللحم البشرى في ذلك الحجر اليابس . وهـــذا ولاشك رد صائب حق .

ويقول « لدفج » في مقدمة كتابه عن العبقرية والشخصية : « إن المترجم الفنان يختار مواده من غير أن يغير الحقائق والوقائع التاريخية ، ثم يعرض ذلك عرضاً يتفق وفهمه لتلك الشخصية » وهو لهذا الغرض يرى أنه لايمكن أن تكون الترجمة كاملة إذا لم يمت ذلك الشخص ، وإذا لم تكن لنا منه صورة فوتوغرافية أو زيتية . ذلك لأنه يعتقد أن ملامح الوجه وسمات الأعضاء وحركة العين وكل هذه لها دلالتها الكبيرة في إيضاح الخلق الذي يعنيه أكثر من العبقرية ، ويرى أن هاته الثانية نتيجة الخلق والشخصية . وهذه أيضاً ناحية من نواحي التراجم الحديثة فهي لاتعنى بالعبقرية والتقدير قدر عنايتها بالخلق والشخصية . والمترجم الحديث بهذا المعنى مكتشف للروح ، مترجم للقلب . دون أن يعبأ بالأعمال والأحكام .

« وبلوتارك » أحدث المترجمين . كما يحلو لـ « لدفج » تسميته . فهو يشرح طريقته ويقول : « إنني أقيد المظاهر لا التواريخ . وعندى أن دلائل الرذيلة والفضيلة ليست مقصورة على جلائل الأعمال ، فكثيراً ماتكون حادثة تافهة أو نكتة أو كلمة أدل على إيضاح الرجل وتشخيص الخلق من جميع الحروب وما إليها . إن المصور باختياره لدقيق الملامح والتفاصيل يرمى لأن يحكى من الشبه الخارجي روح الرجل ونفسيته ، وذلك هو شأني أيضا وعلى هذا فليسمح لى القارىء أن أطيل النظرة في تلك الملامح ذات العلاقة الوثيقة بمكنونات الروح والنفس ، وذلك لأنني بعملي هذا لأنفث في صور تراجمي روحاً

وكياناً خاصاً تاركاً لغيري الكتابة عن الحروب والفتوحات » ولقد أصاب ذلك الإغريقي الحكيم .

هذه النظرة التي أجاد « بلوتارك » قبل آلاف السنين التعبير عنها هي ما يشغل المترجم الحديث ، ولو أن « بلوتارك » لم ينفذ كل ذلك تنفيذ « ستراتشي » و « موروا » و « لدفج » .
ويقول « موروا » واصفاً فن « ستراتشي » : ليست لـ « ستراتشي » طريقة واحدة مخطوطة يمشي عليها في فنه . فهو يعرض فيجيد العرض . ويمشي وراء شخوصه من غير أن يظهر . مظهراً إيماءاتهم وغريب أحاديثهم في لمسات محكمة دقيقة ؛ وانه ليعلو أحياناً إلى جو شعري صحيح كما نرى في نهاية حياة الملكة « فيكتوريا » ونسمع تلك الموسيقى الهامسة والشعر المملوء بالشجو والأسى » . وعندي أن « موروا » يمتاز بتأكيده لناحية التحليل النفساني وإظهار القلب الموزع والميول المقسمة ، وبالمنطق أيضا فهو من هذه الناحية لاتيني صميم ولو أنه ليست له تلك التؤدة والإقتصاد في الكلم والرزانة — الأشياء التي يستنشقها القارىء في فن «ستراتشي» وتراجمه .

هذه هي بعض خصائص التراجم الحديثة وهي سر ذيوعها . والعصر الحديث يقبل على التراجم وقراءتها لأنه يقبل على الحياة ويحب « الإنسان » وفي هذه التراجم يرى صوراً قوية من الحياة التي عرفها وآمن بها فيتضاعف إحساسه بالحياة كما أنه يجد فيها مادة صالحة للتفكير ، ومثالاً طيباً للاحتذاء ، وقد يجد فيها مادة للشجو والأسى ، ومادة أخرى للعبرة والذكرى .

شاعرة الرقص *

صورة من حيـــاة « آنا بافلوفـــا »

— ١ —

في ليلة من ليالي الشتاء القارص في أواخر شهر يناير عام ١٩٣١ عم مدينة « لاهاي » جزع عميق صامت، وسكون واله حزين . ولبست المدينة أثواب الحداد والأسى . وأظلمت الأنوار . ومشى كل فرد يحدث أخاه في صمت وسكون « أماتت بافلوفا حقا؟ » نعم ماتت بعد أن جاءت لتحيي بعض الليالي برقصها المونق البديع .

— ٢ —

كانت في الثامنة من عمرها حينما شهدت لأول مرة رواية « الجمال النائم » في مسرح « بطرسبرج » ولأول نظرة هامت بهذا الفن الوليد وأحبت المسرح . وبعد عامين من ذلك التاريخ دخلت مدرسة الرقص ، وظهرت لأول مرة أمام الجمهور وهي لم تبلغ الرابعة عشر في رواية مدرسية، فلفتت النظارة إليها، وحازت الرضاء والقبول . وابتدأت رشاقة الحركة تظهر في خفة رقصها وإيماءتها المعبرة ، وكتب لها أول فصل من فصول مجدها في تاريخ الرقص . وسارت تدرج من مجد إلى مجد ومن نجاح إلى آخر وهي لم تترك روسيا بعد . فلما كمل فنها وبلغ غايته صارت تسمى بين العالمين بشاعرة الرقص، وقال عنها ناقد خبير :

« ليس شك أنها أعظم راقصات العالم طرآ . فمن يوم أن بلغت الثامنة من عمرها ثم دخلت المدرسة توجت مليكة على الرقص من غير منازع ولا مدافع . وفي يديها ولاشك قد إكتمل فن « الباليه الروسي » . فإذا ما عرض لها الناقد بالتحليل والتفصيل كان لزاماً عليه أن يقارنها بما أخرجت هي من تحف وبراعات إذ ليس هنالك من سبيل إلى مقارنتها بفنان آخر » .

— ٣ —

تركت « بافلوفا » — وفنها لم يكتمل بعد — المسرح القيصري لتلتحق بفرقة « دياكليف » ولتعطي « الباليه الروسي » مسحة الكمال ، وتعلو به إلى فردوس الفن الصحيح . لم تلبث كثيراً مع « دياكليف » لأنها لم تستطع التوفيق بين عبقريتها الخالقة وفرديتها الجامحة وبين تعاليم « دياكليف » وقواعده . فتركته غير نادمة إلى لندن .

---

* جريدة مصر – العدد ١٠٢٩٥ – ١٨ أكتوبر ١٩٣١ م .

ذهبت إلى هناك وهي واثقة بنفسها معتدة بذاتها . كبيرة الأمل في فنها . متحمسة جياشة العاطفة . وقابلت أحد أصحاب المسارح هناك وعرضت عليه طلبها وأنها تريد أن ترقص « الباليه الروسي » لكن صاحب المسرح كان يجهل « بافلوفا » ولايهتم كثيراً بالفن الروسي فأجابها : « إنني لا أستطيع مثل هذه المخاطرة قبل أن تعرضي على رقصك في جلسة خاصة » .

شعرت « بافلوفا » أن ذلك الجواب جاف . جائر . مهين لكبريائها ورسالتها الفنية . وإذاً فهي غير معروفة . «والباليه الروسي» إسم لغير مسمى . بالهول الخبر — وإذا الصدمة قاسية عنيفة . وإذا بها في غرفتها تبكي وتنتحب بعد أن خامرها اليأس من حسن ظن العالم . « بافلوفا » التي أحبت فنها . وأخلصت له . وأبدعت فيه . وابتكرت الأنماط والألوان غير معروفة . وهي تلك الراقصة المشتاقة كل الإشتياق أن تبلغ العالم رسالتها وأن تسعد بتلك الرسالة وتسعد ملايين الأرواح والنفوس . غير معترف بها في العالم . وفنها غير مقدر غير معروف .

إتصل بها فيما بعد صديقها الفنان « ادولف بولم » ووعدها خيراً بأنه سوف يعرضها ويعرض فنها للعالم الغربي في العام المقبل — وإذا « بافلوفا » تظهر لأول مرة على المسرح خارج روسيا في فرقة مكتملة العدة . تامة الأهبة . وكان ذلك في عام ١٩٠٨ .

— ٤ —

ثم ابتدأت بأول رحلاتها وزارت مدناً عدة مثل إستوكهلم وكوبنهاجن وبرلين . فكانت تلاقي النجاح وتلاقي المجد الذي كانت تصبو إليه والزهر ينثر تحت قدميها — ودعاها المليك في إستوكهلم إلى حفلة راقصة فنالها منه الإعجاب والحظوة والهدايا . وسكنت نفسها قليلاً إذ أن في العالم تقديراً .

ولما إلتمعت في سماء الرقص الأوربي . وعرفها العالم الأمريكي . تمخض العالم عن نهضة جديدة في عالم الرقص . فأذكت الشعلة المقدسة . وكان الشبان يتدافعون لرؤيتها أينما حلت . فإذا فرغوا من تلك الرؤية وذلك المشهد رجع كل إلى بيته زاخر الفكر والوجدان بـ« بافلوفا » : هذه الساحرة الخرافية — وحاول كل منهم أن يحكي إيماءاتها ويقلد حركاتها — وإذا موجة قوية من الرقص تغمر العالم وتسري في جسمه كالكهرباء وبذلك أحيت رقص الوجود !

ولقد كانت تقول « إن أمواج البحر هي أستاذي الأكبر » وكانت تعجب بـ« شوبان » بين كل الموسيقيين . لمعاني الشعر والحزن والحركة الأليمة التي تبدو في مقطوعاته .

فليس عجيباً بعد ذلك أن يقول عنها ناقد عارف : «إن دخول «بافلوفا» ومشيتها في غرفتها آتى بكثير من رقصات عدة» .

ولقد كان أشد ماياخـــذ بنفسها ويستولى على حسها وفكرها فى تلك الرحلات آيات الشعر والجمال . فأعجبت فى اليابان بحدائقها . وفى الصين جمعت ألواناً من روائعها . وفى الهند أحضرت الجواهر الثمينة وخلافها مما يشاهده الزائر لبيتها القائم فى ضواحى لندن .

فلما آبت من إحدى رحلاتها إلى روسيا، استدعاها القيصر فيما بين الفصول، وبعد أن حياها وأشاد بفنها . قال لها مازحاً : « أخشى أن تسحرك تلك الأقطار الأوربية وتأخذك منـــا » .

وحصل ما تنبأ به القيصر — فلقد قامت الثورة، ولم تستطع «بافلوفا» بعد ذلك الأوبة إلى روسيا . ومن جهة أخرى كان شغفها بالأقطار النائية والبلدان البعيـــدة جامحاً وعظيماً . وقامت برحلات عدة . وطافت بأعظم مدن أوربا، وأمريكا، وإفريقيا، وأستراليا، وزيلنده الجديدة، والهند، والصين، واليابان، إلى آخر الممالك والأقطار . وكان النقد الفنى فى كل تلك المدن والبقاع لساناً واحداً : إنها أروع ماشهد فن الرقص .

— ٥ —

بساطة الفنان العظيم كانت تتمثل فى حياتها . فكانت إذا فرغت من عملها ذهبت وبعض الصحاب لتسبح . ومن غريب المتناقضات أن تلك الراقصة الماهرة لم تكن تجيد السبح وكان زوجها كلما سبحت أو حاولت الغوص يكون على أحر من الجمر .

وكانت أحياناً تذهب إلى مونت كارلو إذ أن لها غراماً كبيراً بالمقامرة لا لأنها تحب المال . فلقد كانت تصرف من غير حساب . ولكن لأن فى الميسر — بعد تلك المجهودات العنيفة — لذة وراحة . وكانت تربح دائماً وقل أن تخسر .

وفى بعض الأحايين كانت تذهب مع بعض أصحابها لتناول الطعام فى مطعم متواضع ولتنعم بتلك الخلوة وعدم الكلفة ، ثم تبدأ بسرد غريب القصص والنوادر التى صادفتها فى رحلاتها الشاملة . إذ أن «بافلوفا» كانت محدثة نابهة .

فإذا ذهبت إلى المسرح ذهبت متنكرة لئلا تزعجها نظرات الجماهير . وتنغص عليها هناءتها ثمن الشهرة والمجد! وتحكى فى هذا الصدد قصة وقعت لها فى كندا، إذ ذهبت فى إحدى الليالى لتناول طعام العشاء فى فندق بسيط وكانت مرتدية لباسها العادى

مما لايكاد يميزها عن أى إمرأة أخرى . فما كادت تطأ عتبة المطعم حتى عرفها الناس والتفوا حولها ، وقام لها أحدهم من مكانه لأن الأمكنة كانت ملأى فقبلت استحياءاً وشكراً وإذا كل الجلوس يقفون إكراماً لها وتحية ، وقام أحد الحضور يلقى خطبة فى مدحها والثناء عليها . وبعد أن فرغ من خطبته إقترح على الحاضرين شرب نخبها . وإذ هى بين كل تلك المظاهر المفاجئة حيرى لاتحير نطقاً ولاجواباً .

— ٦ —

عاشت « بافلوفا » لفنها طيلة الحياة — وكانت تتجنب الولادة وأعباء الأمومة ومتاعب الحمل خوفاً على فنها أن يناله من تلك الأشياء منال لا توده . وكثيراً ماظهرت على المسرح وهى مريضة عليلة ، غير أنها كانت حريصة على خدمة فنها والفناء فى سبيله وفى أن تؤدى تلك الرسالة التى حملتها إياها الآلهة . وهى بتلك الرسالة جد جديرة .

ولقد كانت ترقص فى ليالى الخريف والمطر ينهمر غير خائفة لما سوف يصيبها من برد أو أذى . كما أنها كانت تخصص كثيراً من دخل حفلاتها لهـــذا المعهد ولأولئك الطلبة البائسين ، أو لخير الأدباء المعوزين . ولقد أسست معهداً للبنات فى « سانت كلود » عدا مدرسة الرقص التى قامت بجميع نفقاتها . وكانت ترسل بين الحين والآخر مندوبات من عندها ليأخذن بأيادى الراقصات الروسيات بعد أن منعت الحكومة السوفيتية إعانتها لهن زاعمة أن « بافلوفا » « فنانة برجوازية » .

ولم يكن حبها وعطفها مقصوراً على النساء الراقصات . كلا . ولاعلى الإنسان وحده . ولكنها كانت تغمر كل الخلائق والموجودات بعطفها وحنوها . وكان لها غرام بالكلاب والقطط والطيور . كما أنها تجد الأنس والسعادة فى حضرة الحيوان الأعجم . أما غرامها بالزهر وهيامها بالورود فقصة معروفة مشهورة . فلقد غرست بنفسها فى حديقة دارها مايربو على ثمانية آلاف صنف من أصناف الورود والأزهار وكانت تتعهد ذلك الزهر بعين الشاعر الكبير القلب . الواسع العطف .

— ٧ —

وأقامت لها بيتاً أنيقاً فى ضاحية من ضواحى لندن تلجأ إليه فى ساعات فراغها وفيما بين رحلاتها ، فتسكن إلى إغفاءة هادئة . وأثثت ذلك البيت بخير ما تؤثث به البيوت وتزان ؛ ففى البيت بحيرة خاصة يعوم فيها الأوز الصافى البياض ، وكانت كل تلك الظلال تنعكس على وجه تلك البحيرة . ظل البيت وطوبه الأحمر القانى . وظل الأزهار المختلفة وظل الأوز فى البحيرة . وتنسكب كل تلك الظلال شعراً ورقصاً يسهل معه على روح «بافلوفا»

فى ساعات خلوتها وراحتها أن تبتكر الرقصات المبدعات. وأن تخلق الحركة المعبرة. وأن تحيل رقص الوجود إلى عالم المسرح فى قالب الحركة واللفتة .

فإذا فكرت فى رقصة أرهفت أذنها لصوت الليل كما يرهف الشاعر الحالم . ثم أحالت ذلك الصوت وذلك الشعور إلى فن راقص . يأخذ بسمع العالم وبصره وهو أشد مايكون شكراً وثناء أن سحر ذلك السحر الذى أنساه نفسه .

وفى مثل هذه اللحظات ابتكرت رقصة الأوز المحتضر — أعظم روائعها الخالدة — فلقد جمعت تلك الرقصة عمقاً وفكراً إلى جانب خيالها العارم وعاطفتها الصادقة ؛ وهى تمثيل للموت الهادىء الذى لايمازجه صوت . ولايشوه معالمه خوف أو حركة ؛ ولو أنه فى قالب الحركة واللفتة .

ويوم أن وقفت فى ليلة من ليالى الشتاء المقمرة بالقرب من « تاج محل » فى الهند وكان أريج الياسمين والفل يعطر الهواء،وتهمس أنفاس النسائم الحالمة، والقبرة تغنى أغنية الشوق والرغبة المكبوحة . والكل مغمور بالنور كأن ليس هنالك مادة تحس — وقفت «بافلوفا» مأخوذة مسحورة وسط ذلك المشهد الصامت كأنها البسمة الحالمة على شفتى « المادونا » أو الهدوء المتكلم فى صورة « الموناليزا » عرفت أن ذلك الحلم لن يدوم فراود الدمع جفونها من غير أن تعرف لذلك سبباً ظاهراً . وفى رفق ولين مسحت خدها، أهو دمع الغبطة أم دمع الحزن والحنين ؟ وأمسكت بذراع صديقها الذى كان معها قائلة « يغلب فى ظنى أننا لن نرى مثل هذا الجمال مرة أخرى فى هذه الحياة » وقد كان !

— ٨ —

وفى بداءة عام ١٩٣١ قضت ثلاثة أسابيع فى « كان » ثم عادت إلى باريس لتقضى أسبوعا آخر، ثم قفلت راجعة إلى « لاهاى » . وفى طريقها أصابها برد خفيف — وإذا البرد الخفيف يوصلها مريضة عليلة . فاستدعى الطبيب . وقرر لساعته أن بها التهاب الرئة فى الجانب الأيسر . ثم دعى أطباء آخرون فأيدوا كلهم ماقرره صاحبهم الأول . وصارت تتنفس بصعوبة ظاهرة، واستدعى عند ذاك الدكتور «سالفسكى» من باريس طبيبها الذى أحبته وأخلص لها هو الحب والإعجاب .

لكن مجهودات الأطباء كانت تذهب أدراج الرياح . وأخذت ضربات القلب تضطرب ، وظل وعيها يزايلها شيئاً فشيئا ، فلما انتصف الليل أدارت يدها فى حركة خفيفة لترسم صورة الصليب على صدرها، ثم همست فى أذن خادمتها قائلة : «جهزى لى ثوب الأوز المحتضر» وأسلمت أنفاسها الأخيرة .

صور وأقاصيص سودانية

مقدمة

إلى القارىء الكريم :

أرمي في كتابة هذه الصور والأقاصيص السودانية إلى درس « الشخصيات » درساً «بسيكولوجيا » — درساً يعني بالنتائج والأسباب ، كما يعنى بالدوافع والأزمات ، فلربما أعرض الصورة من الحياة أو الشخصية أو القصة فلا يرى فيها القارىء ما اعتاده من عقد ومفاجآت وحوادث غريبة ، وما إليها من ألوان الحيل القصصية . ذلك لأنني أعتقد أن هذا مذهب خاطىء قد شاخ وتلاشت معالمه من الفن القصصي المجيد ! فالحياة ولاشك لاتحصل دائما أو كثيراً فى مثل هذه العقد والمفاجآت التى يأتي بها هؤلاء الكتاب . وعندى أنه حسب الفنان المجيد أن يعرض جزءاً عمودياً أو أفقياً من الحياة مع التحليل الفنى اللازم وعمل الخيال الناضج الموزون والدرس « البسيكولوجى » المتسق فى الطبائع والنفوس . فإذا كانت وجهة القارىء كما وصفنا فليقرأ هذه القصص وإنا زعيمون له أن يقرأ شيئاً طريفاً لم تعهده الآداب العربية بعد . أما إذا كانت وجهته التسلية الفارغة وتزجية الفراغ فخير له ألا يزعج نفسه بهذه القصص ، فإن قراءتها فحسب لاتكفى لفهمها ، وإنما التفكير فيها بعد القراءة هو الضمان الوحيد لفهمها وتقديرها وفهم المعاني والأشياء التى أعنيها .

وكلمة أخرى في إسم هذه الأقاصيص ، فهى ليست بسودانية فى معنى الكلمة المحدود الضيق ، فهى وإن كانت حقا سودانية في شخوصها وجوها وإحساسها ، وأن خصائصها الفنية هى خصائص سكان هذا النيل المبارك ، وعبقرية وضعها هى عبقرية هذا الوادى الحزين ؛ فهى من هذه الناحية من الأدب القومى الصميم ، إلا أن العادات الطارئة والصبغة المحلية ليست بأساسها ، وإنما أساسها النفس البشرية والطبيعة الإنسانية التى تعنى برسمها وتصويرها تحت مؤثرات خاصة من الزمان والمكان والحضارة والثقافة . فهى من هذه الناحية من الأدب العالمى الصحيح ، وهذه ولاشك هى شارة الفن الرفيع عند كل الأمم ولدى كل العصور .

وإنا لنرجو التوفيق فى هذه المحاولات القصصية .

ابن عمه *

« زينب ، أصنعت الكعك الذي حدثتك عنه ؟ سوف يأتي ابن عمي يوسف محمدين . . . بعد يومين من الفاشر ، وطبعا نود أن نقدم له شيئا ظريفا — أنت لاتعرفينه يازينب . . ولكن . . . آه يالشدة فرحتي به ! . . . أتعرفين أننا لم نر بعضنا منذ عشر سنين ! . . . . يالله ، ولكنني لا أدرى ما السر في أنه لم يخبرني بمجيئه . . . . لعله مشغول ، فلقد أراني صديقه خالد اليوم خطاباً منه يخبره أنه سوف يأتي العاصمة بعد يومين . . . إنه رجل طيب جداً يا زينب ، ولكم أذكر لعبنا معاً حينما كنا نذهب إلى الكتاب سوياً ، . . . وحينما نذهب إلى خالى عثمان أيام الجمع ، أنت لا تعرفينه ولكنك سوف ترينه وتعجبين به كثيراً : كيف يكون شكله ياترى الآن ؟ لابد أنه قد كبر وصار رجلاً كبيراً ! » هكذا كان يتحدث خليل أبو دومة إلى زوجته في ليلة من ليالى الخريف المقمرة بعد أن عاد من فلاحة أرضه واستلقى على سريره : وقد شعر أن الفرح والسرور يفعمان فؤاده . وكان الليل صامتاً رهيباً فما يسمع الإنسان سوى نقيق الضفادع ، وهمس الرياح كل آونة وأخرى ، ونباح الكلاب في فترات متقطعة يسمعه الإنسان فيتولاه شعور كئيب . وإحساس بالوحدة والسكون !

— إن شاء الله نرى إبن عمك هذا .

— نعم سترينه يازينب : إنه رجل شهم همام ، إننى أحبه أكثر من أخي عبد الجواد . توفى والدى وأنا مازلت طفلاً صغيراً ، فأخذني عمى إليه ، وعشت ويوسف كالأخوين لايفرقنا إلا النوم — ولكن هو الموت وغدره — فقد مات عمى ، وأصبحنا من بعده أيتاماً ليس لنا من يعولنا أو يهتم لأمرنا ، فنزحنا نكافح في ميدان الحياة والعود غض والغصن رطيب ، فذهب يوسف مع تاجر شهير إلى الفاشر ، وبقيت أنا أعمل إلى الآن في مزارع صالح الطيب ، وإنني لن أنسى قط ذلك المنظر المؤثر حينما افترقنا ، فلقد كان يبكى بالدمع السخين ، ويجيش بالبكاء الحار . وترقرق الدمع من عينى خليل فمسحه بمنديله وقال لزوجته : « ولكن الكعك وحده لايكفى لإكرامه ، ونحن يمكننا أن نستغنى عن غذاء يوم فلتأخذى هذا « الريال » وتبتاعى لنا به زجاجة تمر هندى من النوع الطيب من فضلك ! » وذهب صاحبنا خليل في الصبح إلى عمله وشبح ابن عمه الآتي لايكاد يفارق مخيلته ! . . .

وجاء ميعاد القطار في اليوم التالى فذهب خليل مع رهط من أصدقائه لاستقبال

---

* السيامة الاسبوعية — العدد ٢١٩ — ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ .

إبن عمه . فرأوا رجلاً لاهو بالبدين ولابالهزيل ، يلبس قفطاناً حريرياً وجبـــة مخططة جميلة المنظر وعمامة بيضاء مكورة ، له وجه مستدير وشارب صغير جميل ، فحيوه جميعا وأقبل عليه خليل يوسعه لثماً وعناقاً — وبعد أن ودع أصدقاءه ووعد بزيارتهم جميعاً بعد أن يستقر به الحال ، لم يفته أن يقول لخليل قبل أن يركب الترام — وكان قد أراد أن يذهب معه إلى أم درمان : « لاتتعب نفسك . إن لديك أشغالا ، سوف أحضر لزيارة عائلتكم قريبا » . وهكذا ركب يوسف الترام وبعد ربع ساعة كان فى منزله بأم درمان .

وأعد خليل في اليوم الموعود غرفته الحقيرة وفرش أرضها بالرمل الناصع البياض . وظل يعد الدقائق منتظراً مجيء إبن عمه في الساعة التي حددها له . . . وها قد أقبل الليل وإبن عمه لم يأت . ماخطبه ، ما الذى حال دون مجيئه كوعده ، فظن خليل أن قد ألم بإبن عمه سوء ، فذهب مبكراً في الصبح إلى حيث يقيم خالد — صديق يوسف — وسأله : هل يعلم شيئا عن حالة يوسف ؟ .

— نعم وقد كنا معاً البارحة في العصر ، وظل معي إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم ذهب في آخر ترام إلى أم درمان .

— ولكنه لم يمر علينا كما وعدني !

— لا أدرى والله السبب . وغاية مافي الأمر أنه كان مسروراً ، وقد قضى معنا نحو الأربع ساعات قضيناها جميعاً في لعب وسمر ، فلعله نسي موعدك .

وخرج خليل بعد هذه المحادثة مفكراً في هذا الأمر . وصار يقول لنفسه « قد وعدني هو وحده . وقال لى انه يود أن يرى عائلتي . فما الذى عاقه ياترى ؟ » وكان يحيره أنه لايجد جواباً شافياً لأسئلته . ولما عاد إلى منزله سألته زوجته « ما الأمر ؟ » فلم يرد بسوى « ليس هنالك مايوجب الإهتمام » .

وأصبح اليوم التالى ، فكانت السماء متلبدة بالغيوم والشمس تظهر آونة وتختفي آونة أخرى ، والريح تتناوح تناوحاً عالياً باكية مولولة ، والأشجار تتمايل بقوة تحت تأثير هذه الرياح الهوج . فلم يثن هذا الطقس الردىء من عزم خليل على الذهاب لابن عمه في أمدرمان ليلومه على عدم إنجازه وعده الذى وعد . فلما دخل منزل يوسف رآه هذا الأخير من النافذة وأمر خادمه أن يجعله ينتظر في الغرفة الخارجية ريثما يفرغ من هؤلاء الزائرين الكبار ! . . وكيف لايزورونه وقد صار تاجراً كبيراً وثرياً غنياً ، فغضب خليل فى نفسه وصار يفكر قائلا فى نفسه : « أأجيء إليه من الخرطوم ، فيستبقيني خارجاً ريثما

يتحادث مع هؤلاء الأجانب ! لابد أن يوسف قد تغير . ماكانت هكذا طباعه ؟ !»
وظل يعبث بعصاه في الأرض ، ويفتل شاربه الأشعث كل آونة وأخرى ، بينما كان يوسف وصحبه يتحدثون بمثل هذا الحديث :

– نعم والله ياسي يوسف ، أزى الفاشر كده ؟ .

– جميلة والله ، بس الشغل كتير . خصوصاً شغلنا نحن في العاج وسن الفيل ، ياالله من التعب ، فقــد نظل الأيام والليالى الطوال ونحن نبحث عن الأفيال . لاننام الليـــل ولانغمض بالنهار ، فإذا مانمنـــا قليلا ، فنحن لاشك نكون تحت رحمـــة الأخطار ، فلربما يشب علينا فيل أوحيوان ضار ! .

– لا ! إن الله معكم ، والحمد لله الذى أرانا وجهكم فى ساعة خير . وهكذا الحياة ياسى يوسف لاتكون بغير التعب والنصب !

وقال آخر :

– أظن جو الفاشر رطب شوية .

– على كل حال فهى أحسن فى جوها من أم درمان .

وقال آخر :

– أتركونا من هذا الحديث ، وتعالوا بنا إلى المسائل المهمة . كام جنيه وفرت ياسى يوسف ؟

– والله شيء قليل بالنسبة للتعب ، يعنى تجى زى كام الف جنيه فى البنك الأهلى .

وعلى هذا المنوال إستمرت محادثتهم نحو الساعتين . كان فى أثنائها خليل على أحر من الجمر ، وبعد أن خرج هؤلاء الزائرون ، دخل خليل على إبن عمه ، فهش له يوسف بعطف مصطنع ، وبعد أن تبادلا عبارات التحية والسلام إنشغل يوسف بحلق لحيته وكان خليل فى هذه المدة يهم بالكلام فما يستطيع إلى ذلك سبيلا ، وبعد أن فرغ يوسف من حلق لحيته إبتدره خليل قائلا :

– أنسيتنى يايوسف ؟ لم هذا الإعراض ؟

– سبحان الله ، كيف أنساك ياخليل ؟

– ألا تذكر يايوسف أيام كنا لانفترق قط ، أيام كنا فى الكتاب ، أيام كنا نتسلق أشجـــار اللوم معا ، وكيف كنا نعبث بوالدتك ، لقد كنا أشقياء حقاً ، وكان والدك – رحمة الله عليه وغفرانه – يقول : إننى لأتركك يا أبنائي ولامعيل لكم سوى الله وحده

فهو كفيل برعايتكم وعيشكم . أهل تذكر كل هذا ؟

— نعم ، أذكر ذلك ولا أنساه .

— ولكن أظنك قد تغيرت قليلا ، ويخيل إلى أنك لست ذلك الأخ الحنون الذى عرفته وأحببته ، فكنا نقتسم الأحزان والآلام معاً .

—ولم كل هذه الظنون ! إنك مخطىء ياصديقى .

— ذلك ما أتمناه من صميم قلبى !

— ولكن لم كل هذا الكلام ؟ ماذا رأيت مني ؟

— إنك وعدتنى بزيارتنا البارحة فما أتيت ! ولقد كنت وزوجتى والأولاد الصغار كلنا في إنتظارك فخيبت ظنهم كما خيبت ظنى !

— ولكن قد حدث لى ما عاقنى عن الذهاب إلى الخرطوم ألا تفهم العذر ؟

— ولكن صديقك خالد أخبرني أنك كنت معه فى نفس تلك الساعة التى وعدتنى فيها بالمجيء .

فتلجلج يوسف وظهرت على وجهه علامات التأفف . ومن يتهم فى صدقه ، فقال بحركة عصبية : « ثم ماذا » ؟ .

— أنت ابن عمى يا أخى ، كيف تأتي إلى الخرطوم فلا تمر بي وقد وعدتنى بذلك ، ثم تذهب إلى رجل غريب عنك فتقضى يومك معه ، ذلك مالم يمر بحسباني قط !

— إيه . . . هذه خوته ووجع دماغ ياخليل ياصاحب .

فتغيرت سمات خليل ، وكور عمامته التى إستحالت من كثرة الغبرة سوداء الشكل ، وظهرت عليه علامات الإندهاش والإستياء ، فما كان ينتظر مثل هذا الحديث من إبن عمه ، وأخيراً أرتجفت أركان شفتيه وقال بصوت متلعثم :

— مابك يايوسف ، ألست أنا إبن عمك القديم : وأنت يوسف إبن عمى القديم ! ماذا جد ؟ . . . يجب عليك أن تزورني إننى لا أسألك إحساناً ، هذا هو واجبك على الأقل !

قال هذا وهم بالبكاء وارتج كيانه واحمرت عيناه ، وكيف لايغضب ، وهاهو القدر يفاجئه فى أحب الناس إليه فيرى منه هذا الجفاء والغلظة .

— لقد ظننت أنكم تقدمتم ، ولكنكم لم تزالوا فى مثل هذه الخرافات .

— ليس فى هـذا الكلام تقدم أو غيره . أما أن تزورني فى بيتى أو تعلن للملأ

براءتك مني . وبذلك يرتاح ضميري ! . . . أما أن تظل إبن عمي الذي يعرفه كل واحد ثم ترفض زيارتي ذلك هو الشيء الذي لا أتحمله .

وضرب الأرض بعصاه للتوكيد ، وعلا صوته وإحمرت عيناه ،فلما رأى يوسف هذه الحالة وهذه الحماقة من خليل قال له في شيء من اللطف :

— لاتكن أحمق ياخليل . سوف أزوركم يوم الخميس . أهذا يرضيك ؟ أخبر زوجتك وأولادك أنني سوف أزورهم يوم الخميس الظهر .

— نعم يرضيني ، ولكن . . . . . !

— فلتذهب الآن إلى عملك ولاتجعل هذه الهواجس تشغل بالك .

وخرج خليل مسرعاً قائلا لإبن عمه « سترى » ! فضحك يوسف بعد أن خرج خليل متعجباً من شأن هذا الأحمق كما أسماه وظل يقول لنفسه « أأترك أعمالي ووعودي لبعض الأصدقاء لأزور هذا العامل الحقير . ولكنه أحمق بالحماقته ! » .

* * * *

اليوم الخميس ، وقد استأذن خليل سيده في المزرعة أن يعطيه ظهر هذا اليوم عطلة لأمر ذي بال ، فسمح له صالح الطيب بذلك ، وأتي خليل إلى منزله وجهز غداءه المتواضع ظناًمنه أن إبن عمه سوف يأتي للغداء معه ،وظل خليل منتظرا ، ولكن الساعة الثانية والثالثة والرابعة قد مضت ولم يظهر يوسف ، ماخطبه ، ووقف خليل في الشارع لكي يراه من بعيد ،ولكن هاهي الشمس قد غربت ولم يأت أحد ، وعندئذ تولى خليل غم شديد واسودت الدنيا أمامه ، وجاءته زوجته قائلة : « كل غداءك يا رجل تكاد تموت جوعاً ،ما أظن يوسفك هذا يأتي » ، فوقعت هذه الكلمات من نفسه موقعاً أليماً . ودخل حجرته متظاهراً بعدم الإكتراث وقلة المبالاة . وقد دخلت عليه إبنته الصغيرة في هذه الساعة فخانته شجاعته وظل يجهش بالبكاء . وتذكر فقره وكيف أن يوسف صار لايعبأ به . وتذكر ماكان يقوله له بقية العمال في الحقل « أتظن أن رجلاً ثرياً كيوسف يزورك ولو كان حتى إبن عمك » فكانت تضاعف حزنه وألمه . وأخيراً قال لنفسه بصيغة الحازم : « يالضعفي ! أأبكي من أجل رجل بخس مثل هذا ، أأبكي . . ألمثل هذا الغر السافل كل هذا الشأن عندي ؟ » مغالطاً نفسه لكي يسليها ويرفه عنها . وذهب حوالي الساعة العاشرة إلى بيت خالد وسأله عن يوسف هل رآه اليوم ؟

— نعم . وقد تناول معي طعام الغداء !

ويمكنك أن تتصور حالة خليل أكثر من أن أصفها لك ، فقد اسودت الدنيا أمامه . وقفل راجعاً إلى منزله بعد سماع هذه الكلمة لايلوي على شيء ، وقلبه يفور بالحقد والكراهية

نحو يوسف . كما كانت تنتاب نفسه عوامل الضعف والكبرياء متناوبة بين كل دقيقة وأخرى ، واستقر في فكره أن لابد من الإنتقام من هذا الرجل السافل الذي ليس لديه كلمة ولا إخاء ولاشرف ولا وفاء ، وراح يتقلب على فراشه طول الليل فما أغمض له جفن . وأتته إبنته الصغيرة في الصبح وسألته :

- أين هو يابابا عمنا يوسف الذي تقول عنه إنه آت كل يوم ولم يأت إنني مشتاقة لرؤيته :

فنظر إليها نظرة كلها عطف وحنان وقال لها :

- ولكنه هو لايحب أن يأتي يا إبنتي ما حيلتنا معه ؟

قال هذا ومسح دمعة حارة تنحدر على خده . وقبل إبنته في خدها وخرج من بيته قاصداً « أم درمان » من غير أن يتناول طعاماً أو شراباً . ولقد كان ذلك اليوم ماطراً والبرق لايفتأ يومض ، والمطر ينهال إنهيالاً على الأرض . فذهب تواً إلى بيت يوسف عازماً على أن يكون له معه شأنه الأخير ، ودخل غرفته فما وجده . فانتظر في الحجرة وكانت عيناه تقدحان شرراً . وأعصابه متوترة من شدة الإنفعال ، وكانت يده لاتفتأ تتردد على شاربه بحركة عصبية سريعة كما تلمس كل ناحية من نواحي وجهه . ودخل عليه يوسف فهاله منظره ووجل خوفاً ، وأخيرا قال له :

— أهلاً وسهلاً بخليل ، إنشاء الله خير . ما الذي أتي بك في هذا اليوم الممطر ؟

— ما الذي منعك يايوسف من أن تجيء كما أخبرتني ؟ نعم ، إنني رجل فقير ولكنني إبن عمك ، فماذا أنت فاعل ؟ نعم ، لو تبرأت مني لكان ذلك أهون على نفسي من سلوكك هذا . أتذهب لخالد ولاتمر بي . . . آه !

— هديء من روعك ، ما هذا الكلام ؟

— نعم ، هذه هي الحقيقة : إنك لتأتي لخالد كل يوم فلاتخجل أن تمر بي . وأعجب من ذلك أن تصدقني ولا تأتي : هل تظن أننا سنسلب أموالك أم ماذا ؟ . . وبماذا تعلو على يايوسف بسوى المال ، ولكن تذكر انه ربما يكون للعبيد أكثر منك . . . !

— ولكن الأمر لايستدعي كل هذا الكلام !

— بلى ! إنه يستدعيه وزيادة ، هذه إهانة ، هذه حقارة ، هل تظن أن بيتنا سيدنسك ؟ هل يحتقرك الناس إذا مازرتني في بيتي ؟ أم ماذا تظن حدثني ماذا تظن ؟

— ليكن عندك أحسن من هذا الكلام ياخليل ، ولتذكر أنك في منزلي !

— وليكن ذلك فماذا يعنيني منه . لست بالشحاذ !

وغلب عليه الضعف فسالت الدموع من عينيه ! .

– يا للعجب ، يا للجنون !

– وكيف لاتعجب من جنوني ؟

– ايه ! . . . أظنها راح تطول ، بلاش خوته ياشيخ ووجع دماغ لست بالفارغ لمثل هذا الحديث الفارغ .

وخرج يوسف تاركاً خليلاً وحده في الحجرة ، فخرج خليل في أثره قائلا :

– سوف ترى كيف أنتقم من رجل بخس مثلك .

* * * *

ومرت الأيام والليالي وخليل يزداد ألماً وحقداً على الحياة ، أيخونه ولايهتم به من كان يحسبه أعز الإخوان وأحب الخلان والأقرباء اليه ! ! ذلك مالاتستطيعه نفسه ، وفهمت زوجته كل مافي الأمر فزاد ذلك إستياءه وحقده ، وصار يتراءى له شبح يوسف في الليل خادماً حقيراً يكنس الغرف في ثياب رثة فلا يعرف كيف يعلل حلمه هذا . وأخيراً استقر فكره على أن يقتله شر قتلة . ذلك لأنه لايستطيع أن يراه كل يوم ذاهباً إلى خالد وغيره من الأعراب ماراً ببيته وكأن لا أحـــد هناك ، ولكن فكرة قتل إبن عمه كانت تؤرقه الليل لأنه لابد أن يقتل جزاءً له ، وما جزاء القاتل إلا القتل وتراءت له خيالات أبنائه الصغار هائمين في شوارع المدينة متجولين يستجدون العطايا ويشحذون فيقول لنفسه : « ماذنب هؤلاء المساكين ، وما ذنب هذه الزوجة المسكينة ؟ هل أتركهم فريسة الجوع واليتم ! » .

كانت هذه الأفكار تؤرقه وتثبط من عزمه ، وقد لاحظ ذلك عليه أهله وبقية العمال وراحوا يتساءلون عن ســـر هذا التغير في خلقه وشرود ذهنــه ، وعدم إهتمامه في ملبسه ومأكله ، ولكن حقده كان قوياً وحب الإنتقام كان شديداً في نفسه فتغلب على بقية العوامل الأخرى ، حتى إذا ماعلم في ليلة من الليالي أن يوسف مدعو إلى طعام عشاء فاخر عند صديقه خالد صمم على إغتياله في تلك الليلة ، فأخفى نفسه في ركن من زاوية يمر بها المار إلى منزل خالد وجهز مديته مصمماً على أن يجعل تلك الساعة آخر ساعات إبن عمه في هذه الحياة ، وكان الليل مظلماً في تلك الليلة ولو أن الساعة لم تبلغ السابعة ، فظهر يوسف ورآه خليل، فأرغى وأزبد كالثور الهائج ، ولما دنا منه تحفز خليل يريد الإنقضاض عليه ، فتنبه يوسف وقال له :

« أهــلا وســـهلا بخليل »

وعندها خارت قوى خليل ولم يذكر إلا عطف يوسف وإخاءهما في صباهما وصدر شبابهما ، وتذكر فقره وبؤســه فأغمد السكين في بطنه بـدلاً من يوسف وخر صريعاً لساعته، ووقف يوسف مشدوهاً أمام هذه الحادثة المروعةجاحظ العينين ،وانطلق يصرخ بأعلى صوته في شيء من الأسى العميق والألم القاتل « إنني القاتل . . . إنني القاتــل . . . إنني القاتل . . . » .

إيمان *

— نعم أعرفه ، أليس هو ذلك الشاب الكث الشعر ، النحيل الجسم ، الطويل الأنف ، الذى يعنى بهندامه ويضع طربوشه قريباً من حاجبيه ، وهو جالس دائماً فى تلك الزاوية ، ينظر بإمعان للاعبى الطاولة فاتحاً فاه طيلة الوقت يلتهم حديث المتكلمين والمتحدثين التهاماً من غير مضغ ؟

— لقد مات ياسيدى بعد أن إعتراه مس من الجنون لم يطل أمده لأنه ترك الأكل إلا لماماً ،وصار هائماً على وجهه في الشوارع والطرقات العامة ، لايثنيه حر ولا برد من ذلك .

— وأى سبب أدى به إلى الجنون فالموت ، فلقد شاهدته منذ زمن ليس بالبعيد يلعب الطاولة وبدأ مبتهجاً وهو على خير مايكون إنسان .

— لـــقد كان جلال أفنـــدى عبد الكريم أيها الأخ ، شاباً سمح الخلق طيب الخاطر ، كله نعومة واطمئنان وطيبة قلب . يستمع بشغف لأحـــاديث المتكلمين حوله في المكتب والترام والمنتديات العامة ، ثم يأخذ بعض هذه الآراء التى تروق عنده ، وهو أكثر مايكون تأثراً إذا كان صاحب الحديث شديد العارضة قوى الحجة ، قوى الشخصية يتكلم بكل حزم وتأكيد . يأخـــذ هذه الآراء فيعيدها على صحبه وكأنها هى له والحديث من بنات أفكاره لشدة ما يتعصب لها ويذود عنها . وأذكر أنه كان فى وقت من الأوقات كثير التلفظ بهذه الجملة وقد سمعها من جلال الدين أفندى « إن الرأسماليين عندنا هم رأس كل بلية في هذا الضعف الإقتصادى ، وهم الدود الذى ينخر في عظام هذه الأمة » ! كما أننى أذكر أنه قد ترك هذه الجملة فى وقت من الأوقات ومسك أخرى سمعت أنه سمعها من نور الدين أفندى عن أغانينا القومية « إننى لا أنكر على أغانينا بعض الحلاوة المخنثة والميلودية الباكية الشاكية ، ولكنها طنبورة هزيلة وأغان مملة لاتضرب على أوتار النفس الشاعرة ، وإنما وترها واحد هزيل لايحث على الجد ولايدعو إلى النشاط والحياة الهنيئة » . وأنت تراه وتسمعه يقول هذا الكلام بكل كبرياء ذهنى واقتناع وعظمة ! وجلس في يوم من الأيام مع جماعة من بينهم حسين أفندى حسنى الذى كان يطلب العلم فى القاهرة ، فأراد صاحبنا أن يظهر علمه ولوذعيته ، فأدار الحديث لذلك الغرض خاصة حتى إذا ماجاء الحديث عن الأغاني السودانية قال قولته هذه في شيء من الإقتناع والفهم المصطنع ،وراح يدخن سيجارته بعد أن أتم حديثه وينظر فى الفضاء بكل إدعاء فى التفكير والتأمل كما يفعل « خير الله الماوردى » بالضبط . وأخيراً نطق حسين أفندى حسنى وقال

---

* السياسة الاسبوعية العدد ٢٣٦ — ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ .

بعد أن تكلم عن عبقرية الأمم والأغاني القومية المختلفة : « وإن الذين يقلدون الأفرنج في كل شيء ويحاولون أن يلبسونا ثياباً لم تخط لأجسامنا ليشطون ويهرفون بما لايعرفون . فكيف يريدوننا على أن نستبدل شعورنا الشرقي البسيط بالشعور الغربي . والأغاني شعور وهي شعورنا . زد على ذلك أن من يعلم حالة هذا الشعب وتاريخه يعرف تمام المعرفة لم كانت أغانينا على هذه الوتيرة الباكية،وأن « السايكلوجي » الإجتماعي ليقرر صحة ما أذهب إليه. وخير لنا أن نحاول تحسين أغانينا على هذا النسق من أن ننقد روحها وعنصرها فإن روحها لهو روحنا وعنصرها لهو عنصرنا . وعبث محاولة تغيير الروح والعنصر » ! فأعجبت هذه الجملة صاحبنا جلال أفندي وحفظها لساعتها بعد أن اقتنع بصحتها وترك قولته القديمة في الأغاني. وهذه ولاشك تظهر له أكثر عمقاً وعلماً ولوذعية من الأولى. ولقد كان قوي الذاكرة ، ويكفيه أن يسمع مثل هذه الجملة مرة واحدة فيلتهمها التهاماً ويحفظها عن ظهر قلب . ولو أنه في بعض الأحيان ينسى كلمة أو كلمتين فيتغير المعنى المطلوب تماماً . وصار منذ ذلك اليوم يردد هذه الجملة في المكتب والبيت والمنتدى . وهكذا كان صاحبنا — رحمه الله — شديد التأثر يصدق كل مايقال أمامه بحزم وصوت مرتفع . وكان في حفظه كعدسة « الفوتوغرافيا » يلتقط الأفكار لأول وهلة ويرددها كأنها من بنات أفكاره من غير أن يشعر بأقل غضاضة أو فقر ذهني . ومع كل هذا فقد كانت الناس تحبه وتستظرفه لما فطر عليه من مراحة الطبع والدعابة والخفة . وهو إذا ذهب إلى مكتبه وكلم بعض إخوانه في المكتب عن المسائل العامة فلم يأبهوا له ؛ بادرهم بهذه الجملة التي سمعها من « الباشكاتب » على أفندي رحمه الله : « إن حياة الموظف عندنا لهي حياة مملة سخيفة . وما أشبهكم بالالآت الميكانيكية تؤدي واجبها الآلي ثم يشيع فيها الصدأ فتبلى وتتحطم » — كما أنه كان كثير التقليد لرؤسائه يقلدهم في نبرات أصواتهم وفي مشيتهم ويلتقط الكلمات الإنجليزية من رئيسه الإنجليزي . والويل في ذلك اليوم لراكبي الترام ؛ فإنه يزعجهم بمثل هذه الكلمات بمناسبة وغير مناسبة . وأذكر أنه كان يستعمل هذه الكلمات وقد التقطها حديثاً : « Tremendous, extraordinary, absolutely ! »

ولقد كان يرتاد بيوت الرقص الوطني بين حين وآخر فيأتي مسلوب العقل والوجدان معا ؛ ويقرر لك بكل حزم أن « فلانة » هذه أرقص بنت في السودان . وأن تلك البنت أجمل بنات العالم طراً . ولايمر أسبوع من هذا التاريخ إلا ويأتيك بأسماء أخرى هي أجمل البنات وأرقصهن . وهو في كل ذلك محكوم « بالمودة » ومايقوله صحبه ورفقاؤه فهو قل أن يكون لنفسه رأياً حتى في الطعام والملبس. يأكل مايقول بعض إخوانه إنه أجود الأطعمة ويلبس مايلبس زيد وعمرو .

وحصل يوماً أن إجتمع بهاشم عرفات في المنتدى الذى يجلس فيه فى عصر كل يوم هو وصحبه ، وكان « هاشم عرفات » هذا شاباً كثير الإطلاع ، كثير الشك الفلسفي لايؤمن بالأقاويل ولا يستطيب الجزم في شيء . وهنا إبتدأت صفحة جديدة من تاريخ بطلنا جلال أفندي عبد الكريم إذ كل ما أتي بجملة من جمله المحفوظة ، سأله هاشم عن صحة مايقول وعن أدلته وبراهينه؛ وينتهي بأن يشككه فى قوله ويسخف له هذا الرأى . ويفند ذلك . وصار كل ماقال رأيا سأله هاشم « **هل أنت متأكد** » حتى جعله يرتج فى أجوبته ويشك كثيراً أو صار لايقتنع بالقول الذى يقوله الصحاب ولكن لابد أن يراه عملياً حتى يصدقه . وقبل أن يتفرقوا قال له هاشم « ياسى جلال أفندى أبق من فضلك ماتصدقشي كل حاجة ، إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل » . فتركت هذه الكلمات أثرها في ذهن جلال أفندى وهو يودع صحبه فى تلك الليلة !

وحصل أن كان يوماً جالساً مع بعض الصحاب وفيهم من كان يدرس الكيمياء فقال هذا الكيمائي : « أتدرون أن الماء من الهواء » ؟

— « لا . لا أصدق » .

— ياعجباً : إنه إمتزاج الهيدروجين بالأكسوجين فى نسب معلومة .

— « كلام فارغ » برزت من جلال وتبعها منه أيضا . « **هل أنت متأكد** ؟ »

— « كتأكدى من وجودك هنا » .

وإشترط الصحاب أن يذهبوا إلى أقرب معمل فى الخرطوم ليروا هذه العملية، ولكنه لسوء الحظ أو لحسنه ، مهما حاول صاحبنا الكيميائي فى التحضير فقد فشلت كل مجهوداته . وأخيراً صاح به جلال أفندى : « ألم أقل لك كلام فارغ » .

— « وأى كلام فارغ تعنى ؟ إن المواد لسوء الحظ ليست جيدة وهذا كل مافى الأمر ، وقد عملت أنــا هذه العملية مئات المرات ، وهى حقيقة ثابتــة كوجودى ووجودك » وأطلعه على عدة كتب فيها هذه الحقيقة . فكان جواب جلال أفندى .

— « أتظنني مغفلاً لهذه الدرجة ؟ إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل » وقفل راجعــاً .

وجلس يوماً آخر مع بعض صحبه وكان بينهم جاد الله العربي ، وهو فتى مرموق الجانب . معروف بسعة الإطلاع والفهم فقال لهم « هل تدرون أنه سوف يحصل كسوف جزئي للشمس فى الغد» . «هل أنت متأكد ؟» قالها صاحبنا الذى كان يؤمن قبل بكل شيء :

— أ أنت عبيط . أقول لك إن فى الغد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس فتسألني

هل أنت متأكد ! ؛ إن هذه الأشياء يقررها العلم ، والعلم صادق لايداجي ولايكذب . ويمكننا أن نعرف الدقيقة والثانية التى سوف يحصل فيها الكسوف ! » . ووافقه الجميع على هذا الكلام ونظروا شزراً إلى جلال أفندى . وراح صاحبنا يعلن هذا الرأى وقد نسي شكه « إن في الغد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس ! » . وظهرت الشمس غداً أشد ماتكون لمعاناً وضياء فلا كسوف ولاخسوف . وكلما تقدم النهار ولم تنكسف الشمس إزداد شك صاحبنا وقلقه وصار يقول لنفسه : « أقول لهم هل أنتم متأكدون فيقولون يا للعبيط ، أينا الآن العبيط أنا أم هم ؟ » .

وبعد هذه الحادثة رجع فقابل « هاشم عرفات » — الرجل الذى جعله أول مرة يشك في حياته — وقص عليه قصة الكسوف المزعــوم . وكيف أنه شك فى حديثهم فما كان منهم إلا أن ضحكوا منه ، فقال له هاشم أفندي : « اسمع يا أخى إن الأشياء لاتحصل حسب قوانين معلومة ولكنها تحصل كل يوم فى حالات كثيرة متعددة . وأساس هذا العالم إنما هو « التغير والتحول » فعبثاً نحاول إستنتاج القوانين العامة التى تحكم الأشياء . وقد يظهر لنا في كثير من الأحيان أننا قد نجحنا فى ضبط القوانين ومعرفة الأشياء . ولكن هذا وهم خادع . فالحياة لايحدها قانون أو « سابقة » وهى دائمة التحول والتجديد ، وهى مستبدة وهى قاهرة ، وربما تحصل بعض الأشياء عدة مرات . ولكن ليس معنى هذا أنها سوف تحصل دائماً . فأى قوانين وأحكام ثابتة يمكن أن يصدرها الإنسان والحال كما وصفنا ؟ » . فالتهم صاحبنا هذا الحديث وتأثر منه وأعجب به كثيراً . وزادت نزعته الشكية من ذلك الحين كثيراً !

وكان صالح أفندي عثمان ، المشهور بنكاته وألاعيبه فى الأندية والمجتمعات فى ليلة من الليالى يقوم ببعض الألعاب ، فجاء إلى مسألة كوب الماء إذا ماملئت وأقفل فمها بورقة قوية أو خشبة مستديرة أو ما إليها ثم جعل سافلها عاليها لم يندفق الماء للضغط الذى داخلها . فقاطعه جلال أفندى عبد الكريم وأنكر عليه حديثه وقال له دونك التجربة ، فجربها صالح أفندى عثمان بوضعه « لكوب » الماء وهو مقلوب فوق رأسه فلم يصبه أذى ، ولكن جلال أفندى لم يقتنع إذا لم يجرب العملية بنفسه . فقام وملأ الكوب ماء ووضع الغطاء وأدارها فوق رأسه ، ولكنها سالت فوق رأسه وابتل هندامه . وضحك الجمع ساخرين هازئين . فما كان منه إلا أن تناول طربوشه وقفل راجعاً إلى بيته لايلوى على شيء وهو حانق مغضب أكثر مايكون شكاً وحنقاً على الحياة ومايقبله الناس كأنه حق لايأتيه الباطل من خلفه أو أمامه . ومن ذلك الحين إضطرب كيانه العصبي وصار يهيم على وجهه ويرد على كل من يسأله أو يكلمه بجملة « هل أنت متأكد » ؟ ولايأكل ولايشرب

إلا نادراً. فزاد جسمه نحولاً على نحوله. وأخيراً لزم فراشه لمدة أسبوع فارق بعدها هذا العالم. وقد كان يوم موته يوماً عاصفاً ماطراً. تقلع سحبه ويتجمع غمامه ويصبح الجو أدكن غابراً لمدة ساعة، ثم تشرق الشمس ويشع الضياء، وفجأة تتجمع السحب مرة أخرى ويغبر الجو كأنما يريد أن يهطل المطر ثم لايهطل. وقد بلغني ان آخر ما نطق به وهو على فراش الموت بعد أن سأله أهله أن يتشهد مرات ويقول «لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله» أن فتح عينه وقال لهم «هل أنتم متأكدون؟» ثم أغمض عينيه وراح في سبات عميق. وهكذا مات جلال أفندي شاكاً في كل شيء بعد أن كان مؤمناً بكل شيء!

في القطار *

مأســاة

بعد أن قطع القطار صحراء العتمور العاتية وما فيها من جبـــال ملتفة ورمال بيضاء منبسطة وأحجار سوداء متناثرة، في لجج ذلك الخضم الذي لاتقف منه العين على شيء من صور الحياة النابضة. وسار ينساب في أرض لاتحوجه إلى مثل ذلك الكفاح والنضال القوى، بل راح راكضاً في إتساق وسرعة على ضفاف وادى النيل، وكنت من قبل ذلك أنظر إلى هذه الصحراء وأمعن النظر اليها وكلما أمعنت النظر وجاشت بي الخواطر والذكر، خيل إلى أن لى تاريخاً مع هذه الصحراء وأنه محال أن تكون هـــذه المرة الثانية أو الثالثة التي أشاهد فيها هذه الصحراء لما أشعر به من القرابة والعطف والإيناس لهذه الحجارة التي تترامى بالقرب من سير القطار. وربما جنح بي الفكر فخيل إلى أنني قد رأيت كل هذا وعرفته قبل حياتي الراهنة، وإلا فكيف أفسر هذا العطف وهذه الألفة وهذه القرابة الروحية التي هي أشد من كل عطف وقرابة وإيناس! والقطار سائر إلى أن إقترب من مدينة شـــندى بعـــد أن مر بمدن عدة، والمسافر لايرى غير السهول الواسعة حينا، والأشجار المتناثرة الكثيفة حينا آخر. وقد يرى بعض الأحيان أرضا خضراء، ولايرى في غيرها سوى الرمال والحصى. غير أن النظر إلى شجرة من هذا الشجر الذى تجده بين حين وآخر واقفا متدلى الأغصـــان في أسى وإكتئاب وصبر ووحشة لاتخالطها بشاشة أو يمازجها فرح، لحرى بأن يحمل الإنسان إلى الإعتقاد بنضوب هذه البقاع من الحياة كما عرفها وذاقها بين المدن الصاخبة، وأنفاس الإنسان النابضة ووثبة الحياة الدافقة. كل هذا وبعض أصحابنا المسافرين المترفين في شغل عن الصحراء والسهول والأشجار وحديثها: هذا يدخن سيجارته، وغيره يقرأ كتاباً، وثالث نائم، وغيره وادع حالم!. وما أن يقف القطار عند قرية صغيرة يحسبها الإنسان خلاء وقفراً قبل أن يطلع عليه بعض أهليها من شبان وشيب ومعهم أشياء من الطعام يرغبون في بيعها إلى المسافرين أو أنواع من الخزف والآنية.

* * *

ووقف بنا القطار في هدوء طارىء في محطة من المحطات بعد أن أجتاز مدينة شندى. وكنت تسمع المسافرين ينادون بعضهم بعضاً: «أقفل الشباك» «أقفل الباب» بين قصف الرياح وأصوات المسافرين — ذلك لأن الرياح قد إبتدأت تقصف بشدة وتذر التراب في

---

* السياسة الاسبوعية — العدد ٢٤٣ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠.

العيون والعاصفة تولول كالشارد المجنون، والشمس تختفي بين حين وآخر لأن بالسماء الداكنة غمـــام يتجمع ويقلع حينا، ثم يتلاشى حينا آخر، فتظهر الشمس سافرة . وكان النيل الذى وقفنا بالقرب منه يرسل أصواتاً هائجة من أمواجـــه الثائرة . وهكذا وقف القطار بين ولولة العاصفة ، وهدير الموج الصاخب . ودكنة السماء وحلوكة الجـــو ! وبعد قليل رأينا رهطاً من النساء وبعض الصبية يهرولون نحـــو القطار غير عابئين بالرياح أو حلوكة الأنواء ، ولقد كان مع هؤلاء النساء أوان من الخزف المزخرف . وهن فى أسمالهن البالية أبعد شيء من الزخرف ودواعيه،وفيهن واحدة قد جاوزت الثمانين أو كادت تعرض وجهاً قد رسمت عليه الشيخوخة خيوطها الساخرة : وتعجب ماهذه وعراك الحياة والتكالب على العيش فى مثل ذلك اليوم العابس،ولكنك لاتجد جواباً على سؤالك سوى « إنها الحياة ! » . فقد جاءت تسابق الفتيات هازئة بشيخوختها غير معترفة بكبرها ، أو ربما كان الأصح أن تقول إن العيش ودواعيه يضحك ساخراً أو معجباً من هذه المرأة الهرمة . ولبثت تعرض حاجياتها على المسافرين من خلال النوافذ من غير أن تنبس بحرف واحد،وإنما بإشارة خفيفة من الرأس وامتداد من اليد إلى جانب نوافذ القطار ، وهى فى إيماءاتها ووقفاتها أنطق من كل كلام، وأدل من كل صراخ أو نداء، وكانت تمشى فى خطاها المتثاقلة من أول القطار إلى آخره ولا من يشترى أو يجيب حتى أرهقها الإعياء . وقد شهدها أحد ركاب الدرجة الأولى من الإنجليز فقال لها بالإنجليزية مامعناه « خير لك أيتها العجوز أن تذهبى إلى بيتك الآن ! » ولكنها ظلت واقفة ناظرة إلى هذا الرجل من غير أن تفهم قصده،ولعلها ظنت أن قد سألها عن الآنية التى تحملها أو قال شيئا يقرب من ذلك . فعادت تعرض آنيتها فى مكان ظاهر أمام الرجل وتطيل النظر مرفوعة الرأس فى شيء من الإستفهام والطلب !

* * *

وكانت هناك إمرأة تجلس على بعد ثلاثة أمتار من القطار ناظرة إلى الصبية الذين ينادون بملء أفواههم بما عندهم من طعام وشراب لجماعة المسافرين ، وكانت تشير على أحد الصبية بين حين وآخر أن يجرى هنا وهناك من واجهات القطار مناديا « شاي»«شا . آ . . آى » وكان بقية الصبية يحملون بيضاً مسلوقاً صارخين « بيض مستوى »« . بي . . ض مستوى» وهم يمطون كسرة الياء مداً طويلاً تكاد تخرج معه حناجرهم من شدة الصياح . . كل ذلك الصراخ كان من غير جدوى إذا إستثنينا مسافراً واحداً إشترى من أحدهم بيضاً بقرش صاغ ، ولشد ما كانت ترمقه عيون آخرين حاسدة حاقدة ! أما ذلك الطفل الصغير فقد ظل فى ندائه باجتهاد وصبر من غير أن يلاقى نجاحاً ! وكانت صرخاته تشتد كلما

مر الزمن ولم يبع شيئاً من « شايه » الذي يحمله في آنية تعافها النفس، وأكواب يصعب على الإنسان الشرب منها – ولقد كان يلبس هذا الفتى الصغير جلباباً أبيض قد إستحال لونه من كثرة الإتساخ ، وتراكم عليه التراب قاتماً أسود يمشي حافي القدمين ، عاري الرأس، لم يتجاوز عمره إحدى عشر عاماً، براق العينين ، دقيق الشفاه في أسى وإكتئاب تطل عليك من نظرته لوعة وشجو دفين . وقد ارتسمت على جبهته وحول شفتيه غضون جاءت قبل أوانها مبكرة لشدة وقوفه في الشمس ، وحياة المتاعب والشظف التي يحياها ، كل هذا وقد ترى في وثبته وحركته شيئاً من السهوم الواجم ، والخفة المستحبة لاتلبث كثيراً إلا وتنقلب إلى إنقباض ولوعة ، ولعل خفة الحركة والقفز تتملكه عندما ينسى نفسه وماحواليه ، ونظرة الأسى والإكتئاب تعتريه عندما يذكر أخفاقه وبؤسه ! وإنني لن أنسى ذلك الصوت الذي ظل يردد لفظة « شاي » والناس عنه في شغل ، ولعله هو الآخر في شغل عما يحمل من آنية وشاي ، بل كان السهوم في أوجه المسافرين وكأنما تنطلق شفاهه في حركة ميكانيكية بين حين وآخر بلفظة « شا . . آ . . . ى » وهو يمد فتحة « الشين » مداً تكاد تحسب أن روح هذا المسكين تكاد تزهق مع ندائه الحار وكلما لم يسمع رداً لصداه ولامجيباً لندائه إزداد عدوه من أول القطار إلى آخره، ومن آخره إلى أوله ، كأنما هو الحيوان الخائف الهارب ! . . . . وابتدأ المطر ينزل رذاذاً في هذا الوقت والقطار واقف ، وصوت الرياح وهدير الأمواج يبعث في الإنسان شيئاً من الخوف والجلال والرهبة . . . وبين جيشان الطبيعة وثورتها كنت تسمع صوت هذا المسكين بين حين وآخر مناديا « شـــاآآآآى » .

وأحس الفتى برذاذ المطر يهطل على آنية الشاي وهو لم يبع منها شيئاً . فازداد حزنه وكثرت همومه ! . ولقد كان المسافرون في حاجة إلى الشـــاى ، غير أن ماصدهم عنه رداءة آنيته وإتساخ أكوابه ، وهيئة حامله التي لاتدل على النظافة أو شيء من ذلك، ولقد كانت تناديه تلك المرأة بين حين وآخر مشيرة عليه بأن يسرع خطاه وأن يذهب إلى الناحية الأخرى من القطار لعله بائع شيئا لأحد المسافرين ، وأخيراً بلغ به التعب واللغوب مبلغهما وبح صوته ، غـــير أنه واظب عـــلى ندائه وكأنما القطار بانتظاره الطويل قد زاد من ألم هؤلاء الناس وضاعف أحزانهم وشقوتهم – وقـــد برد الشاى وصار كالماء البارد وهو لم يزل ينادى ! – ولقـــد إستحال وجه الفتى من تراكم التراب وفعـــل المطر وإجهـــاد الصوت . ولما تعب ذهب إلى تلك المرأة وأراد الجلوس إلى جانبها فما كان منها إلا أن دفعته إلى ناحية القطار ، ولكنه وقد خارت قواه لم يستطع الصراخ فصار ينـــادي في شيء من الهمود والإعيـــاء وفقدان الصوت : « شآى . . .

شأى . . شأى ! » حتى كأن صوته قد ابتلعته الرياح فيما ابتلعت فلم يعد يسمع له صدى ! . . . وصفر القطار معلناً سفرته رغم أن رذاذ المطر مازال يتساقط ، والرياح مازالت تعصف بين كل حين وآخر . . . فذهب هؤلاء الباعة مبتعدين عن القطار قليلاً ! . . . وسمعت هذه المحادثة والقطار يتحرك بين تلك المرأة وذلك الفتى . . قالت المرأة : « ها قد خسر الشاى ! من ذا الذى قال لك ضع القرشين فى مثل هذا الشاى ومن سيشربه لك الآن ؟ . . لتنام الليلة من غير عشاء . . ياقاسى الرأس ،ألم تر الرياح تهب حينما عملته ، أليس لك عينان ؟ » وظلت توبخه على هذه الوتيرة وهو ساكت ، وقد بلغ بها الحنق والغضب غايتهما ، فدفعته بشدة إرتج لها جسم الفتى ، وأخذت منه آنية الشاى ، وبعدها أخذ الطفل يبكى ويتنهد تنهداً حاراً ، فاقتربت منه فى عطف وأسى وأخذت رأسه بين يديها وخانتها قواها ، فانحدرت دمعة كبيرة من مآقيها ، ولما رآها الفتى على هذه الحالة ، إسترد شيئاً من شجاعته وقال لها : « ولكنك أنت يا أماه التى قلت لى أعمل هذا الشاى علنا نربح منه قرشاً ، وقد عملته كما أمرتنى ! » فأجابته بعد أن نظرت إلى عينيه الدامعتين ، وشكله المتئس ، قائلة فى صوت هادىء تخالطه مرارة دفينة ، وهم لاعج : « نعم ! أنا . . . أنا . . . . أنا السبب . . . . أسكت ياولدى . . الله فى ! ! » وبعد هذا المقطع لم أسمع شيئا بل رأيت الأم والإبن يتجهان نحو قريتهما فى خطى متثاقلة وسكون كئيب ، على حين كان المطر يزداد ، والأمواج تصخب والريح تولول هامسة ، وجسماهما يختفيان فى تلك الدكنة كنقطتين سوداوين وسط ذلك الظلام الدامس ! . . . . وابتعد القطار رويداً رويداً ، وصورة ذلك المشهد لاتفارق نظرى ، ونغم ذلك الجرس الصارخ المملوء لوعة وأسى « شا . . . . آ . آى » مازال يرن فى أذنى . . . . وإذا بصراخ بعض أفندية القطار يقطع على تفكيرى وذكراى فهو ينادى الجرسون : « واحد بيرة ، بس خلى الثلج يكون كثير شوية ، فاهم ! وقام البعض يلبس ملابسه ويصلح من هندامه إستعدادا لطعام العشاء ، وقال أحدهم وهو يربط رباط الرقبة « يالله . . . . أيه . . . . ياولاه . . . . أنت ليه ماجبتش الكرافتات الحرير ؟ ابق ذكرنى علشان ما نأخذ دستة من دفس براين » ! . . . . وأتى من بعد ذلك خادم « الرستوران » مشيراً إلى أن طعام العشاء قد آن ، فقام البعض فى مشية متثاقلة كلها خيلاء وكبرياء ، ورأينا هناك نفراً من الموظفين الإنجليز وهم جالسون فى غرفة الطعام يتكلمون بسرعة ويتبادلون النكات المضحكة ويدخنون . وكنت تسمع الأفندية من ركاب الدرجة الأولى والثانية وهم على مائدة الطعام الأنيقة ينادون بين حين وآخر « واحد توست » بينما القطار فى عدوه لايلوى على شيء .

في الخرطوم*

خواطر وذكريات محزونة

الوقت ليل . والكون ساج نائم . فما تسمع نأمة ولاترى حركة ، ولاتحس سوى الركود والإغفاء ، والسكون الشامل ، والظلام الصافي ، والهدأة الناعسة . ولقد تحس الحين بعد الحين حركة ضئيلة؛ أو تسمع صوتاً خافتاً فيزداد إحساسك بذلك الصمت ويشتد تقديرك لذلك السكـــون ، ويأخذك ذلك السحر ، وتستولي على نفسك تلك الهـــدأة ويغمرك ذلك الصفاء . فتروح في عالم الأحلام والذكريات وتدلف إلى عوالم الفكر والعواطف المشجيات . وقد خيل إلى أن الحياة قد وقفت فجأة ، وأن الوجود قد أخلد إلى نومة هادئة ، ويعديني ذلك الشجو والسهوم فلا أستطيع أنا الآخر حركة أو قياماً ، أظل أتبع حركة الماء الدافق أمامي حيناً ، وحركة مايجري في خواطري وأحاسيسي حيناً آخر ، وأنا جالس على أحد المقاعد على ضفاف النيل الأزرق في مدينة الخرطوم . والنيل ينساب في مشيته هادئاً كأنه صفحة المرآة المجلوة وعلى يميني في النهر بضع سفن بخارية وأمامي الخرطوم بحري وجزيرة « توتي » وعلى شمالي مدينة أم درمان ، يخيم عليها الصمت ويكسوها الليل ثوباً رقيقاً ، ويخيل إلى أن ذلك الشجر الحاني بعضه على بعض والذي يظلل شارع الشاطيء، وذلك النهر الهاديء بما فيه من قنطرة وأمامه من مدينة وجزيرة ومافوقه من سماء تحسبها لشدة زرقتها وإنكفائها على حدود النيل أن السماء نيل وأن النيل سماء ، وأن الكل صورة يمكن أخذها ووضعها في إطار للتأمل فيها وإستلهام الوحي منها ! . . وخطرت سفينة من تلك السفن المرصوصة؛ فحسبت لأول وهلة أنها لاشك طامسة أثر ذلك الجمال ، عابثة بذلك الهدوء الصامت متلفة لتلك الصورة الرائعة ، ولكنها لم تصنع شيئا من ذلك بل أعطت الصورة لوناً ، وزادتها حياة وبشراً ، ومايخيل للرائي أنها سفينة تعبر نهراً ، وإنما كأنها قلم يرسم خطاً على صفحة ، أو كأنها شهاب يشق عنان السماء في اتئاد وسرعة ! عجباً لمنظر النيل ليلاً ! . . ليس بعده جمال ولاجلال ، ومايفوقه منظر مما رأيت سحراً وروعة . وماتستجيش الخواطر ولايصفو الذهن ولايتـــألق الفكر ولاتكثر الذكريات وتغمر النفس فيضـــاً وحنيناً مثل ماتفيض النفس في حضرة النيل ، ويحن القلب ، ويحلو في كل ذلك الشجو والحنين .

ظللت الساعات وأنا مأخوذ بسحر ذلك المنظر ، في شبه صلاة روحية ، وخشوع فكري ،وجلالة تغمر النفس ،وتخلع على الحياة شعراً ،وتحيطها بالأطياف والأرواح ،وتملأها

* السياسة الاسبوعية – العدد ٢٤٦ – ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

بأسرار النفوس وخفاياها ! وبالقمدرة منظر كمنظر النيل على ابتعاث روافدها وزخر جميع تياراتها من حنين إلى المجهول ، وشجو الى الماضي ، وتطلع إلى المستقبل المنظور !

لم يظهر لى النيل فى تلك الليلة كالشيء السائل المائي ، وإنما هو بالتماسك أشبه وإلى مادة كالزئبق أقرب،فما تشهد شيئاً من العنف أو من الإندفاق الظاهر . وإنما تشاهد العمق البعيد متشحاً بثوب الهدوء والسطحية البارزة وتشاهد العدو السريع ولاتلمح شيئاً من آثاره ومظاهره . ولقد تسمع الوسوسة من حين لأخر بين نباتات المياه كأنما اشتدت بها الوحشة ، وكثر عليها الصمت والسكون ! ولكن العالم غاف ، وللعالم حرمة عندها ، فتنطق في صوت خافت،وتهمس بدلاً من أن تفصح ويعود الماء الى سكونه ووحشته الجميلة والعين لاتفتأ تنظر إليه ولاتتعب من ذلك ولاتحس إعياء ولافتوراً . ولقد يقع حجر فى النهر وسط ذلك السكون فيكون للصوت الذى يحدثه موسيقية لاتعثر عليها عند أعاظم أرباب الموسيقى والفنون ! وأسأل أحياناً : من أين ياترى تأتي هذه المياه وإلى أين هى ذاهبة ؟ أهى لاتفتر من هذه الحركة الدائمة والدائرة التى تنتهى لتبتدىء وتبتدىء لتنتهى. إلى أين أيتها المياه ومن أين ؟ ألا تفترين ؟ ألاتسخطين ؟ ألا تنتابك عوامل الضجر والسأم؟ فألمحها تسخر بي وتشفق على ، وعلى شفتيها إبتسام . وفى نفسها مرارة وهى تهمس خوفاً من أن تسمع « هكذا ، هكذا ، لقد نفذ القضاء . أليس من الحماقة والضيق التأفف مما لابد منه ولامحيد عنه ، ونحن أبناء الحياة ولاشيء هنالك غيرها ، أليس من الخير أن نتحملها ونكون عند ظنها ولانفتر عنها ؟ بل نحياها فى أناة ورضاء وابتسام وادع مرير . ذلك أحجى وأحكم لو كنتم تعلمون » . وكذلك تذهب المياه معززة حديثها بالابتسام والاصطخاب،ونسيانها للشعور بالنفس،وهزئها بشعور الملال والإعياء ! . . والماء فى جريه ووسوسته الدائمة يتخطى المدن والبلدان راكضاً وادعاً،يمثل فلسفة الحياة وكيف يجب أن يكون إحتمالها والتغلب على شعور الملال ودواعى الإعياء والسخط .

ويأتي النيل الأبيض من الناحية الأخرى وهو أكثر زبداً وصخباً من النيل الأزرق. قد ترى موجه المزبد وآذيه المصطفق يتكسر فى عنف وشدة على الشاطىء ، حتى إذا التقى بالنيل الأزرق عند الخرطوم شد من أزره وأخذ بساعده وتكاتف الإثنان معاً فى مرحلة الحياة التي ليس لها أول ولاآخر ، وهكذا يسيران وقد صارا نيلاً واحداً وقلت وحشتهما وزاد أنسهما ، فتلمح نجواهما وشعورهما بالرضاء الوادع . والحكمة الهادئة . وهما يندلفان فى سير سريع ماسار الزمن وبقيت الحياة . . !

وهذا الجمال ماشأنه ؟ هذا الجمال الساهى الوادع الذى تستمرئه النفس لأول نظرة ويفرح له اللب ، وتجزل الروح ، ماله يميل بذهنى إلى خواطر محزونة ، وصور مشجية ؟

هذه السفن التي تنبسط أمامي أجلها في خوف ـ ولعل السبب موت خال لي غريقاً في سفينة بحارية في النيل الأزرق . و« توتي » منبسطة هي الأخرى أمامي ، مالها تثير في نفسي شجواً حزيناً ، وما لشجوها الكئيب الذي لم يبق له إلا أن يدمع ، وما هذه الوحشة المخيفة ، ومالرمالها الناصعة تبعث في نفسي شعور الأسى والذكريات الأليمة ؟ . . وإنني لأذكر « توتي » وأذكر أياماً لي بها ، وأذكر زرعها وأذكر مجدها ، وأذكر تلك الخضرة ملء العين والبصر نهاراً ، وهي الجلال والأطياف والخوف ليلاً . وأذكر — وياالشدة ما أذكر ــ أذكر أبي وأذكر بيت أبي ، أذكر ذلك البيت القائم وسط الزرع وحيداً لا أخ له ، كالشارة الموسومة وسط ذلك الزرع الحافل ! . أين كل ذلك اليوم ؟ لقد مات أبي واضمحل الزرع وتهدم البيت ، ومابقي منه سوى الجدران والتراب ، وصار مأوى حيوانات ضارية ، تسكنه الهوام ويعمره الخراب الماثل للعيان .

وهــذا الشارع الجميل المنسق على ضفاف النيل الأزرق ماذا يترك في نفسي من إحساس ؟ لاتزال صورته التي رأيتها وأنا طفل بأم درمان مرسومة أمام ناظري وهي صورة فيها من الحنين والشوق والقدم مالاسبيل إلى وصفه . على أن مايعني العالم بخواطر حالم مثلي ؟ ! وهؤلاء بعض الناس يتحدثون في شغب وقد خرجوا من دور السينما . وربما كان هنالك حفلة راقصة ! وفي البحر حيتان ، وفي الشجر أطيار نائمة ، وغير هؤلاء وأولئك من أعمال متباينة ، وحالات مختلفة . ماذا يعني كل هذا التناقض سوى طريق الحياة وشموطا وعدم معرفتها للسهولة ، بل هي « الشدة » وهي القوة الغازية ! تلك هي أم درمان وادعة نائمة ، ومن يدري مابداخلها من المتناقضات ومختلف مظاهر الحركة والسكون ، وشتى مظاهر العاطفة والشجون ! وإنني لأذكر النيل الأبيض وسفرتي فيه وأنا مازلت صبياً حدثاً ، كيف نسيت نفسي في مرح وبساطة وأنا على السفين ! كلها ذكريات قوية واضحة ، تتسلل إلى ذاكرتي من حيث لا أشعر أنني في حاجة إلى« بروست»* آخر ليصف كل مايجري في وعيي المستتر في تلك اللحظة من الزمان . إنها لتملأ مجلداً ضخماً ومانتفي ! وإنني لأذكر ليالي المدرسة ، وسماعي لذلك « البوري » الذي يهز كياني هزاً ، ويلعج نفســي ويذكرها بمن مات من أهلي وأحبابي ! ولا أدري أي علاقة لذلك الصوت وتلك الذكريات المحزونة ، فلربما لأن خالي كان ضابطاً ، وأن ذلك «البوري » يضرب لعشاء الضباط ، وخالي قد مات ! . وأنظر إلى يميني فأذكر ضواحي الخرطوم وأذكر « بري » بنوع خاص ، لا أذكر « بري » اليوم وإنما أذكر « بري » التي لم أرها بل سمعت عنها ، وأصغيت إلى أناشيد الفتيات وأغانيهن في مدحها « بري الطراوة والزول

---

* مارسيل بروست قصصي بارع إشتهر بتحليله لحالات النفوس واللاوعي .

حلاوة » إن ذكر هذه الجملة ليمثل أمامي صوراً من الماضي قوية ، حية كأشد ماتكون حياة وقوة ! يالصور الماضي ويالشجوه وحنينه ! أذكر شوقي إلى الماضي ، وأذكر حنيني إلى المجهول ، وأذكر شعور الإغتباط والجمال الفني الذى أشرف عليه عند مشاهدتي النيل في تلك الليلة ، فأقول يا للعجب ! أتراني أود أن أعيش المـــاضي والحاضر والمستقبل في ساعة واحدة ! يالنهم الحياة ، وطبع الإنسان ، وعطش العواطف !

فأنا الآن أذكر كل هذا . أذكر الليلة القمراء بأم درمان وأنا صبى ألعب ، وأذكر مكاني من الخرطـــوم ومكان الخرطوم من الكرة الأرضية – إن صح أنها كرة – أذكر الخرطوم وجمالها الساهي ، وصفاءها الصامت ، ورونقها وأحلامها وصمتها وما يحيط بها من ضوضاء ، وما يتصل باسمها من أسماء تاريخية ، وهالات وحروب . وأذكر الحيتان في قعر النيل ، وأذكر الشجر في وقفته الكئيبة ، ووحشته الدامعة ، وأذكر عوالم أخرى شهدتها أو قرأت عنها . . وأذكر أبي وأذكر أختي التي فارقت هذه الحياة ،وأذكر هؤلاء الراقصين القاصفين ، وأذكر الجمال الماثل لعيني ، وأذكر غير هؤلاء أشياء كثيرة لاصلة بينها ولاقرابة عندها . . ! فأسأل نفسي ماذا تعني كل هذه الأشياء ؟ . . وليس من مجيب . . . سوى أننا في هذه الحياة وسنظل فيها إلى أبد الآبدين ، لانعرف عنها شيئاً يرتاح إليه الضمير ، ويسكن عنده الخاطر . وإذ أنا في هذه الخواطر المسائية أشعر برعشة في جسمي ، وأحس بدمعة في عيني . . . . فما أدري أهذه الدمعة شعور بجذل الحياة ، أم هي بكاء عليها ؟ . غير أنني أعرف أنني أذهب وأعمل بعد ذلك كما يذهب أناس كل يوم ويعملون ! .

أم درمان *

مدينة السراب والحنين

يدخلها الإنسان عن طريق القنطرة الجديدة المقامة على النيل الأبيض بعد أن ينهب الترام سهول الخرطوم الخضراء الواسعة ، فيلقى نظرة على ملتقى النيلين فى شبه حلم ، ويعجب لهذا الإلتقاء الهادىء الطبيعى . وذلك التصافح العجيب من غير إثارة ضجة ولا صوت ، فكأنما النيلان افترقا فى البدء على علم منهما وهنا يتلاقيان كما يتلاقى الحبيبان ويندمجان نيلاً واحداً ، فما ندرى أنهما كانا نيلين من قبل ولاترى فى موضع الإلتقاء مايشير إلى شيء من المزاحمة أو عدم الإستقرار مما يلاحظ عادة فى إلتقاء ما بين جهتين مختلفتين ، وإنما هنالك عناق هادىء لين ، وإنبساط ساكن حزين . فإذا فرغ المشاهد من هذا المنظر الذى لابد أنه آخذ بنظره مرغمه على التأمل ، إنتقل إلى الضفة الأخرى من النيل الأبيض فرأى البيوت الصغيرة مثبتة فى الصحراء ، ورأى السراب يلمع ويتماوج بعيداً ورأى بعض العربان وراء جمالهم المحملة حطباً تمشى فى اتئاد وفتور . ومن ورائها سراب ومن أمامها سراب ، فكأنما هى تخوض فى ماء شفاف . ورأى إلى شماله بعض ثكنات الجنود السودانيين مثبتة هى الأخرى فى أماكن متقاربة ، ثم سمع صوت « البورى » يرن حزيناً شجياً وسط ذلك السكون الصامت وفى أجواز ذلك الفضاء اللامع وتلك الشمس المحرقة ، فيحس بشيء من الحنين البعيد والحزن الفاتر المنبسط ويعجب لذلك المكان ماشأنه وشأن الترام الكهربائى والقنطرة والأوتوموبيل الذى يخطف كالبرق بين كل آونة وأخرى فى ذلك الفضاء السحيق. وإذا سار به الترام قليلاً فى إتجاه النيل رأى أول المدينة المعروف « بالموردة » ورأى السفن البخارية الآتية من أعالى النيل واقفة على الشاطىء محملة ببضائع تلك الأماكن الجنوبية كما رأى بائعى الذرة أمام حبوبهم المرصوصة فى شكل أهرامات صغيرة وهم يبيعون للمشترين وينطقون العدد فى نغمة إيقاعية موسيقية فيها شيء من الملال والترديد الحزين ، وفى مثل ذلك المكان كانت تباع الجوارى ويباع العبيد فى أسواق علنية مفتوحة فى عهود مضت ، وكان البائعون يتفننون فى عرض تلك الجوارى بما يلبسونهن من الحلى والزينات . فإذا سار الترام قليلاً وجد المشاهد نفسه أمام « قبة » المهدى — ذلك الرجل الذى كان له الشأن الكبير فى تاريخ تلك البلاد — ورأى تلك القبة مهدمة مهدودة كما رأى الجامع الواسع الكبير الذى بناه الخليفة عبد الله لكى يصلى فيه المصلون أيام الجمع والأعياد فوقف هنيهة يذكر عهداً مضى بخيره وشره وخالجه شيء من إحساس « الزمان » الذى لايبقى على شيء إلا مسخه وتركه باهتاً شاحباً بعد أن كان كله رونق وشباب !

---

* جريدة مصر العدد ١٠٢٠٣ — ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

وهنا يذكر الإنسان قصة ويذكر تاريخاً ويذكر حروباً أقامت عهد المهدية وتخللته وقضت عليه أخيراً .

وربما يرى في الشارع القائم بين ذلك الجامع وبين طريق الترام صبياً واضعاً رجلاً على رجل في حماره القصير وهو يمشي في طريق معاكس للترام ساهم النظر مفتوح الفم . ينظر إلى بعيد من الآفاق ويغمغم بنغمة حزينة ملؤها الشجو والفتور ناسياً نفسه ناظراً في ماحوله نظرة الحالم الناسي .

ذلك مشهد لن تخطئه قط في شوارع أم درمان . حركة خفيفة ساهية وغناء كئيب حزين كأنما يستعيد قصة مضت ، ويحكي رواية مجد وبطولة عفى عليها الزمان ودالت عليها الحوادث كما تدول على كل عزيز على النفس حبيب إلى الفؤاد ، ولم تبق على شيء سوى الغناء والسهوم الكئيب .

وفي ذلك المنظر يتجسم تاريخ أمة ونفسية شعب رمت به الطبيعة وسط ذلك الجو المحرق ، وتركت له صفات الصدق والبساطة في عالم لابساطة فيه ولاصدق ! هو شعب من بقية أمم مجيدة طيبة الأرومة ؛ إضطره الكسب والمعاش أن يهاجر إلى تلك البلاد ذات السهول الواسعة والصحراء المحرقة ؛ فكان تاريخه مأساة تتبع مأساة ، وماضيه كله الجرم والإثم . وهؤلاء المهاجرون من أذاقوا السكان الأصليين الألم وساموهم الخسف والعذاب ، كرت عليهم النوبة من أمم أخرى فكان نصيبهم الألم والتعب والخوف . وإذا كل السكان سواسية أمام عوامل الجو ودواعي الملال والسأم ، ومغريات الشعر والذكر وويلات الفقر ، وإذا بكل تلك العوامل المختلفة تترك طابعاً خاصاً على نفوسهم وسمات خلقهم وسحنات وجوههم لايخطئها الناظر العارف ؛ ولاتقل في الدلالة والشاعرية والحزن الكظيم عن تلك الخصائص التي يراها الإنسان على وجه الرجل الروسي الحزين !

وأبلغ مايدل على تلك النفسية وذلك الخلق الأغاني الشعبية التي يرددها الكل ، من أكبر كبير إلى الأطفال في الطرقات والشوارع ؛ بل انني لا أعرف شعباً فتن بأغانيه وأعجب بها فتنة السوداني وإعجابه بها . فأنت تجد الموظف في مكتبه والتاجر في حانوته ، والطالب في مدرسته ، والشحاذ والحمّار والعامل والمزارع والطفل الذي لم يتجاوز الثالثة ومن إليهم كلهم يغنونها ويرددونها في كل ساعة وكل مكان . ويأخذون من نغمها وإيقاعها معيناً لهم يعينهم على العمل ويلهب إحساسهم بدواعي النشاط والتيقظ الشاعر . بل بلغ إفتتانهم بها أن الرجل ربما يشتري « الاسطوانة » الغنائية بعشرين قرشاً وهو لايملك قوت يومه ، وقل أن يمر الإنسان بأي شارع من شوارع أم درمان إلا ويعثر على إنسان أو جماعة

تدمدم بتلك الأغاني في شبه غيبوبة حالمة وصوت باك حزين !

والأغاني لايمكن أن تذيع في أمة مثل هذا الذيوع وتحظى بمثل هذا الإنتشار إذا هي لم تعبر عن نفسية تلك الأمة أتم تعبير .

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أنهم يرقصون على تلك الأغاني الحزينة الكئيبة ولايرون فيها حزناً ولاكآبة لإعتيادهم سماعها وإرتباطها الوثيق بحياتهم . فإذا غنى المغني قائلا « ياحبيبي خائف تجفاني » وكان هذا المقطع الأخير الذي يرددونه مثل « الكورس » المسرحي وغناها المغني بصوت عال وترديد شجي ناعم طرب الكل وأشتد الرقص وأشتعل النظارة حماساً، ونسي كل نفسه في موجة طرب راقص . فيعرف المشاهد أن هذا الشعب قد وطد نفسه على قبول الحياة كما هي في غير ماثورة وكان له في آلامه الدفينة البعيدة القرار نعم السلوى عن الحاضر، ونعم العزاء عن الآلام والمتاعب . وتلك هي نعمة الإستسلام والحنين ومظهر الإستهتار بألم طال وتأصل فأنقلب فرحاً ونعيماً !

ونفوس السودانيين واضحة واسعة وضوح الصحراء وسعتها . وخلقهم لين صاف لين ماء النيل وصفاءه، وفيهم رجولة تكاد تقرب من درجة الوحشية، وهم في ساعات الذكرى والعاطفة يجيش الشعور على نبرات كلماتهم وسيماء وجوههم حتى تحسبهم النساء والأطفال ، وتلك ميزات لامكان لها في حساب العصر الحاضر . وإن كان لها أكبر الحساب في نفوس الأفراد الشاعرين وفي تقدير الفن والشعر والحضارة .

المكان *

قصة تحليليـــة

مقدمـــة :

(حينما فرغت من كتابة هذه القصة رأيت واجباً علي أن أعين القارىء العربي على فهمها ، لأن هذا الضرب من التأليف القصصي حديث العهد حتى في أوربا نفسها،وهو آخر طور من تطورات القصة التحليلية ،وفيه ولاشك صعوبة للقارىء،خاصة إذا لم يكن ذلك القارىء واقفاً على هذا اللون القصصي في الآداب الحديثة فأقول :

هذا النوع من الفن القصصي ليس من مهمته تصوير المجتمع ولاالنقد الإجتماعي ، ولا إستجاشة الإحساس والعطف القوى على الخلائق ، وليس من مهمته أن يحكى حكاية ، وإنما هويتناول التفاعلات الداخلية في عملية الإحساس والتفكير عند شخص من الأشخاص ويربط كل ذلك بموسيقى الروح وإتجاه الوعى . كما يعرض لمسائل الحياة العادية المبتذلة ، ويشير عن طريق الإيحاء إلى علاقتها بشعر الحياة ومسائلها الكبرى . وهو يعرض لذلك الجانب الغامض في تسلسل الإحساسات واضطراب الميول والأفكار وتضادها في لحظة واحدة من الزمان عند شخص واحد من الأشخاص . كما أنه يصور مايثيره شىء تافه من ملابسات الحياة في عملية الوعى وتداعى الخواطر ، وقفز الخيال ، وتموجات الصور الفكرية.هذا اللون القصصي —والحالة كما وصفنا— يعرض لأدق المسائل العلمية السايكولوجية المظلمة حتى للعلماء أنفسهم ، ويمزج ذلك بنـــوع من الشاعرية والغموض العـــاطفى ، ويخرج من كل ذلك تحفة فنية حقاً . ويغلب في كتاب هذا اللون القصصي أن يستثيروا نفوسهم ويكتبوا من معين حياتهم ، فكأنهم يترجمون لأنفسهم مع بعض الزيادة والنقصان وتغيير الأمكنة والأزمان والأسماء . هذا النوع إنتشر في أوربا وعرف منذ عشر سنوات تقريبا حينما أخرج « مارسيل بروست » الفرنسى روائعه القصصية كما أنه عرف في أتمه وأحسنه عند « كاترين مانسفيلد » و « فرجينيا ولف » من كتاب الإنجليز. ونود ولاشك أن يكتب وأن يعرف في وادى النيل .)

* * *

فتح مذكرته التى يدون فيها خواطره وأسماء الموضوعات التى يود الكتابة عنها فقرأ فيها أسماء هذه الموضوعات : (١) حماسة شاعر عصرى (٢) هكذا نحن ! (٣) حرفة الكتابة (٤) الأولاد الأشقياء في الليل (٥) إحساس بالمكان . ووقف عند هذا الموضوع الأخير يديم النظر فيه ويفكر متى كتبه ؟ إستجاش إحساسه بالمكان، فذكر أن للمكان من

* جريدة مصر — العدد ١٠٣٢٤ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٣١ .

كل ظاهرات الوجود النصيب الأوفر من خياله وإحساسه . وإستولى عليه شعور قوى يدفع به لتدوين مايحسه تجاه المكان . لكنه شعر أن الموضوع مترامي الأطراف متشعب النواحي لايستطيع صهره وتركيزه وتبويبه على الوجه الذى يرضيه ! وكيف يستطيع ذلك والموضوع شائع فى كيانه شيوع النور في الفضاء كله . وعلى كل حال إبتدأ بالطريقة الزمنية فى توضيح الموضوع ولم أطرافه واستعرض صفحة حياته من طفولته إلى عهده الحاضر .

فذكر أنه وهو طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من العمر، كان قد أخذه والده إلى بيت زوجته الثانية لكي يلتحق «بالخلوة» هناك . وبقي زمناً في ذلك المكان، كانت أعجب الظواهر العقلية عنده أنه حالما يستيقظ من النوم مبكراً على صياح الديك يذكر أهله وبيته. لكن شيئا واحداً أعجب له وظل يعجب له طيلة إقامته هناك، وهو أنه خيل إليه أن عنده مفتاحاً سحرياً يعرض أمامه السوق التى كانت تقع بالقرب من بيتهم فى كل حركتها وصخبها وحيويتها ولم يبق له لكى يصدق خياله إلا أن يشترى من ذلك البائع أو يضرب ذلك الرجل ! ! فلما كبر قليلاً ظن فى نفسه أن هذه الظاهرة غريبة فيه وأنه يجدر به أن يسأل الناس إذا كانوا يحسون ويتخيلون مثلما يحس ويتخيل . لكنه لم يفعل ولعل شيئا من الإشفاق على نفسه والخوف من الضحك عليه منعه من ذلك السؤال .

وكبر « مجدى » فأدخله والده المدرسة الإبتدائية فكان يرى حوائط المدرسة حينما تقرب العطلة الكبرى باهتة شائخة ويعاوده شيء من الإشفاق عليها، فلا يترك المدرسة يوم العطلة إلا بعد أن ينظر إلى كل حائط وكل شق ويذرع الحوش ثم يودعها ويلبث ينظر إليها وهو فى الطريق إلى أن تغيب عن نظره . . . . !

ثم راح « مجدى » إلى المدرسة الثانوية في الخرطوم . فكان وهو فى حجرة الدرس يكتب أو يستمـــع إلى المدرس تقفز به ذاكرته من غير أن يشعر إلى خرائب رآها قبل عشر سنوات في أم درمان ! ولايعرف ماعلاقة تلك الخرائب والأطلال التى لم يقف عندها في يوم من الأيام باللحظة الحاضرة، ومالها تلح على خياله وتصوره وتحتلهما من غير أن يناديها أو يفكر فيها أو يفكر حتى فى أم درمان كلها – وبعد جهد ليس بالقليل يستطيع صرفهما والإنتباه إلى حاضره . !

فإذا ذهب لينام في الليل وسمع صوت « البورى » الذى يضرب عادة لعشاء الضباط الإنجليز ذهب خياله تواً إلى من فقد من أهله وقرابته .

وأغرب من ذلك كله أنه كان لايسمع صوتاً إلا ويعطيه لوناً خاصاً . فصوت

البورى أصفر باهت، وصوت « الأتومبيل » أسود عامر السواد ، كما أنه كان ينظر إلى الأرقام المكتوبة كلها بخط واحد، فيتفاءل بالبعض ويتشاءم من البعض الآخر. ويعطى تلك الأرقام ألواناً: فالثمانية والأربعة ارقام عامرة طيبة، والخمسة والتسعة أرقام باهتة صفراء لايرتاح إلى رؤيتها أو التيمن بطلعتها !

وكان صوت ذلك «البورى» دائم الإقتران بصورة خاله الذى مات. وهو لايذكر ذلك الخال حينما يذكره إلا على صورة واحدة ولو أنه رآه فى مختلف الصور والأشكال. يذكره حينما كان معه فى المولد النبوى فى ليلة مقمرة فى حركة واتجـاه واحد بعينه دائمـاً !

وهذه الظاهرة هى الأخرى لايستطيع لها تفسيراً ، فإنه قل أن يذكر الناس الذين عرفهم من ماتوا من أهله أو من هم بعيدون عنه إلا فى هيئة الحركة . وفى أغلب الأحيان فى حركة بعينها وفى مكان بعينه ويوم وساعة بعينهما — فلا يذكر خادمتهم التى ماتت ، فى البيت مثلا أو فى المطبخ أو ماإليه من الأماكن التى طالما رآها فيها، ولكنه يذكرها فى مكان بعيد كان برفقتها فيه . فى مكان قفر بالقرب من النيل بعيداً عن المدينة وفى خطوة وإيماءة واحدة، حالما يذكر تلك الخادم يذكر ذلك المكان الغريب وتلك الإيماءة من غير قصد ولاتعمل ولا استحضار !

وهكذا فالصور التى رأى فيها والده مثلاً كثيرة ، ولكنه قل أن يذكره فى غير صورة واحدة وحركة واحدة ومكان بعينه !

* * *

وكان إذا قرأ عن مكان أو سمع به تخيله ورسمه فى مخيلته، فإذا ساعدته الظروف وذهب إلى ذلك المكان رآه مثل ماتخيله حتى الوضع وأشياء دقيقة لاتلوح فى خاطر إنسان. وقد يدهش أحيانا حينما يزور مكانا لأول مرة فيخيل إليه أنه قد عرف هذا المكان قبل الآن فى حياة أخرى ، والكل يظهر أمامه كحلم غريب ! . . . . لكن الألفة أو الإيناس الذى يشعر به نحو تلك الأمكنة ومنعرجاتها يخيل إليه أنه قد عرف ذلك وصحبه ردحا من الزمن لاشك فى ذلك ولاريب فيه . . .

فإذا أمعن فى التفكير والتعليل ظن أن هذا الذى نسميه «زمناً» وهم لاأصل له « Illusion » أو خرافة تخلقها عقولنا « Fiction » وأن الحقيقة الواحدة الباقية هى « المكان » واننا أحياء من أوائل الأزمان إلى أواخر الآباد فى صور وأشكال ومواد مختلفة كلها لها حظ من « الوعى » يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأفراد والأشياء . وعلى هذا الزعم فللحوائط والمادة الصماء والأشجار وعى وإحساس من نوع وعينا

وإحساسنا، إلا أنه قليل في الكم بنسبة حظ تلك الأشياء من الحياة والحرية والحركة ! وأن مهمتنا نحن أن ننتقل من شكل من أشكال الحياة ونمر على تلك الأدوار في تلك « الأثناء » التي نسميها الزمن، وهو مصدر ذلك الإحساس، وسبب ذلك العطف الذي نحسه نحو أشكال الحياة المختلفة من غير أن نعرف سببه ! . .

ويرى « مجدى » أن بعض أحلامه تتكرر فيرى أمكنة غريبة في بلاد لم يعرفها: فلا يمر عام أو عامان حتى يسافر إلى بلد من البلدان يرى فيه نفس ذلك المكان الذي رآه في حلمه من قبل أعوام ! . . .

ولمجدى عادة تقلقه ولاتريحه، لكنه يحس في ممارستها والشوق اليها راحة وطمأنينة. فهو إذا لم يضع ملابسه وكتبه وسريره في أمكنة بعينها وفي أوضاع خاصة لايرتاح باله قط . فإذا وجد أقل تغيير في وضع كتبه وملابسه غيرها إلى نفس الوضع والمكان لأنه يتفاءل بأمكنة بعينها ويتشاءم من أخرى .

وقد يلج به هذا الإحساس المكاني في ساعات تيقظه إلى ماهو أغرب من ذلك . فإذا مر بالسوق لج به الخاطر أن حياته لاتكمل إذا لم ير كل الدكاكين والشوارع . فإذا فرغ من هذه العملية ود لو أن في مكنته أن يدخل كل حوانيت البقالة ويرى من قرب حوائطها الداخلية وزواياها وترابها، كأنما لكل تلك الأشياء قصة معه، وهو لايعلم من أمر تلك القصة سوى هذا الإحساس العارض الذي يقلقه في بعض الأحيان ولايرتاح ضميره إلا حين ينفذه ! .

إستعرض «مجدى» كل تلك الذكريات والصور والأسباب في خياله في لحظة واحدة من الزمان وظل يفكر . . . يفكر . !

« مامعنى كل ذلك ! . . . معناه . . . . . معناه . . . . . نعم معناه أن الإنسان لايموت أبداً . وأن مايسميه موتاً هو في واقع الأمر تغيير لشكل الحياة، وأننا نحن والسماء والأرض والأمكنة كلها أخوان وأولاد أعمام وهذا هو سبب العطف والكلف بالمكان !

فقالت له نفسه الثانية « لاهذا غير صحيح. وإلا فلماذا يمتاز بعض الناس بهذه الخصلة والبعض الآخر لايعرفها. ألاتذكر ماقرأت في كتب « السايكولوجى » أن بعض الناس بتركيبهم أقدر على تخيل المرئيات، وآخرين على المسموعات، والبعض الآخر على المشمومات، وبعض الطلبة يفهمون أكثر إذا قرأوا الكلام مكتوباً والبعض الآخر إذا سمعه منطوقاً » .

« نعم، هذا صحيح، ولكن مامعنى كل ذلك أيضاً ؟ ! » .

مرة أخرى وهو في وادى التفكير العميق ! « معناه . . . معناه . . . ماذا يهمني معناه . هذه هي الحياة وكفى . . . وليس من معنى لأن نعتقـد أن وراءها معنى . . ! معناها أنها الحياة ويكفينى أن أصور الحياة كما أراها،وليس من مهمتي أن أفسر كل ظواهرها ، فلعل هذا الإضطراب وعدم مقدرتنا على ردها إلى سبب واحد هو من خواصها الأساسية . وليس من ذنبي ولاذنب الحياة أن الناس ينظرون إلى أشياء وراء الحياة . . لعل هذه هي لعبتها الكبرى علينا.وضحكتها المكبوحة التى لايفتر ثغرها عنها . ويكفينى أن أحكى الحياة بالعرض دون التفسير . فلعل العرض نفسه هو التفسير،ولعل الإعتقاد أن وراء كل ظاهرة ظاهرة أخرى خدعة من خدع المنطق . فلنحك الحياة في تقييد خواطرها وولائدها ولانكن حمقى فنطلب التفسير والتعليل، إذ الحياة تعرف الخلق الذكى ولاتعرف التفكير والتعليل فلأعرض تجاريب إحساسي بالمكان كما أحسست به ورأيته، وليعلل ذلك كل وفق مزاجه وتفكيره إذا كان لابد له من التعليل والتفكير . . . !

هذا هو منطق الحياة الصميم. وهكذا يجب أن يكون منطق الفنان الذى يحكيها . . . وارتاح إلى هذا التفكير كثيراً . وإبتدأ يلم أطراف موضوعه تهيؤاً للكتابة النهائية . فخط في وسط السطر « إحساسي بالمكان » وكتب :

(١) كيف أنني أذكر الأشخاص الذين عرفتهم دائما في مكان بعينه ويتكرر ذلك المكان كلما ذكرتهم !

(٢) كيف أننى فى ساعات الدرس والتحصيل تلح فى ذاكرتي صور خرائب وأمكنة رأيتها منذ عشرات الأعوام فتزورني من غير أن أناديها . وقد يقفز بي مكان فى بلد إلى مكان في بلد آخر لا أعرف ما العلاقة بينهما قط ولاأستطيع أن أعرف .

(٣) كيف أتخيل بعض الأمكنة ومواقعها قبل أن أراها . فلما تسعدني الظروف برؤيتها تكون وفق ماتخيلت فى أغلب الأحيان !

(٤) كيف أحس أن المكان الذى رأيته لأول مرة فى حياتي هذه قد رأيته من قبل في حياة سابقة أخرى !

(٥) كيف أن خاطرى فى بعض الأحيان يلح بي لكى أذرع حوائط الدكاكين الداخلية — التى لا أعرفها — وأتمعن فى ترابها وزواياها كأني قد تركت روحاً هناك !

وبعد أن كتب هذه الأشياء شعر بأنه قد تعب وفتح مذكرته التى يدون فيها خواطره وأسماء الموضوعات التى يود الكتابة عنها فقرأ فيها أسماء هـذه الموضوعات :

(١) حماسة شاعر عصرى (٢) هكذا نحن ! (٣) حرفة الكتابة (٤) الأولاد الأشقياء بالليل (٥) إحساسى بالمكــان . !

فقام فجأة من الكرسى ثم رأى وجهه فى المرآة ثم إبتدأ ينظر إلى الأفق من شباك غرفته وأراد أن يفكر غير أنه أحس أن رأسه أصبح فراغاً مطلقاً . . . !

الموت والقمر *

الساعة الثامنة ليلاً، والجزيرة هادئة صامتة. والقمر يفيض أمناً وسلاماً على المزروعات الخضراء. وسكان الجزيرة الذين فتروا من جهد اليوم المضني إستراحوا إلى منازلهم ليستعيدوا قواهم ويجددوا أعصابهم.

تلك هي جزيرة « توتي » التي تقع عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. وهي في زمن الفيضان جزيرة حقاً، وفي ماعداه شبه جزيرة كبيرة — هي مزيج من الزرع الأخضر ومن الرمل الأبيض الناصع البياض.

ركب القاسم بن اسماعيل وإبن أخيه جلال الدين الصغير القارب الذي ينقل الركاب مابين أم درمان وجزيرة « توتي » وكان جلال الدين أثناء تلك السفرة بين عاطفتين قويتين: عاطفة الخوف من تأرجح ذلك القارب الصغير الذي كان يغطس إلا بعضه في أمواج النيل. وعاطفة الجمال الذي يراه في البحر وسينظره في الجزيرة التي سمع عنها كثيراً ولكنه لم يرها.

— « هيله بيله » يردد المجدف بين كل حين وآخر.

— الملوخية في سوق أم درمان غالية قوى.

— أيوه. ويا أخي بياخدوها منا رخيصة خالص.

— انت قلت لابن عمك إيه امبارح.

— لايأخي مالكش حق.

— وبعديــن . . .

يتكلم المزارعون من الركاب في شؤونهم الخاصة كأن المركب الذي يركبونه لايتأرجح، وكأن لاقمر صافي البياض رائع النور ولاشيء غير عادي. وجلال الدين كأن ليس معهم: دائم الخوف من هذا العالم الجديد المخيف المفرح معاً!

وصلا إلى الشاطيء ذي الرمال البيضاء الغزيرة. وأخذ القاسم بن اسماعيل وأبن أخيه جلال الدين الصغير يمشيان في تؤدة وحذر لأن الطريق طويل إلى القرية؛ والمشي متعب مضني. وأرجلهما تسوخ في تلك الرمال الغزيرة فيقتلعانها إقتلاعاً، وكانا وهما في في ذلك الطريق الضيق والمزروعات العالية من شمالهم ويمينهم ومن قدامهم وخلفهم، لايسمعان سوى صفير الرياح الهادئة يداعب أعالي المزروعات ولايريان مدى بصرهما سوى الأشجار تتمايل في حركة خفيفة يقرب أثرها من الوحشة والخوف، ولايسمعان

* جريدة مصر — العدد ١٠٣٧٧ — ١٢ يناير سنة ١٩٣٢.

إلا فحيح بعض الحشرات وهمس النسائم . وقد تأتي الرياح المتقلبة بين حين وآخر بنباح كلب متقطع ، غائر الصوت ، بعيد الأثر .

قال جلال الدين وسط ذلك الصمت الرائع « أسمع حركة بالقرب منا » !

– آه . لاتكن جباناً إنها حركة حشرة من حشرات الأرض .

– أشعر بخوف شديد ، خصوصاً وقد سمعت من أبي أن في توتي بعض لصوص يتربصون بالمارة ليـــلاً .

– إيه الخوف ده ياجلال، إن مثل هذا الصفاء ومثل هـــذا الإشراق والسكون والنور لايمكن أن يكون معها أي خطر .. محال !

وإستمرا في طريقهما . ووقع أقدامهما يرسل موجة من الصوت يرن صداها في آذانهما فيخيف ذلك جلال بعض الشيء،ويستولى على كيانه شيء من الحذر والتوجس المخيف .

إقتربا من القرية فزال منهما ذلك الانقباض والسكون،وشعرجلال الدين بأنه رجع إلى نفسه حينما رأى الأبقار وسمع «خوارها» . وبعض الأطفال يلعبون جماعات جماعات وهم جلوس على ذلك الرمل الأبيض . ووقف نظره بنوع خاص عند رؤية قروية تحلب بقرة من أبقارها وطفلها الصغير يصرخ داخل البيت ، وهي تناديه باسمه بين حين وآخر لتؤكد له أنها موجودة راجعة إليه حالاً .

– آه هي دي « توتي » بقه !

– أيوه دي « توتي » مش كويسة ! ؟

– فين بيت عمي ، هو العرس مش بكره ! ؟

– أيوه قريب من هنا . بس عاوزين نزور خالتي خديجة في الطريق قبل ماتروح البيـــت .

– طيب .

ودخلا بيتاً صغيراً فوجدا خديجة جالسة في سريرها ساهمة ناسية نفسها تردد أغنية محزونة وبجانبها إبنتها الصغيرة عائشة،فكان ظهورهما مفاجأة عند خديجة لم تكن تنتظرها خصوصاً وهي غير مستعدة في ذلك الوقت لاستقبال أولاد أختهـــا « أولاد المدارس » النظيفي الثيـــاب .

– اتفضلوا . أهلاً وسهلاً يامرحب شرفتم .

وفرشت لهما ثوباً نظيفاً على السرير الثاني . ونسيت مرض إبنتها عائشة .

– « مالك البنت بتصرخ » ! سألها اسماعيل في شيء من الرفق .

– البنت قطعت لحمي . كل يوم بمرض جديد . حمح هي أحسن بكثير من زمان .

واقترب اسماعيل من البنت فلمس جلدها الذى كان يتوقد حرارة

– دى عندها حمى شديدة قوى !

– لايقولوا عندها ملاريا . صبينا منها ومن ملاريتها اللي اتعبتنا طول السنة .

– امتى عرس بنت خالتك ؟ أعملي للقاسم وجلال الدين شاى يافاطمة .

ونادت على إبنتها الكبيرة ، وجلست أمام عائشة فسدت عليها الهواء فى تلك الغرفة الضيقة ، وابتدأت تتكلم مع القاسم فى شؤون شتى متجاهلة صراخ إبنتها المحمومة ، وكلما اشتد عويل البنت وصراخها إقتربت منها أختها الكبيرة قائلة لها فى شيء من التأنيب :

– ماتسكتي يابنت أنت مش شايفه الضيفان والا أيه ؟

– العرس بعد بكره .

– انشاء الله كان نحضر يوم عرسك أنت يا اسماعيل .

– آه . . . آه . . . آه . . . !

– ماتسكتي يابنت ما كفانا ! .

– مسكينة ، ما اعطيتوها كينا ولاحاجة ؟

– أظن أن ده أول يوم يشرف فيه جلال « توتي » بلدنا .

– ايوه وكان خايف طول الطريق من الحرامية زى ماقال .

– لا ماهو صغير . دى مافيش بلد أمان أكثر من « توتي » !

إستمرت الأم فى حديثها مع الضيفين ، وتجمع فى ثيابها بين كل حين وآخر ، ظاهراً على وجهها الإهتمام بزيارة أقاربها هؤلاء .

– « آخ يا إيدى . . ! » كادت البنت المريضة أن تزهق روحها .

– « مالك ! مالك ! » وهى لاتدرى أنها قعدت على يدها . « ماتشربوا الشاى يا اسماعيل والله أزعل إذا ماشربتوا . »

فشربا قليلاً بالرغم من قذارة أقداح الشاى لإرضاء خاطرها . وزاد فى تقزز جلال الدين الصغير أن شاهد فى نفس الغرفة عدة المطبخ وأواني الأكل المتسخة تحت السرير يحوم حولها الذباب وسواء قطة سوداء . كما شاهد فى سقف الغرفة حبالاً عليها ملابس قديمة منتشرة . وشعر الفتى الصغير بضيق يمسك بصدره ، فلا نوافذ يدخل منها الهواء ولانور سوى بصيص مصباح صغير .

شعر جلال الدين بأنه يرغب في الخروج خصوصاً وهو يعرف أن النور خارج الغرفة ينتظره ، لكنه كان خجولاً فبقى على مضض منه .

إقتربت فاطمة – بعد أن جمعت أواني الشاى ، وكانت تسارق اسماعيل النظر من حين لآخر وتلتهم حديثه التهاماً – من أختها عائشة المريضة وسألتها إذا كانت تريد قدحاً من الشاى . فلم تنطق بل ظلت راقـــدة مسبلة الأجفان في غير حراك . أدارتها بيدها وحاولت إيقاظها ولكنها كانت في سبات أبدى . عندئذ صرخت صرخة داوية . .

– « أخـــتى . . . ! »

فسألتها أمها : « مالك يابنت » .

– « شوفي عائشة يا أمي ! » فنظرت الأم مخلوعة الفؤاد إلى إبنتها وحركتها بيدها .

ولما لم تنطق أو تستيقظ صرخت الأم وابتدأت في الإعوال والبكاء ومعها بنتها . صعق اسماعيل وجلال الدين ، واستولى عليهما صمت رهيب ، وسمع الجيران ذلك الإعوال فجاءوا معزين . واختلط عويل النساء مع أصوات الكلاب التي ابتدأت تعوى هي الأخرى عند سماعها لهذا الصراخ العالى وسط ذلك الصمت والسكون !

* * *

والبدر في عليائه يسكب النور ويتخطى بعض السحائب الرقيقة وئيداً غير حافل بما في الأرض ، يمشي مشية الواثق المتئد بينما كلاب القرية تعوى ويمتزج عواؤها مع صراخ النساء .

كانت فاطمة في تلك الأثناء تبكي وترى صورتها بين كل آونة واخرى لابسة ثوبها الجديد الذى أعدته لعرس إبن عمها فيزداد بكاؤها ويشتد .

وخديجة ترى نفسها في صورة الأم المكلومة جالسة حزينة وأقرباؤها يأتون إليها معزين قائلين « البركة في فاطمة » فيعطيها ذلك الإحساس شيئاً من الرضاء وعاطفة الحنان وأهمية النفس !

تسلل بعد ذلك اسماعيل وابن أخيه بعد أن عزيا – في خفوت وتلصص – وهما من تلك المفاجأة في اندهاش وتفكير متعدد التيارات !

وظلا يمشيان في هدوء إلى أن قطع جلال الدين ذلك الصمت مستفسراً « أظن العرس سيؤخروه يا اسماعيل ! » .

لم يجب اسماعيل ، وظلا يمشيان في صمت وإنكسار . والكلاب مازالت تعوى والنساء مازلن يعولن . والقمر مازال يرسل نوره الهادىء فتبدو الجزيرة كأنها ترفل في حلة من نـــور .

خواطر يوميـة

لايصح ولايعقل *

ينشر الأستاذ زكي مبارك في جريدة البلاغ أبحاثاً في الأدب العربي بأسلوب يظنه حضرته غاية التحقيق العلمي مع أنه خلو من التواضع العلمي، يكثر فيه من تأكيد شخصيته ويأتي بلفظة « أنا » بين كل حين وآخر مع أن السياق لايتطلب ذلك . ويقرر آراءه في لون صارخ وهو يبحث مسألة علمية ليس للعاطفة والحماس من مكان فيها . ويكفيه في ذلك المنطق وذلك التحقيق أن يقول « وأنا أرى غير ذلك ! » أو « ليس من المعقول أن يكون الأمر كما قالوا » من غير أن يقول لك السبب في عدم معقوليته . ثم لايكفى بعد ذلك كله أن يكون الشيء غير معقول لأذهاننا لترفضه . فالأشياء والآراء المقررة صحيحة إلى أن تتجمع البينات ضدها — وليست هي غير صادقة لأننا لانستطيع البرهنة عليها على الوجه الذي يرضينا ! ! .

ولنعط القارىء نماذج من طريقة الأستاذ في البحث فهو يقول: « ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التي سبقت الإسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن. لأن التطور الكبير الذي ينقل اللغة من وضع إلى وضع لايتم في خمسين سنة مثلاً. » لم ؟ هل هذا تحقيق علمي ! ثم هاك رأياً آخر صرفه بلفظة « لايعقل» قال: « بعد ذلك ينبغي أن ننظر في نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض وهي أيضا في « رأيي » قديمة لايصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الإسلام في القرن الأول والثاني كما يظن مؤرخو الآداب العربية لأنه « لايعقل » أن يظهر كتاب كالقرآن في أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير» . أرأيت هذا المنطق الذي هو غاية العجب أن يصدر من إنسان يزعم أنه درس طرائق التحقيق العلمي المنطقي ؟ ومن الذي قال له: « إن الكتب الأدبية تظهر بعد التفكير في علوم الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير. » هذه الأشياء إنما تستنتج إستنتاجاً من الكتب الأدبية وليست هي التي تقرر الأعمال الأدبية وطرائقها ! .

ويقول في مكان آخر في صدد الحديث عن الأدب المعاصر للقرآن :

« أفيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب في وجهها ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء.» ويستنتج من كل هذا الذي لايعقل أن هذه الحركة فعلاً وجدت — منطق سكلانس ! !

أو «وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلاً كمحمد يقضي سهراته . . . الخ » تسمح أو لا تسمح مادخل ذلك في تقرير الحقائق العلمية ؟

---

* جريدة مصر الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

مثل هذا الكلام يقال في أحاديث المجالس ولكنه لايكتب على زعم أنه تحقيق علمي .
ويقول في مكان آخر :

« وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدركوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة ، فإنه « لايصح » لنا أن نستنتج أنهم لم تكن لهم حياة أدبية مهمة تصور ميولهم وأذواقهم ، وعواطفهم ومشاعرهم ، وكفرهم وإيمانهم ، ووفاءهم وغدرهم . . . » يصح أن نقول إنه لاحياة أدبية عندهم لأن الطريقة الوحيدة لمعرفة الحياة الأدبية هي الكتابة . فإذا لم توجد تلك الكتابة فالتاريخ لا تهمه الفروض والصحة وعدمها — بل الأنكى من ذلك وأدعى إلى العجب أن يقفز الأستاذ من ذلك ليقول :

« وإنما ينبغي أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوي متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه » .

لماذا ؟ لأنه لايعقل أن لايكون لهم أدب ؟ ! .

أم لأنه ليس لدينا نصوص تدل على تلك الحياة الأدبية وإذاً يجب أن نعتقد أن هنالك حياة أدبية ! !

وإقرأ هذه القطعة المنطقية وأضحك في سرك من فضلك . لان الأستاذ لايود أن يسمعك ، قال :

« والذى قضى به ابن فارس فى نشأة النحو والعروض هو الذى نقضى به « نحن » فى نشأة البديع . بل نشأة البديع أظهر وأوضح . فإن القرآن سجل مظهراً من مظاهر الزخرف وهو السجع — فهو إذاً كان موجوداً قبل الإسلام » .

يا للمنطق ويا للسرعة « إذاً » . . . . إن الحقائق العلمية يا أستاذ زكى لاتقرر بمثل هذا الكلام الغريب ، فكون القرآن سجل مظهراً من مظاهر السجع لايدل بحال من الأحوال ولايستلزم أن يكون موجوداً قبل الإسلام . ويمكننا على هذه الطريقة أن نقول لأن السجع وجد قبل الإسلام لابد قد وجد في العصر الحجرى ! ! .

و « أنا أرى » « ولايعقل » ولا « يصح » و « إذاً » ألف من هذه الأشياء تذكر ولاتدل إلا على عكس المنطق والتحقيق العلمي ، ولاتقدم شبراً واحداً في البرهنة على نظرية واحدة إذاً ، ولايصح أن تدل ولايعقل كما أرى أنا شخصياً .

تكريم النبوغ *

من أخبار لبنان خبر ذلك الإحتفال الفخم بتشييع نعش الأديب جبران خليل جبران وإشتراك الشعب في ذلك الإحتفال والتقدير .

وهذه ظاهرة رفيعة في الشرق العربي ، فجبران لم يكن بالرجل الشعبي الذى تفهمه الجماهير حتى ولاعامة القراء من المشتركين في إقامة تمثاله ومشيعي نعشه .

فكتابات جبران ليست مما يسهل فهمها إلا لأخص الخواص من الأدباء والمتأدبين . فلقد كان الرجل حالماً لايمشى برجليه على الأرض ولايخاطب بقلمه مسائل اليوم والساعة . وإنما كان يحلق فوق الجماهير ، ولايخاطب إلا أعمق حقائق الموت والحياة فى تعبير هو غاية الشعر الرمزى . وهو لم يقدر حتى من خاصة الأدباء والمتأدبين إلا بعد أن راجت مؤلفاته الإنجليزية فى أوربا وأمريكا وكتب عنه النقاد هناك .

فكيف أساغت الجماهير عظمة هذا الحالم الخيالى الذى لم يكن يسكن دنيا الجماهير ولايعبأ بما ينالها من خير وشر — على الأقل فى الظاهر ؟

لاشك أن تلك ظاهرة أقل مايقال فيها أنها تؤذن بتيقظ فى الشعور العـــام الشرقى وتدل دلالة بعيدة على تكريم النبوغ والاحتفـــال به بعد موته ! . وليس أكرم ولا أبعد دلالة فى هذا التكريم من أنه موجه إلى رجل من رجالات الفنون الرفيعة التى ماتزال غير مفهومة فى الشرق أجمع .

وكثير من أولئك المشيعين والمحتفلين بجثمان الراحل العظيم ذلك الإحتفال ، لم يقرأوا لجبران حرفاً واحداً ، ومنهم من قرأ ولم يفهم . وقليل هم الذين قرأوا وفهموا .

ولكن بعد ذلك كله فهم نبلاء . نبلاء لأنهم يكرمون عبقرياً تسامت فيه الحياة فأخرج ذلك الفن الذى لايخطىء الناظر إليه طابع جبران بأى حال من الأحوال ، سواء فى رسومه أو فى تعبيره وخيالاته الشعرية .

وأجمل من ذلك وأدل على التقدير أن تشترك الحكومة اللبنانية وحكومة الأنتداب رسمياً فى تكريم الراحل وتشييع نعشه .

كل هذه ظواهر جميلة . وأجمل من ذلك كله أن تظهر هذه الظواهر فى تقدير رجل كجبران . هو رجل فن قبل كل شىء . والفن غير مقدر لدى الشعوب سواء فى الشرق أو فى الغرب .

---

* جريدة مصر السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ .

غاندى *

نشرت الصحف أخيراً خبر مقدم «المهاتما غاندى» إلى مصر في طريقه إلى إنجلترا ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة. ونود أن لا تمر زيارة «المهاتما غاندى» لهذا القطر مع السيدة الشاعرة «ساروجينو نايدو» من غير أن يكون لنا من ذلك أروع العبرة وأبلغ الدرس. فهذا الرجل الهزيل البنية العارى الجسم، له من الأثر فى العالم اليوم مالا يناله إلا القليل من بنى البشر. لم تقتصر زعامة غاندى على الهند أو ما جاورها، بل تعدتها إلى أوربا وأمريكا. فلـ«غاندى» من الأتباع والمعجبين فى المانيا وأمريكا العدد الوافر. وكثير من الناس ينظرون اليه نظرتهم إلى المسيح ويحجون إليه فى الهند كما يحجون إلى بيت الله الحرام. ويعتبره كثير من كتاب الغرب من أعظم الرجال الذى ظهروا فى تاريخ العالم، أو أعظم رجل فى العالم اليوم بلا نزاع!

لم كان كل هذا التقدير لذلك الرجل الضعيف المظهر العارى الجسم؟ وأى شىء أناله تلك المكانة الرفيعة فى قلوب أعدائه وصحبه على السواء؟ وأغرب من كل ذلك وأدعى إلى دهشة القارىء أن يعلم أن «غاندى» يعينه فى حركة اللاتعاونية فى محاربة الإستعمار الانجليزى، أصدقاء إنجليز هم أوفى الاصدقاء وأحب الناس إلى قلبه وأكثرهم له عبادة وحباً!

فـ«غاندى» يغزو قلوب البشر لأنه مبشر بدين المحبة؛ وهو قوى لأنه لايستعمل العنف. وهو رجل سياسى ناجح لأنه رجل مبادىء إنسانية قبل أن يكون سياسياً، ومبادئه وأعماله وسلوكه شىء واحد. فأعماله تتبع مبادئه، وسياسته هى وفق آرائه فى الطبيعة البشرية. فهو يحيا ويفكر ويعمل حياة واحدة هى نتيجة إقتناع داخلى ومبادىء سامية.

ولقد كتب أخيراً تاريخ حياته بنفسه، وذكر فى تلك الحياة ماحدث له فى بساطة وماعمله هو فى صدق. فإذا عمل عملاً اقتنع هو بخطئه إعترف بذلك، ولم يكتف بذلك الاعتراف بينه وبين نفسه، بل أعلنه للجمهور وأعلنه لأعدائه. فهذا الرجل لايقول بأن الجماهير سوف لاتفهمنى، أو أن الحياة السياسية تستلزم منى أن أكذب، أو على الأقل أن لاأصارح أعدائي بأخطائي وآرائي، وأن أساعدهم فى ساعة حاجتهم. ولكنه يجذب الجماهير والأعداء اليه فى عوالمه العالية ويقنعهم بوجهة نظره.

وعندى أن غاندى بلغ هذا المبلغ الرفيع فى الحياة الإنسانية لأنه تعلم كيف ينظر

(*) جريدة مصر الأحد ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣١.

إلى مايسمى « شخصيته » نظرة مجردة من الهوى كما ننظر نحن إلى نبات أو جماد . وإنه تمكن بواسطة ذلك أن يتسيطر على ميوله الذاتية. وأن يضبط عواطفه ويعامل ذلك الجسد الذى يسمى « هو » معاملة العالم لمواده البعيدة عنه فى حيدة تامة وضبط للنفس وتنقيب وراء الحق؛ لأنه حق لخير البشر ودفع للإنسانية كلها لأن تحيا الحياة الكاملة المجردة من أهواء الجسد، وعوامل الأثرة، وغوايات الطمع، ونزوات الميول بين فرد وفرد وبين شعب وآخر .

نعم « إن ذلك من عمل الآلهة لا من عمل الخلائق الهالكين » !

تشارلي شابلن وغاندي *

جاء في الأنباء التلغرافية أن « تشارلي شابلن » حظى بمقابلة « غاندى » وقد تمت تلك « المقابلة الغريبة » في المســاء عند عودة « غاندى » من قصر « سان جيمس » كما تقول تلغرافات « البلاغ » الأغر ، وأن «تشارلى» كان يجلس بكل احترام إلى جانب «غاندى» المتربع على الأرض وهو يتلو صلواته !

ولعل نعت تلك المقابلة « بالغريبة » يمثل شعور عامة الناس الذين يعرفون في غاندى ذلك الزعيم السياسى ، وذلك الرجل المتقشف ، ويعرفون عن « تشارلى » ذلك الممثل الهزلى الذي يضحكهم ويسليهم بضروب فكاهاته !

ولعل الذين يعرفون «تشارلى» (الرجل) على حقيقته ويعرفون «غاندى» (الرجل) القديس لايرون في تلك المقابلة أقل غرابة . فليس شك أن تشــارلى رجل عظيم وعنده من خصائص الروح والفكر مايدنيه من «غاندى» ويتصل به عن قرب . فالمجاوبة النفسانية بين«غاندى» (الفنان القديس) وبين «تشارلى» (الفنان المفكر) أعمق من كل تلك الظواهر . وأصح دلالة وأبعد مغزى من دلالة السياسة والتمثيل .

« وتشارلى » ليس بأمير المضحكين فحسب ، وإنما للرجل مشاركات كثيرة في الفلسفة والموسيقى وشئون الفكر عامة . كما أنه رجل ذو قلب كبير وإحساس مفعم بالشعر والخيال . ولعل إجادته في التمثيل الهزلى ماهي إلا ناحية من نواحى تلك الشخصية الكبيرة وذلك الروح العظيم . فلو لم يكن « تشارلى » ممثلاً عظيماً لكان شاعراً عظيماً أو موسيقياً نابهاً . أو لكان مجيداً في غير تلك من الفنون والآداب !

و« غاندى » — في أخص خصائصه — فنان بالسليقة ، وما إشتغاله بالسياسة إلا حادث طارىء في حياته . لعله كان يكون أعظم لو لم يتعرض لها — كما يعتقد طاغور —بل ان«غاندى» نفسه لم يكن يحفل بالسياسة ولم يكن له أى ميل إلى الأشتغال بها كما يظهر ذلك واضحاً جليا في تاريخ حياته الذي كتبه بنفسه !

ورأى الناس في تلك المقابلة غرابة لأنهم يرون«غاندى»الزاهد في متع الحياة ولذاتها . ويرون «تشارلى»متمتعا بالحياة ضاحكاً لها ممثلاً لهزلها وضحكها . وفاتهم أن حياة «تشارلى» مملوءة بالشجن والحزن والحنين إلى اللانهاية ، وأن تمثيله المضحك ماهو إلا « رجع » ذلك الإحساس الحزين ، وأن «غاندى» في تقشفه وزهده من أشد الناس تفاؤلاً بالحياة واستمتاعاً

---

* جريدة مصر الجمعة ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

بها استمتاعاً لايعرفه الكثيرون .

غير أن الناس يعتمدون على المظاهر فيما يصدرونه من أحكام وما يقررونه من آراء !

وأحسب أن مقابلة « تشارلى » لـ « غاندى » هى من أسعد المقابلات وأحقها . وأن حديثهم تناول شيئاً خلاف السياسة وخلاف التمثيل، وسيكون كل منهما سعيداً بمقابلة أخيه ، قرير العين برؤيته . فليس أسعد ولا أشد عزاء للإنسان من أن يقابل إنساناً آخر هو فى مهنته بعيد عنه ، فى روحه جد قريب !

ساروجيني نايدو *

حق لنا أن نقف هنيهة ونذكر — والصحف فى هذه الأيام طافحة بأخبار زيارة « غاندى » ومؤتمر المائدة المستديرة — أن في رفقته إمرأة هندية فاضلة ، هى الأخرى ستحضر مؤتمر المائدة المستديرة . نعم ستحضر مؤتمر المائدة المستديرة إمرأة ؛ وإمرأة هندية ! و ستساهم بنصيب وافر في تقرير مصير بلادها !

هذه المرأة الفاضلة هي السيدة «ساروجيني نايدو» الشاعرة والخطيبة والمجاهدة فى سبيل تحرير بلادها ذلك الجهاد المعروف .

فهذه المرأة خطيبة من الطراز العالى ، تمتلك على الجمهور سمعه وبصره وتقوده أني شاءت وهو أكثر ما يكون لها حماسة وانقياداً .

وهذه المرأة مفكرة مدبرة يصطفيها « غاندي » من بين كل صحبه لتقود حركة العصيان المدني من بعده في حالة سجنه ، فتؤدى تلك الأمانة أحسن أداء وتبلغ تلك الرسالة أبين بلاغ !

وهذه المرأة من بعد كل هذا شاعرة مجيدة الشاعرية ، إذا ذكر شعراء العالم فى الوقت الحاضر كان اسمها في طليعة من يشاد بذكره .

وهذه المرأة قد إحتملت آلام السجن ونصب النضال والجهاد الذى لايطيقه كثير من الرجال .

فإذا ذكرنا كل هذا ، فليقف القارىء ويذكر أن فى مصر أناساً يعادون تعليم المرأة ويحرمون عليها الإختلاط بالرجال فى معاهد الثقافة ودور التعليم ، ويبيدون تلك المعاهد إذا هى تأسست وفرغ من تأسيسها ، وبذلك يقضى على كل أمل فى أن تنجب مصر إمرأة كالسيدة « نايدو » !

هذه المرأة سوف تجلس جنبا لجنب مع مولاى « شوكت على » فى مؤتمر المائدة المستديرة ! فما رأيه فى ذلك ؟ وهل هى إلا إمرأة ؟ ! فكيف أبيح لها أن تقرر وتناقش وتناضل فضلاً عن الإختلاط فى معاهد العلم وحلقات الدراسة ؟

إن البلاد تكون عظيمة بنسائها عظمتها برجالها .

هذه بديهية ولكنها تحتاج فى مصر الى تقرير ! وما أحوجنا فى هذا البلد إلى تقرير البديهيات !

---

* جريدة مصر السبت ٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

إن قصة المرأة في الشعر والتمثيل وبقية الفنون وفي نهضات الشعوب وفي ميادين الحروب قصة معروفة مشهورة ؟ فهل يتأتى كل ذلك من غير احترام المرأة واستقلالها وحسن الظن بها ؟ ! كلا ومابنا حاجة لأن نقول كلا !

ففي الهند « نايدو » وحولها رهط كريم من فضليات النساء .

وفي تركيا «خالدة أديب » وأترابها، تكتب الكتب وتمتطي صهوة الجواد وتفعل مالايفعله كبار الجنود !

ولقد قرأت أخيراً كتابا لمؤلفة تركية حديثة اسمها « سلمى أكرم » كتبته بلغة إنجليزية فصيحة تقص فيه تاريخ حياتها الذى هو تاريخ حركة تحرير المرأة فى تلك البلاد الشرقية فى صراحة نادرة ، وفكر حصيف . وجمال فى الأداء والتفكير ، مما أطلق ألسنة نقاد الأدب فى الغرب بالثناء عليها ومدح كتابها وعده من أحسن ما أخرجت المطابع من تراجم فى هذا العام !

كل هذه الحوادث تحصل حوالينا وفى بلاد شرقية ونحن مانزال نتحدث عن اختلاط الجنسين — فى دور التعليم — « كفكرة جديدة » إباحية لايصح التسليم بها ! !

شخصية غاندى من خطه *

شاهد القراء مما نشرته الصحف خط « المهاتما غاندى » وخط السيدة « ساروجيني نايدو » فيما كتباه من تحيات وأمان للشعب المصرى المجيد .

ونود أن نشرك القراء بهذه المناسبة في حديث « الخط » ودلالته على الشخصية .

يزعم بعض الباحثين أن للخط دلالة كبيرة في معارف الخلق وسمات الشخصية غير أنهم يختلفون في درجة تلك الدلالة وصحتها على الدوام . فمما لاشك فيه أن لخط اليد دلالة كبرى على خلق الإنسان وشخصيته ، حتى أن لدى بعض الشركات والمصارف الكبرى رجالاً أخصائيين في فحص خطوط طالبي الوظائف وتعرف خلقهم وسماتهم ومتجه سلوكهم .

وفكرة الشخصية فكرة يهتم بها علماء النفس في هذه الأيام . كثيراً . ويولونها كبير عنايتهم وبحثهم .

فالبعض ينقب عن « الشخصية » في لون الشعر ، والبعض الآخر في شكل العيون ومعالم الوجه وشكل الجمجمة ، وآخرون يقتنصونها في هندام الرجل وطريقة مشيته وتحيته وصوته إلى آخر الخصائص والشيات التى تزخر بها الكتب التى كتبت في هذا الموضوع .

وعندى أن أولئك العلماء الذين يولون خط الإنسان عنايتهم الكبرى في تعرف الشخصية هم أقرب الباحثين إلى الصواب ، وأدنى إلى إصابة هدفهم ، وأنت لايمكنك أن تجد ذلك الرجل الذى يستطيع التزوير في خطه . حتى في محاولته التزوير تظهر خطوط شخصيته واضحة جلية ليس إلى إخفائها من سبيل .

ولقد قرأت كتاباً جديداً في هذا الموضوع ، وقمت بتجاريب كثيرة لتطبيق تلك النظريات في خطوط أناس لا أعرفهم . فكنت أصيب دوماً في تعرف خصائص تلك الشخصية أو أقرب من الصواب .

والذين شاهدوا خط غاندى كما شاهدت لابد أن يستنتجوا منه بساطة ذلك الخط وقربه من خط صبية المدارس ؛ وفي ذلك دلالة واسعة على بساطة خلق غاندى بساطة تقرب من بساطة الأطفال في براءتها وطيبتها . كما أن لخلوه من الزركشة والأناقة معنى آخر نجد له صدى في خلقه وسلوكه ، وفي انحنائه قليلاً الى الوراء معنى من معاني قوة الإرادة والثبات .

وفي خط الشاعرة « نايدو » نجد الأناقة والجمال والدقة ، كما نجد في التواء بعض

---

* جريدة مصر الخميس ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

حروفها لوناً من ألوان الخيال المكبوح . وفي تفكك حروفها بعضها عن بعض معنى من معاني الصبر والتريث، كما أن في عمق حروف ابتداء كلماتها وامتلائها بالحبر وتمكن الخطوط المقاطعة وتأكيدها وطولها دلالة على القصد والتأكيد والتثبت من الأمور ، وفي بعد كل كلمة عن الأخرى معنى من معاني الأريحية وكرم الروح والنفس !

وخطها في مجموعه خط فنان لايخطئه القارىء في دقته ونظام حروفه وأريحيته !

إستقالة وزير *

عرف القراء مما نشرته الصحف أن من بين أعضاء الوزارة الإنجليزية ثلاثة من العمال من بينهم مستر « توماس » الذى كان يرأس الإتحاد القومى لعمال السكة الحديدية. والذين قرأوا خبر إستقالته من ذلك الأتحاد ثم قرأوا خطاب إستقالته وماتضمنه من نغمة نبيلة لابد أن يكونوا قد استوقفهم ذلك الخلق النبيل وتلك الثقافة الرفيعة .

فهذا الوزير الذى يستقيل — أو يضطر إلى الإستقالة — من رئاسة ذلك الإتحاد الذى ظل يعمل فيه منذ عام ١٩١٥ — لهو مثال الشهامة والتضحية وكرم الأخلاق . وفى قصة إستقالته درس بليغ لنا نحن معشر الشرقيين عامة وللمشتغلين بالسياسة والأحزاب السياسية فى مصر خاصة .

وهذا الوزير يرغم على الإستقالة من منصبه فيستقيل فى ظرف دقيق . وكان يستطيع بما له من حق أن يستأنف قرار الهيئة التنفيذية لإتحاد العمال ؛ ولكنه لم يفعل خوفاً على الحزب من الإنشقاق والتصدع أو ماهو شر من الإنشقاق والتصدع .

ولقد كان يبكى وهو يسلم خطاب إستقالته،ويعتقد أن تلك الإستقالة « هى آلم حوادث حياته وأحزها فى فؤاده » .

فالاختلاف كان جوهرياً بينه وبين الهيئة التنفيذية مما جعل العمل سوياً أمراً متعذراً. فترك كل منهما الآخر فى إحترام متبادل وحزن عميق لمنطق الحوادث ومجرياتها !

ويعتقد مستر «توماس»أن إستقالته من الوزارة القومية الجديدة—التى قبل العمل فيها عن إقتناع شخصى — يعد جبناً منه وضعفاً ينأى بنفسه عنه . وهو يعتقد أنه بانخراطه فى سلك الوزارة الجديدة يؤدى أحسن الخدمات لعمال السكة الحديدية الذين أحبهم وأحبوه ، كما أنه يؤدى واجباً قومياً يشعر من أعماق ضميره بأنه يناديه ،ولقد قال «ابتدأت عاملاً صغيراً أنظف القاطرة وأنا لم أبلغ الحادية عشر من عمرى، وكنت طيلة تلك المدة عاملاً مخلصاً وخادماً للاتحاد أميناً . فإذا إضطررت أن أترك الإتحاد اليوم رسمياً فإننى سأذكر دوماً تلك الثقة العالية التى أولانيها عمال السكة الحديدية وإتحادها،وسأكنز تلك الذكرى فخراً عشت من أجله وهى بذلك جد جديرة ، كما أننى مقتنع بأن التاريخ سوف يبرر عملى القومى هذا وينصف تصرفاتى . »

المخلص لكم

ج . هـ . تومــاس

---

* جريدة مصر الجمعة ١١ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

هذا ماكتبه ذلك الوزير العامل فى خطاب إستقالته الجليل !.

أرأيت كيف يترك الإنسان حزباً ؟ أرأيت النبل فى العاطفة والرجولة فى تقرير الأمور تمتزج بنزعة إنسانية شجية وخلق صميم ينأى بالرجل عن سفاسف المنازعات وتفاهاتهـا ؟

فهذا الرجل العامل — الوزير الحالى — يضطر إلى الإستقالة فلايدمدم ولايشنع ولاينتقد ولايكابر، بل يحل مكان كل ذلك النبل وكرم الروح وسعة الصدر والتسامح والإخاء والثقافة الصحيحة .

فلنتعلم هذا الدرس النبيل من ذلك العامل الصميم ؟ .

نحن وجائزة نوبل *

في بلاغ أمس الأول كلمة بعنوان « غاندي وجائزة نوبل » علق فيها الكاتب على الخبر القائل بمنح «غاندى» جائزة «نوبل» للسلام .

وقد وقف الكاتب يستعرض رجال الهند الذين حازوا جائزة نوبل كل منهم في ميدانه مثل « بوز » و « طاغور » ثم قال :

« ولكن لماذا تحرز الهند وغير الهند جوائز « نوبل » ولانحرز نحن شيئا منها ؟ لماذا ؟ هذا هـــو مايجب أن يتناقله القارىء المصرى ويتعرف أسبابه ، لأن حرماننا من هـــذه الجائزة ظاهرة تدل على نقص في إجتماعنا وأدبنا ولغتنا وعلومنا . . . فحرماننا منها حكم سيء علينا ! ! » .

وإنه لكذلك : نعم إنه لحكم سيء علينا وسيء جداً ، لا لأننا لم نحرز على جائزة « نوبل » فقط ، ولكن لأن علمنا وأدبنا لايكاد يكون لـه أثر أو صدى بين أمم أوربا والعالم أجمع ؟ ولم يسمع للآن بشيء إسمه أدب مصرى مع كثرة صخبنا وحديثنا عن الأدب وملء أعمدة صحفنا بما يسمى أدبا وثقافة وفنا !

والذنب ليس ذنب البيئة المصرية كما أراد بعض الكتاب أن يظن : ولاهو عدم إحتفال الشعوب الأخرى بمنتجاتنا . أو إحتقارها لنا كما يظن البعض الآخر . وإنما العيب عيبنا والنقص نقصنا وماندعوه بإسم الأدب والفن وتملأ به أعمدة الصحف والمجلات بريء من الأدب والفن . والإجداب إنما هو إجداب من يتصدون للأدب والفن ، والعقم إنما هو عقمهم . فلم «تنال» مصر جائزة «نوبل» في الأدب أو غير الأدب إذا كان كل أدبنا محصوراً في الكلام عن إبن حزم أو من شاكل إبن حزم ، وكل صفحات جرائدنا الكبرى مكتظة بالبحث عن الحطيئة أو الأدب الجاهلي ، أو « إرم ذات العماد » أو « نظرية تنقل الشعر في القبائل » أو « لقد جدت الحرب بكم فجدوا » أو « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » وأمثال هاته الأبحاث التي لو عثر بها المؤرخون بعد مائة عام لاختلط عليهم معرفة العصر الذى يؤرخون وحسبوا هذا العصر العصر الجاهلى أو صدر الإسلام !

لم نولى العصور العربية الدراسة وكل هذه العناية ، ونكتب عن صغائر الأمور فيها ونترك ماهو أولى بالبحث والدرس والعناية ؟ !

من سمع أن صحف إنجلترا المعاصرة لاحديث لها الآن إلا عن هومر وكيف كتب

---

* جريدة مصر الثلاثاء ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

إلياذته، أو ان مجهوداتها الأدبية مقصورة على الكتابة عن «تشوسر» و «سبنسر» و «رالى» !

ويقيني لو أن هذا حدث من بعض كتاب الغرب لحسبهم الجمهور القارىء يهزلون ولايجدون، ولضحك منهم وسخر. ولكن ذلك لم يحدث ولن يحدث طالما كان لأدباء الغرب حاسة الفكاهة والاتزان التى تنأى بهم عن مثل تلك السخافات وتدفع بهم لأن يولوا شؤون عصرهم عنايتهم كلها فيصوروا حياتهم ومضطرب أهوائهم ومشاكل مدنياتهـــم !

إن هذا الذى نسميه أدباً عندنا يسمى تبطلاً فى الغرب ! وإن هذا الذى تزخر به صحافتنا الأدبية السيارة لايمكن أن ينشر إلا فى كتب المستشرقين وسجلات البحوث المقتصرة على الدوائر التاريخية العلمية . وبعد هذه الأشياء عن الأدب الحى هو بعد التجارة عن الشعر !

أبعد كل هذا يحق لنا أن نسأل لماذا لم تنل مصر جائزة « نوبل » ! ! ؟

هل من موطن للأدب *

نشر أديب فاضل في « بلاغ » أمس الأول مقالاً أسماه « هل نعيش في الأدب على موائد الغرب إلى الأبد ؟ » عرض فيه لإعجاب الأدباء في مصر بالأدب الغربي، ثم قال إن ذلك الأدب مبيد لروح الإستقلال والخلق في مصر، وان الإعجاب به هو إعجاب «أعمى» وأثار بذلك مسألة الأخذ عن الثقافة الغربية وكيف أننا نختلف عن الغربيين في المناخ والتقاليد إلى آخر الأسباب المعروفة !.

والذي إستوقفنا في ذلك المقال نغمة خطرة وفكرة خاطئة نود أن نصحح النظر اليها، وأن نفهم المسألة على وجهها الصحيح !.

فإذا سأل سائل كما سأل الأديب الفاضل « هل نعيش على موائد الأدب الغربي إلى الأبد ؟ » كان جوابنا كلا ! ولايمكن أن يكون غير ذلك جوابا.

ولكننا نسأل الكاتب الفاضل الذي أزعجنا بالحديث عن الحطيئة وأمثاله من الشعراء « هل نعيش على أدب العرب إلى الأبد ؟ » . ذلك ما أود الجواب عليه !

وليفهم حضرة الكاتب الفاضل أن الحديث عن الأدب الغربي وفصله عن كل أدب وثقافة ،هو حديث سطحي لايدل على علم ولابصر بحقيقة الأمور.

فليست هنالك حضارة غربية محضة أولاً، ثم حضارة شرقية خالصة ثانياً . وليس من السهل أن نتكلم في شؤون الفكر والفن فنقول هذا لهذا وهذا لذاك ! !

وإنما الثقافة تراث إنساني ليس لانجلترا أو النمسا أو الصين أن تستأثر به وتقول للآخذ منه « هذا لي وليس لك فيه أي حق » .

وأقل إلمام بتاريخ الفكر وتيارات الثقافة الإنسانية يدعم مانقول . فما نسميه الآن ثقافة غربية هو في الأصل وواقع الأمر ليس كذلك ؛ وإنما هو ثقافة إنسانية ساهم فيها الشرق والغرب وإشتركت فيها جميع الديانات والآداب والفلسفات والفنون.

والثقافة الغربية وبالتالي الأدب الغربي هو نتاج للفكر « الهليني » والإحساس العبري والأديان الشرقية والعلوم والفلسفات العربية والهندية الخ .

فأنت ترى من هذا أن لكل شعب مشاركة في مايسمى ثقافة غربية وأدباً غربياً. وأنه من حقنا نحن في مصر أن نطلع على الأدب الإنجليزي أو الألماني ونتمتع به في حفز قوانا الفكرية كما تأخذ إيطاليا أو فرنسا من الثقافة الانجلوسكسونية أو من الدين الشرقي

* جريدة مصر السبت ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١.

من غير أن تشعر أي واحدة منهما أنها تستعير ، أو أنها عائشة على موائد الغير ! .

والثقافة حق مشاع ، وليس لأى شعب أن يستأثر بها . وهي حق الإنسان وحق الإنسانية وصلت اليه بعد تاريخ طويل من التضحيات وقيام مدنيات وانهيار أخرى .

فإذا فرغنا من هذا الذي تقرر وددنا أن ننتقل إلى فكرة أخرى بديهية ولكنها في مصر تحتاج إلى تقرير وإثبات ! وهي أن الآداب في أي أمة من الأمم لاتنتعش ولاتثمر إلا تحت تأثير ثقافة أجنبية تحفزها . هذا ماحصل في العصر العباسي ، وماحصل في عصر النهضة الأوربية ، وما يحصل كل يوم بين كل الشعوب . وهو ماحصل في مصر الآن وما نود أن يحصل بصورة أتم وأجلى .

فإن الأدب الغربي هو خلاصة جهاد طويل وثقافات متعددة عمل فيها الصقل وأنضجها الزمن وزكاها التاريخ . « فليس غريبا أن نتغذى بما فيه من ثقافة وتهذيب » كما يقول الكاتب ، ولكن الغريب كل الغريب أن لانفعـــل !

نزع السلاح *

عادت الصحف الأوربية تتكلم عن مؤتمر نزع السلاح وضرورة الإهتمام به بعد أن رأى العالم نتيجة الحرب الماضية تتجسم فى أزمة مخيفة ، وبوادر حروب جديدة ، واستنفاد للخزائن القومية فى معدات الحرب وآلات القتال المختلفة مع فقر هذه الأمم وحاجتها إلى المال تصرفه فى غير هذه الشؤون ، وغير تلك المرافق .

والذى نعجب له فى هذه الحركة أن الحروب لايمكن أن توقف بهذه الطريقة السلبية ، وأن السلام لايمكن أن يكون أساسه التخوف والحذر والإتفاق على إنقاص المعدات الحربية مما يجعل كل أمة تتوجس شراً — فى سرها — من الأخرى ، فتلجأ إلى الممالأة والنفاق والتسلح الخفى . وكلما ألحت أمة من الأمم فى ضرورة نزع السلاح أو تخفيضه زاد الشك فى نفوس الأمم الأخرى ، وتنبهت إلى الخطر الذى يحيط بها أو توهمته كذلك .

وهذا ماحصل بالضبط قبل نشوب الحرب العالمية الكبرى . فلقد كانوا يتفاوضون بين كل حين وآخر فى ضرورة إيقاف التسلح ، بينما كانوا يعملون سراً فى بناء السفن وإعداد المعدات الحربية . وأخيراً لم تجد تلك المفاوضات شيئاً فى إخماد روح الحرب والضغائن الكامنة . فنشبت الحرب و . . . . إلى آخر القصة ! .

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أن الأمم المنادية بنزع السلاح كمقدمة للسلام العالمى ، تعمل فى تمجيد أبطال حروبها ، وتعلم ناشئتها التاريخ من وجهة قومية ضيقة ، وتبث فيهم روح القومية . ولاتتورع من تغيير الوقائع وطمس الحقائق لمثل هذه الأغراض . ثم نسمع الساسة والكتاب يتكلمون بكل فصاحة عن السلام والاخاء العالمى ! !

ومحال أن يكون هنالك سلام أو اخاء عالمى بهذه الطرق وأشباهها ، وإنما السلام يكون بنزع الضغائن لابنزع السلاح . والاخاء يكون بعد إبادة روح الجشع والأثرة والإستعمار وما إليه من الصفات الروحية قبل أن يكون مسألة آلية يمكن حصرها ونزعها . وكل جهد من هذا القبيل جهد ولاشك ضائع !

وطالما بقيت الدوافع النفسانية التى تدفع بالأمم إلى الحرب . وطالما بقيت الأحلام القومية وحب السيادة والجشع المالى وما اليه من صفات الأثرة متأصلة فى نفوس الأمم فلا سلام ولا اخاء ولاتقدم عالمى . وستبقى الحروب وستبقى الأزمات الاقتصادية والويلات

---

* جريدة مصر الاربعاء ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

العالمية ــ وربما كانت كارثة الحضارة كلها ــ إلا إذا رجعت الأمم إلى نفسها وعرفت أن رخاء جاراتها وسلمها هو رخاء لها وسلام عليها . بذلك وحـــده تتحقق أمنية العالم في السلام والتقدم المضطرد . والحضارة الثابتة !

أديسون *

جاءت الأنباء التلغرافية منبئة أن « أديسون » — كبير مخترعي العصر — قد فارق الحياة بعد أن ازدادت عليه الآلام وألح عليه الداء .

ونود أن لايرحل رجل مثل « أديسون » من غير أن يكون لنا في حياته وفي رحيله أبلغ الدرس وأوفره .

فهذا الرجل قد عاش طيلة حياته للإنسانية—وحياته كلها تضحية واحدة كبيرة، فهو لم يعرف ماهي مسرات الحياة وملذات الحواس بل كان يعيش في مختبره لخير الإنسانية وسعادة « النوع » .

بل هو لم يعرف النوم كما تعرفه بقية الأحياء . فلقد كان يسهر الليل كله ، وربما ظل يعمل الليل والنهار إلى أن يهجم عليه النوم هجوماً ؛ فيستريح إلى غفوة هادئة يقوم بعدها مستأنفا عمله . و« أديسون » هو القائل إن النجاح في الحياة ٩٩ في المائة «عرق» — كناية عن الجهد والنصب — و١ في المائة «وحي» كناية عن الذكاء والعبقرية .

ولقد برهنت منتجاته على صدق زعمه ، فهو قد عاش طيلة عمره الطويل و«العرق» يتصبب من جبينه . لم يكل ولم يمل ، فأتي بتلك المدهشات وأحصيت مخترعاته فجاءت بالمئات والآلاف !

وفي «أديسون» ولاشك يتمثل مبدأ « الإيمان بالواجب » .

وإلا فما الذى يدعو إنساناً كـ«أديسون» ليكرس كل حياته لخدمة الإنسانية ، وليحرم على نفسه لذاذات الحس البريئة ومتع الحياة والأهواء ؟

هذا هو الإيمان بالواجب في أعلى مظاهره ، يتجسم طوراً في أعمال رجال الفنون والآداب ،وطوراً في دعاة الوطنية والسلم ،وفي أعمال المكتشفين والمخترعين ،وفي غير هذه من نواحي النشاط البشرى .

هذا هو الإيمان بالواجب الذى غنى أغنيته « جوزيب ماتزيني » في إيطاليا في كتابه القذ « واجبات الإنسان » .

وهذا هو الإيمان بالواجب الذى حين يؤديه الإنسان يموت وهو يشعر بأنه قد ترك العالم وهو أحسن مما دخله .وأنه قد إشترك في تشييد الحضارة والثقافة « بوضع حجر » في هيكل ذلك البناء الخالد .

وذلك خير عزاء باق في عالم لابقاء فيه ولاثبات .

---

* جريدة مصر الثلاثاء ٢ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

الجامعة المصرية *

قرأت في « بلاغ » أمس كلمة عن الجامعة المصرية وجهها الكاتب لنقد قسم الدكتوراه في كلية الحقوق وفقدان النشاط العقلي والإنتاج الفكري في ذلك القسم . وكيف أن « الكلية قد افتعلت ذلك القسم إفتعالاً » وكيف أن الكلية قد بدأت تحس بالسآمة والملل من ذلك القسم إلى آخر ما جاء في كلمته .

والذي نلاحظه في الجامعة المصرية بوجه عـــام أنها ينقصها أهم مميزات الجامعات وخصائص « الروح الجامعي » ولو أن لها مظاهر الجامعات الكبرى وازياءها، لكن ذلك كله لم يتعد المظاهر الخارجية. فهي تستخدم كبار الأساتذة وتدفع لهم المرتبات الضخمة من غير أن ينتفع الطلاب بثقافة هؤلاء الأساتذة . ولاأن تهيىء الجامعة لهم سبل ذلك الإنتفاع والاختلاط .

وكل مهمة هؤلاء الأساتذة أن يلقوا كذا من الدروس كل في مادته الخاصة . وليس يعنيهم بعد ذلك أ إنتفع الطلاب بهذا الذي يلقى أم لم ينتفعوا ! !

ثم يذهب أولئك الطلبة كل منهم إلى منزله الخاص . فلا اختلاط متين بينهم وبين الأساتذة ، ولامناقشات في مابين الدروس ، وأخذ ورد يشحذ الفكر ويدفع به إلى التمحيص والتحقيـــق .

وكل واجبات الطالب أن يحضر كذا من المواد في السنة . وأن ينجح في «ورقة» الإمتحان النهائي وفيما بين ذلك ليفعل مايشاء فلا رقيب ولا واجبات ولانظم جامعية !

فإذا كان ذلك كل ما فهمه الطلاب من فكرة الجامعة فإنها لفكرة خاطئة لانعرف كيف تفوت على من يهمهم شأن الجامعة .

وليس بنا حاجة لأن نقول إن الجامعة « وسط » قبل أن تكون معهداً لتلقي المعارف والعلوم . وإنها « مؤسسة » تشير إلى مجهودات الأمم الفكرية وخصائص عبقريتها ، وتنتج لها من الشبان من يشيرون إلى أنبل وأعمق خصائص تلك الأمة ومنتجاتها الفكرية ومساهمتها في الحضارة العالمية .

وليس قصاراها أن تمنح كذا وكذا من الشهادات وأن تلقى فيها الدروس على هذه الطريقة « الاسكولاستكية » العتيقة .

والسبب في كل هـذا الإرتباك والبعد عن جادة الصواب مرجعه إلى حب مظاهر

---

* جريدة مصر السبت ٣ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

الأشياء دون بواطنها وصميمها .

والهوة بين الطلاب وهؤلاء الأساتذة واسعة عميقة ؛ فقد حدثني صديق لي يعرف الأستاذ « دوبريه » أن هذا الأستاذ كان يضطر لشرح الكلمات الانجليزية البسيطة للطلبة وهو يحاضرهم في الأدب وفلسفة الدراما .

فإذا لم تنجح الجامعة المصرية في إحياء « الجو الجامعي » بمعناه الكامل الشامل كما هو معروف في الجامعات الغربية كانت كل مجهوداتها عبثاً لايستحق عناءه .

تحديد النسل *

أثار باحث إجتماعي منذ أيام مسألة تحديد النسل على صفحات هذه الجريدة التي علقت عليها بتخطئة الفكرة لأسباب عدة .

وقد عادت الصحف تلهج بالمسألة . واستطلع صاحب مجلة المصور الإجتماعية رأي سمو الأمير الجليل «عمر طوسون» في موضوع تقليل النسل الذي يدعو إليه بعض المفكرين كما تقول جريدة البلاغ ؛ وكان رد الأمير بلاشك ضد هذه الفكرة الخاطئة التي لامبرر لها.

ونقول «خاطئة لامبرر لها» لأننا لانعرف علام يستند الداعون اليها . أيستندون على علم «اليوجنكس» وهو لايقول «بتقليل النسل» وإنما يقول بتحسينه ؛ أم يعتقدون أن مسألة البطالة وما اليها من الأزمات الإقتصادية يمكن أن تحل بمثل هذه الفكرة الغريبة ؟

إن مسألة البطالة وما إليها من المسائل الإقتصادية مرجعها — في صميم الأمر — إلى النزاع الدائم بين أصحاب رؤوس المال وبين العمال . وكلما تفاهم رجال العمل ورجال المال واقترب كل منهم إلى الآخر مؤثراً مصلحة الأمة على مصلحته الذاتية وكان التعاون إساس تلك العلاقة ؛ لا المنافسة ولا الخوف ولا الحــذر ؛ حصل الوفاق وكان النظام الإجتماعي على مايحب له طلاب السلام ودعاة الخير الإجتماعي .

ومهما يكن من أمر فليس في تقليل النسل — بقصد التقليل — أي مبرر . بل له كل الخطر وكل الأذى في كيان الأمة كجسم حي نام .

وقد أتاحت لي هذه الفرصة أن أقول إن فكرة « تحسين النسل » بمنع الضعفاء والفقراء من التناسل فكرة هي الأخرى خاطئة لانصيب لها من الصحة والسداد إذ أن فكرة التقدم فكرة « إجتماعية » قبل أن تكون فكرة « بيولوجية » .

فإن الخطوات التي تخطوها الأمم في سبيل المجد والحضارة تكون كذلك بمجهود النخبة الممتازة من أبنائها لا بأنقراض العجزة والضعفاء .

ولبعض الناس — ممن تبدو عليهم صفات العجز والمرض والضعف الظاهر — صفات أخرى لاتبدو للعيان ولاسبيل إلى « اليوجنكس » أن يتحقق منها مثل صفات الأمانة والصدق والشاعرية .

فليس عظماء الرجال — ممن أنجبتهم الإنسانية — بأقوى الناس وأصحهم أبدانا وأقدرهم على سبل العيش ومكافحة الأمراض .

إن فكرة تحسين النسل أو تقليله فكرة بعيدة عن الصواب خاطئة من الأساس .

---

* جريدة مصر الأربعاء ٧ أكتوبر سنة ١٩٣١.

موت من وفرة الحياة ! *

نشر « البلاغ » الأغر أمس الأول صورة ذلك المشهد البليغ ، مشهد جنازة الطيارين الفرنسيين« لوبرين » و « ميمان » .

والقارىء لابد واقف أمام ذلك المنظر المهيب ،يشبع عينه من صورة الجمهور المحتشد فى سكون وخشوع ،ويحدث نفسه بقصة البطولة وبأحاديث الحياة الفتية وبمعاني المخاطرة ودلالتها على وفرة الحياة وحظها من العيش والبقاء !

فهـــذان الطياران قتلا فى حادث طيران وما كان أغناهما عن الطيران ومخاطره وموته المنتظر !

لكنهما قتلا بعد أن عاشا كل دقيقة واستمتعا بقوة الحياة كل لحظة ، وبلغا مالا يبلغه الرجل الوادع الآمن العائش عشرات الأعوام .

وهذان البطلان قد قتلا لأنهما أحبا الحياة،وهما فى موتهما نفسه دليل قوى على غلبة الحياة على الموت ، لأنهما كانا يعيشان حياتهما بوسائل «الموت» فتعود حياتهما بذلك أملأ وأقوى مايكون عيش وتكون حياة .

ولأنهما كانا يخاطران كل يوم فهما قد عرفا قيمة الحياة ونعمة الوجود،وعرفا لذة الظفر والفتح بعد أكفهرار الجو ودواعى الهلاك والدمار !

فهما أحبا المخاطرة لا لأنهما لم يحفلا بالحياة،بل لأنهما حفلا بها واهتما لها أشد ما يكون إحتفال وأقوى مايكون إهتمام ! فإذا أكرمهم ذلك الجمهور الخاشع الذاكر للبطولة فإنما يكرم غلبة الحياة على الموت وحب العيش والوجود حينما يذكر الناس المخاطرة وحب الموت !

وأحسب أن موتهما نفسه ماهو إلا صفعة قوية فى وجه الموت ودليل محسوس على أنهما « ماتا » من وفرة الحياة !

فلنبن منازلنا على فوهة بركان لكى نعيش ولكى نحيا !

---

* جريدة مصر الاحد ١١ أكتوبر سنة ١٩٣١.

عبقرية متعددة النواحي ! *

جاء في « الليبرتيه » أن « جبرائيل دانتزيو » – شاعر إيطاليا الأكبر – قد نصحه الأطباء أن لايقرأ وأن لايكتب خوفاً على عينه الأخرى – ذلك لأنه قد فقد إحدى عينيه أثناء الحرب – أن يزداد عليها الألم والضعف فيصبح مكفوف البصر . غير أن قوة الخلق والكتابة المستحوذة على كيانه لم تستطع الصبر على أوامر الأطباء وشروط الصحة ، وإبتدأ يكتب على الآلة الكاتبة !

وفي هذا المثل دليل محسوس على أن ملكة الكتابة والخلق قوة خفية تمتلك على الإنسان كيانه وتستحوذ على لبه وذهنه فلا يستطيع عنها إنصرافا ، ولابد من منفذ لتلك القوة تنساب فيه وقوالب من الفن والكلم تنصب فيها وتتخذ أشكالها !

وحيوية « دانتزيو » تكاد تكون خارقة للعادة ، فليس هذا الرجل شاعراً فحسب وإنما هو جندي مجيد كسب لوطنه معارك عدة آخرها واقعة « فيوم » المشهورة ، وهو نبي وطني مشهور يذكر القارىء بمواطنه العظيم "ماتزيني" . وهو قصصي مجيد – له أسلوب ينفرد به ويشير عليه – وهو ذلك المؤلف المسرحي الذي شيد المسرح الإيطالي الحديث . وهو من بعد ذلك كله « رجل » في أملأ معاني هذه الكلمة دلالة . ومحب يتتبع العالم القارىء قصص حبه الكثيرة بشغف واهتمام .

هو كل هذا وأكثر من هذا !

«جبرائيل دانتزيو» ! كأن هذا الإسم لايشير إلى رجل واحد بل إلى عدة رجال . ولايعني فناناً بعينه وإنما يعني « لجنة » من رجال الفن والثقافة !

وهو في كل هذا وذاك دليل النشاط الوافر الحيوية ، ودليل العبقرية المتعددة النواحي ، ودليل قوة الحياة الكامنة في فرد واحد ، وهي القوة التي لو قسمت على عشرة أفراد لعادوا بعد ذلك أحياء أقوياء .

ونحن ندعو لشاعر إيطاليا وفخرها بجلاء النظر وطول البقاء ليستمتع ناظره بمشاهد الحياة التي أحبها ، ولكي ينتج في مختلف نواحي نشاطها ، البديع الموفق ، الرائع والجليـــل .

---

* جريدة مصر الثلاثاء ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

الترجمة إلى الأدب العربي *

أعجبني مقال الصديق إبراهيم المصري عن الترجمة والخلق في « بلاغ » الأمس . والقراء لابد ذاكرون تلك الحملة على الترجمة يوم أن رددنا على أحدهم قائلين أن لا نهوض لأدب أمة من الأمم مالم يلهب إحساسها ويجدد من نشاطها أدب أجنبي .

وقد أستمر أولئك النفر في حملتهم يقللون من شأن الترجمة، ويوهمون البسطاء أن لنا منها تراثاً كبيراً فكان رد الصديق جامعاً شاملاً صادقاً .

ونود أن نؤكد ناحية واحدة وهى أننا لم نترجم الى العربية حتى الآن شيئاً من مخلفات الأمم التى ترجمت إلى جميع اللغات واعتبرها العالم كله تراثاً إنسانياً وأطلق عليها إسم « الكلاسيك » .

هل عندنا ترجمة لـ« ماركس أوريلوس » و« ايكتوتس » من الفلاسفة القدماء؟ هل ترجمنا أعمال « جيبون » و «ليفى» و « كارليل» التاريخية ! هل نقلنا في الدراما الإغريقية أعمال « سفوكليس » و « أرستفانيس » و « أوربيديس » .

هل نقلنا في الرواية أعمال « دكنز » و «ثاكرى » و « فلوبير » و « دستويفسكى » و « توستوى » و « بلزاك » .

وأين مخلفات « جولد سمث » و « شريدان » و « ابسن » و « سترندبرج » و « مايترلنك » و « شو » في العربية ؟

وهل ترجمنا « شلى » و « وردزورث » و « كيتس » و « فرلين » و « الفريد دى موسيه » و « لامارتين » و « هايني » و « جيته » من الشعراء ؛ مع أن هؤلاء هم شعراء العالم . وأين هي الكتب العلمية التي ترجمنا ! ؟

إن هذه الأسماء التي ذكرناها هي أسماء المفكرين والكتاب في العالم أجمع ؛ وقد ترجمت آثارهم إلى كل اللغات العالمية منذ زمن بعيد، وأصبح أبناء تلك الامم ينظرون إليهم كما ينظرون إلى ممتلكاتهم الخاصة .

فهل يحق لنا أن نتكلم عن الترجمة ونحن لم نترجم بعد الأعمال الإنسانية الخالدة التي ترجمت إلى جميع لغات العالم ماعدا العربية مع شهرتها وكثرة الممالك التي تتكلمها ودعوى أبنائها أنها أحسن اللغات وأعظمها أدبا !

---

* جريدة مصر الجمعة ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

هذا فضلاً عن المؤلفات الحديثة التي ماظهرت في لغة من اللغات إلا وترجمت بعد أسبوع من ظهورها إلى عدة لغات !

فإذا كان ثمت شيء ينقص حياتنا الأدبية فهي ترجمة الأعمال الفكرية والفنية الخالدة ، فإن ترجمة مثل هذه الأعمال — فضلا عن ضرورتها — تعد عملاً أدبياً ضخماً يعلو على كثير من أعمال الخلق والإبتكار . بل ان شهرة رجل مثل « الكسندر بوب » تقوم على أنه ترجم « إلياذة هوميروس » وإسم « فتز جرلد » معروف في عالم الأدب لأنه ترجم الخيام تلك الترجمة العبقرية .

نحن إذاً في حاجة إلى ترجمة الأعمال الفنية العالمية ، وكل مايقال في هذا الموضوع خلاف هذا دليل على الجهل بتاريخ العالم الفكري ونهضات الأمم والشعوب !

شنتزلر *

فى الأنباء التلغرافية أن الكاتب النمسوى الشهير « آرثر شنتزلر » قد توفى . وأظن أن معظم قراء العربية لايعرفون عن «شنتزلر» شيئا ، وأن الأدباء عندنا لايهتمون بالأدب النمسوى إهتمامهم بالأدب الفرنسى والانجليزى . ونحن فى مصر نتكلم عن كتاب الدرجة الثالثة فى فرنسا وانجلترا ونجهل من هم فى طليعة كتاب العصر الحديث . لا لسبب سوى أنهم من أمم ليس لها حظ انجلترا أو فرنسا من الإتساع والسلطان . مع أن أدباء هذه الممالك كلها يعترفون لأمثال « شنتزلر » و « هامسون » و « نتل » و « فرانس فيرفل » بالإجادة والعبقرية ، ويأتمون بهم ويحذون حذوهم . وتجيء نحن فندرس هؤلاء المقلدين من أدباء فرنسا وإنجلترا ، ونجهل مثل تلك الينابيع القوية التى تتمخض عنها أمم النمسا والسويد والنرويج وبولندا وغيرها من الأمم الصغيرة التى تنجب أدباء العالم ، والذين يعرف لهم حظهم من الإجادة والإتقان النقاد العارفون والقراء الدارسون .

و « آرثر شنتزلر » و « فاسرمان » و « فرانس فيرفل » «ثالوث» مقدس فى أدب النمسا الحديث . يكتبون بالألمانية ويضافون فى بعض الأحيان للأدب الألمانى ، ولو أن طابع عبقريتهم النمسوى واضح جلى لايخطئه القارىء اللبيب .

و « آرثر شنتزلر » قد ابتدأ حياته طبيباً ومارس هذه المهنة شأن كثير من الأدباء ثم تركها واشتغل بالأدب وحاول الشعر غير أن ميدانه الذى برز فيه وأجاد هو ميدان القصة والدراما . وهو أول من أدخل الطريقة الطبيعية « ناتيورالزم » فى الوصف القصصى فى الأدب النمسوى ، وأول من حاول أن يسبغ على أدب أمته طابعاً قومياً واقعياً . فكرس جميع رواياته وقصصه لتصوير الحياة فى فينا تصويراً «سايكولوجياً» . وتفرد بطريقة خاصة فى تشخيص أبطاله وتحليل ميولهم ونزواتهم . بل أصبح صاحب مدرسة فى التحليل النفسانى دقيق اللمسة ، صادق الفكاهة قويها ، سريع الأسلوب ، ناصع البيان . ولم يعرض لتصوير حياة الجماعات كما عرض لها زميله « فاسرمان » بل أقصر جهده على مدينة « فينا » وأشخاصها ولم يحاول أن يكون عالمى الموضوع والمادة شأن رفيقه « ستيفان زفايج » .

فنحن نود من الأدباء فى مصر والقارئين أن يهتموا بآداب القارة الأوربية وأن لاتحصر ثقافتنا فى الإطلاع على منتجات انجلترا أو فرنسا . بل يخيل إلى فى كثير من الأحيان أن أدباء النرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والسويد والنمسا نحن أقدر على فهمهم والإستفادة منهم من أدباء الامبراطوريات والممالك الضخمة التى لانشترك معها فى عاطفة

* جريدة مصر الاحد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

أو أمل وألم .

ففي أدب تلك الممالك الضخمة–في الأغلب والأعم–تسيطر ، واعتداد بالنفس ، وعجرفة ، ونحن إذا أدمنا قراءتهم خلاف غيرهم خيف علينا من الإيحاء السيء الذي تتركه نغمة القوي المعتز بنفسه أمام الرجل الصادق المتواضع !

وفي يقيني لو أن أدباءنا إبتدأوا يتدبرون منتجات « هامسون » و « ستيفان زفايج » وأندادهم ، لوجدوا فيها أشياء جديدة تنزل من نفوسهم مكان العطف والمجاوبة . ولعهدوا فيهم نغمة تختلف عن نغمات « ولز » و « شو » و « زولا » و « دوهامل » وأندادهم . ولاكتشفنا في تلك النغمة صداقة وقرابة روحية مثل ماوجدنا من صداقة وقرابة في الأدب الروسي .

تحديد النسل أو تحسينه *

كتب الأديب « عبد الله » في هذه الجريدة بتاريخ ٢٢ أكتوبر يرد على خاطرة لى صغيرة في موضوع « تحديد النسل أو علم اليوجنكس » كما يعرف في اللغات الأجنبية . وفي ذلك المقال يناقش الأديب الأسباب التي أتيت بها لتخطئة هذه الفكرة ونقدها . فأردت أن أرجع إلى هذا الموضوع ببعض التفصيل والشرح والرد .

أولا — أما انني لم التفت إلى كلمة « تحديد » وإن الكلمة لاتعني معنى التقليل فقط ولا الإكثار فكل ذلك أعرفه ولا داعي إلى بسطه والكلام عنه . أما الذى دفعني إلى ذلك فهو أن الكاتب الأول كتب الموضوع بعنوان « تقليل النسل » وأن الصحافي سأل الأمير «عمر طوسون» عن موضوع تقليل النسل . فكل أولئك أسباب كافية لتساؤلى ماذا يعني الكتاب في مصر حينما يتكلمون عن تقليل النسل، وهل هم يستندون إلى مايسمى «يوجنكس» وعندئذ يكون فهمهم لهذا العلم فهماً مغلوطاً ، ثم أتاحت لى الفرصة أن أناقش القائلين بفكرة « اليوجنكس » عموماً في كل العالم لافي مصر وحدها .

ولتحديد النسل غرضان غرض إجتماعي وغرض « بيولوجي » .

وأحب الآن أن أناقش الغرضين « أما أن الغرض الرئيسي لتحديد النسل هو ضمان الصحة والسعادة للعائلة . وضمان المستقبل للأفراد ، فهو يرمي إلى زيادتها وتقوية الكتلة العاملة في الأفراد » . فهذا تعبير الإجتماعيين وليس هو الغرض الرئيسي . اذ الغرض الرئيسي من تحديد النسل « بيولوجي » فقط أي أن الداعين إلى هذا العلم يزعمون أننا يجب أن نستعمل « الإنتخاب الإصطناعي » لكي تبلغ البشرية الكمال الإنساني أو ما يقرب منه ، ولكي نحظى بنوع من الإنسان بعد أجيال عدة على هذه الطريقة يكون بمثابة «سوبرمان» وذلك يكون بتشجيع الأفراد الذين يظن فيهم أنهم ممتازون قادرون على التناسل والتكاثر . ومنع الأفراد الذين يبين عليهم الضعف من الزواج والتكاثر . بل لقد فكرت كثير من الحكومات الغربية في تنفيذ هذه الخطة .

والفكرة لاتقنعني كما لاتقنع الكثير من المفكرين الصحيحي الإدراك ، مهما كان اعتمادها على علم « الوراثة » وقوانين « مندل » ومهما كان غرض هذا العلم ، حينما يطن في السمع جميلاً ونبيلاً لأول وهلة ، إلا أنه غير صحيح لا في الطريقة ولافي الغاية ولافي النظرة الإجتماعية .

وأعلم أن مثل هذه التصريحات تكاد تكون جريئة جداً عند طلبة العلوم والدارسين

---

* جريدة مصر ١٠٣١٥ — ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

« فرانسيس جولتن » وأضرابه من مؤسسي هذا العلم. وهل إذا علم القارىء أن علم « اليوجنكس » يكاد يكون حقيقة ثابتة عند طلبة الجامعات وأساتذتها مثل نظرية التطور عجب لتقدى للفكرة وتخطئتي إياها ؟ — إلا أنني لست بالرجل الوحيد الذى لايقنعني هذا العلم. فقد سبقني فلاسفة إجتماعيون كبار أمثال « هوبهاوس » إلى تخطئة الفكرة وأفنها وبعدها عن الصواب .

وفكرة «اليوجنكس» ومركباتها والابحاث التي سوف تسوقنا إليها جد معقدة: فهي تنفذ بنا إلى فكرة التقدم وتحديدها وتعريفها . وذلك ينفذ بنا إلى منعرجات فلسفية أغلب الظن أن القراء لايصبرون عليها . ولذلك فسوف نناقش الفكرة من الجهة المباشرة ونترك التبحر في الموضوع إلى من يريد التعمق فيه وإستيعابه .

وصديقي عبد الله متحمس للفكرة كما أخذها عن الأساتذة، وهي والحق يقال تظهر صحيحة لأول وهلة لاشك فيها، خصوصاً وأن غرضها غرض تقدم النوع الذى تسعى الإنسانية كلها إلى بلوغه. فهو يقول : « إذاً فـ«اليوجنكس » وتحديد النسل كلاهما يرمي نحو غرض واحد هو خدمة المجتمع . وكل منهما يعتمد على الآخر في هذا السبيل . حقاً يقول «اليوجنكس» بتحسين النسل . ولكن عن أى طريق ؟ عن طريق تحديده ولاشك، فتدعو «اليوجنكس» إلى زواج الأفراد الذين يتمتعون بالصحة والقوة . كما تدعو إلى زواج الأفراد الذين يحملون صفات بارزة أو ميولاً خاصة تهم المجتمع وتخطو بأمتهم نحو المجد والخلود ؛ كصفات الذكاء والإقدام والشجاعة وقوة الذاكرة . فالميل للآداب أو الفنون، والميل للموسيقى أو العلوم، والميل للاختراع كذلك. تشجع زواج من ميزتهم الطبيعة بالمناعة ضد الأمراض . فهذه جميعها وغيرها صفات وراثية تنتقل من جيل إلى جيل ومن الآباء إلى الأبناء وإلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد .

كل هذا حسن وكل هذا جميل . غير أن معرفة هذه الأشياء ياصديقي ليست بمثل السهولة التي عددتها بها . وسهل أن تتخيل وأن ترسم الأشياء ولكنه جد صعب أن تتأكد من الطرق ومن الحقائق التي تعتمد عليها في هذا التقرير . وقل لى من جهة عملية كيف تدعو إلى زواج الأفراد الذين يتمتعون بالصحة والقوة ! أن تتولى الزواج الامة . وتمد هؤلاء الأصحاء الأقوياء بالمال ؛ أم يتحتم عليهم أن يكونوا أغنياء ؟ وكيف نقنع فردين على ذلك الزواج ؟ ثم هنالك مسألة التثبت من هذه الصفات البارزة في الأفراد كيف نتأكد من الذكاء والإقدام والشجاعة ؟ أبطريقة مقاييس الذكاء ! « سيمون بنيت » وهذه

مكان شك كبير . أنجعل الإنسانية كلها رهن نظريات غير محققة ؟ ليس في ذلك أقل صحة إدراك ولاشبهه .

ثم أن مسألة «الميل» ياصديقي لهذا الفن أو لذاك مسألة مطاطة لايمكن التثبت منها . وحتى علوم الوراثة نفسها ياصديقي في إختلاف كبير في أمرها — كما لايفوتك طبعاً — فالميل للموسيقى وللفنون والاختراع على حسب الباحثين في الوراثة مشكوك فيه ، وهل هذه الصفات تورث أم لا ؟ ثم هذا الميل قد يكون أحياناً إجتماعياً . أى أن ظروف الإجتماع هى التى هيأته للأفراد . فكيف نستطيع أن نفرزه من الميـل الطبيعى خصوصاً والميل الطبيعى لايظهر إلا فى وسط ملائم ؟

إن مسألة وراثة الخصائص الذهنية المكتسبة وغير المكتسبة موضوع جدل ومحل شك كبير بين كبار الباحثين . فهل نرهن مصير الإنسان بمثل هذا الكلام المعلق على الهواء؟

ثم مـاذا فى تشجيعنا لمن حبتهم الطبيعـة بالمنـاعة ضـد الأمراض إذا هم لم تـكن لديهم صفـات أخرى يعتمـد عليها التقـدم الإنساني — أى الصفات الذهنية — كمـا هو الشاهد فى كثير ممن يتمتعون بكـامل صحة الجسد وليس عندهم فهم ولاذكاء ؟ يجب علينا أن لانلغي عقولنا في قبول نظرية قالها إنسان ولو كانت تلك النظريات تدرس فى الجامعات كأنها حقائق ومعارف عامة !

فهذه الصفات الكثيرة التي عددها صديقنا الأديب مما يسهل أمره على العلماء الذين يجيدون الإحصاء والتسمية ولكنهم لايجيدون النفاذ إلى بواطن الأمور والنقد الفكرى !

ثم الأمزجة ياصديقي . فقد يكون عندك أنثى وذكر كلاهما ذكى . . إلى آخر الصفات . لكن مزاجيهما مختلفان يخرج منهما الأبناء غير مستقيمي الأعصاب — كل ذلك مشاهد معروف . وهنالك مسائل كثيرة تعن للذهن ولاداعي الآن إلى حصرها وتعدادها .

وهناك من يدعو « اليوجنكس » إلى عدم تناسلهم لأنهم يحملون صفات ضارة بهم وبالمجتمع الذى يعيشون فيه : كصفات ضعف العقل والغباء والجنون والإنقباض الخ . ومن يحملون ميزات أخرى كبيرة ربما لاتظهر لهؤلاء الباحثين الأجلاء فيأخذوهم بالظواهر التى تيسر للمقاييس العلمية كشفها وتبيانها .

إن فكرة « اليوجنكس » ياصديقى تقوم على دكتاتورية علمية . وهى بذلك أبعد عن العلم واستقامة الرأى .

أما أن هذه الصفات فى هؤلاء الأفراد تعوق تقدم المجتمع كما يدعى دعاة « اليوجنكس » فالدليل المادى حاضر على بطلانها . اذ أى دليل الى الآن يدل على أننا لم نتقدم من أول عصور الإنسان إلى الآن — التقدم حاصل . ولو كانت هذه النظريات

حقة لوقفنا مكاننا في الطور الزراعي أو رجعنا القهقرى – وذلك مالم يحدث ولن يحدث ولو تخيل « اليوجنيون » .

ثم يقول الأديب : إن «اليوجنكس» أيضا يدعو إلى تحسين الوسط والظروف المحيطة بالأفراد وجعلها ملائمة لظهور الصفات الممتازة الخ . ونحن لسنا في حاجة إلى «اليوجنكس» ليقول لنا بتحسين الوسط ، فكلنا يعلم ذلك بالبداهة ، لكن الصعوبة في التنفيذ ياصديقي . ونظام العالم ثابت والطبيعة البشرية هي هي لا يستطيع «اليوجنكس» تغييرها أبدا .

إن بعض العلماء يظنون أن مسألة التقدم مسألة هينـــة ليس أمامهم إلا أن يفكروا ويقولوا بنظريات ثم يذيعوها فيحدث « التقدم » . فليعلم هؤلاء أن التقدم البشرى وليد عوامل كثيرة : منها مايدخل تحت المعرفة البشرية ، ومنها مالايدخل ، وهي في جملتها من عمل التاريخ ، ومحكومة بعوامل الجو والظاهرات الكونية الأخرى التي لم يستطع الإنسان أن يحكمها أو يتصرف فيها ، بل هي التي تحكمه وتتصرف فيه مثل الأمطار والأنهار والحرارة والبرودة إلخ . . ! !

ثم ان لهؤلاء « العجزة الضعفاء » الحق في الحياة مثلما للأقوياء . فبأى حق نتصرف في حياتهم ونمنعهم من التناسل ؟ هذه هبة الحياة كيف نسلبهم إياها . فإذا كان في ذهن الإنسان أى كبرياء فعليه بتحسين حالتهم ايجابياً لاسلبياً ، أما منعهم من الزواج وخلافه من المحظورات لدليل العجز والإستبداد !

وأغرب من ذلك كله وأدعى إلى الدهشة أن الذين ينادون بهذه العملية « عملية الإنتخاب الإصطناعي » هم القائلون بالانتخاب الطبيعي . اتركوا الانتخاب الطبيعي فهو كفيل بعملية الفرز والتقدم والتطور ، كما قال بذلك « داروين » في القرن الماضي : أتريدون شل حركة الإنتخاب الطبيعي . وهـــو ولاشك أكثر عصمة وأحق بأن يعمل من الإنتخاب الإصطناعي .

مع كل هذا القول أن فكرة تحسين النسل « علم اليوجنكس » فكرة بعيدة عن الصواب خاطئة من الأساس . بعد درس ونظر ، ولايهمنا بعد ذلك إذا درست في الجامعات وقال بها « جولتن » وأضرابه .

وفكرة التقدم فكرة إجتماعية قبل أن تكون فكرة بيولوجية ، والخطوات التي تخطوها الإنسانية نحو المجد والحضارة تكون بمجهود النخبة الممتازة من أبنائها ممن حبتهم الطبيعة والوسط والظروف بتلك الصفات ، لابانقراض العجزة والضعفاء ، وما شأن العجزة والضعفاء أمام الأقوياء ؟

إنهم لاشك منقرضون، فإذا لم ينقرضوا فهم إذاً لاعجزة ولاضعفاء شاء ذلك « اليوجنيون » أم لم يشاءوا !

ويسير الزمن في طريقه غير عابيء باصديقي ، والتاريخ يدون خطواته ، ودائرة ذكاء «الحيوان البشرى» محدودة، وتسير الحياة فى طريقها معصومة لاتعرف ماهو الإفك والكذب ! !

الكلمة ثلاثة جنيهات *

ألقى مستر « شريف » مؤلف مسرحية « نهاية الرحلة » محاضرة فى أكسفورد جاء فيها أن روايته المذكورة بلغت أرباحها للآن معدل ثلاثة جنيهات عن كل كلمة. ومثل هذا الربح لم يسمع به قط فى تاريخ الأدب والكتب .

والغريب فى أمر هذه الرواية وقصة كاتبها أن المؤلف لم يكن معروفاً من قبل فى عالم الأدب . بل هذه كانت أولى أعماله الأدبية ، فليس يعزى هذا الذيوع والرواج إذاً لإسم المؤلف كما اعتدنا أن نسمع . ولا لكثرة الإعلان عنها ولا لأى أعتبار آخر خلاف ميزتها وتقدير الناس لها ومجاوبتها لعواطفهم وصدق تصويرها لحقيقة الحرب .

والمؤلف نفسه لم يكن يحلم لروايته بمثل ذلك الذيوع والإنتشار الذى أخذ عليه لبه واستولى على مكان الدهشة منه ! وقد ترجمت تلك المسرحية إلى لغات أوربية عديدة فكانت تجذب اليها النظارة فى كل بلد تمثل فيه ويعاد تمثيلها الليلة بعد الليلة لعدة شهور .

وقد شهدت بنفسى تمثيل تلك الرواية فى العام الماضى فى جامعة بيروت الأمريكية . فعرفت فيها قطعة فنية محكمة الأصول صادقة العرض . تتخللها فكاهة صادقة وتسمع فيها فرقعة الضحك بين دخان النار ودوى المدافع الحربية ، وترى فيها كيف تصدىء الحرب نفوس الجنود ، وكيف ينسون . وكيف تنتابهم عوامل الذكرى والألم الممض . وكيف تمتزج القوانين الصارمة مع الثورة النفسانية المتمردة التى لاتعرف قانونا — ترى كل هذا فتقول تلك هى الحرب ! ثم لاتلبث أن ترى الجنود فى معسكرهم يأكلون ويعبثون ويشربون الخمر والشاى ناسين الحرب ومايحيطهم من القلق والخطر . فتعرف أن الحرب أصبحت عملية بسيطة إذا استثنينا الثورات النفسانية التى تنفجر فى نفوسهم بين حين وآخـــر !

والرواية فى جملتها تصوير بليغ لأثر الحرب فى نفوس أولئك المحاربين . والمؤلف لم يعن برسم الجهة السوداء من الحرب فقط كما يفعل عادة المؤلفون وإنما عرضها كلها بسخفها وقوانينها . بضحكها ولذتها . بعوامل الخوف منها وبمظاهر الشجاعة والاستبسال فيها ، فنجحت الرواية لأن مؤلفها لم يكن مغرضاً فى عرضها . ولأنه لم يقصد الإعلان عن سيئات الحرب أو حسناتها . وإنما هى صورة ناطقة لكل إنسان أن يشرحها ويفهمها وفق مزاجه وفهمه .

---

* جريدة مصر الاربعاء ؛ نوفمبر سنة ١٩٣١ .

وهذه في اعتقادنا أهم عوامل النجاح في العمل الفني . ثم نجحت الرواية من جهة أخرى لأنها أثبتت في المسرح لألوف المشاهدين صورة يهمهم أن يروها على حقيقتها : صورة مازالت عالقة بأذهانهم وخيالهم ، تزورهم في يقظتهم وفي منامهم . والمشاهد الأوربي أما أن يكون قد فقد قريباً أو صديقاً في تلك الحرب ، وقل أن يكون هنالك إنسان لم يتأثر في أى شكل من الأشكال من تلك الحرب . فصورة تلك الحرب إذاً مطلوبة . ومطلوبة على حقيقتها أكثر من أي صورة أخرى ، فهذه الصفة الإنسانية التي تخاطب كل فرد . وهذه الصفة العالمية التي تهم كل مشاهد هي سر آخر من أسرار ذيوع تلك الرواية وانتشارها .

لكن هل فكر المؤلف في كل ذلك وهو يخط روايته ؟ لا !

والدليل على ذلك أنه دهش من نجاحها فلما حاول أن يثني عليها بواحدة أخرى كان نصيبه الفشل !

وبعد ، نخرج من كل ذلك أن المؤلف الغربي حين يجيد مهما كان مغموراً غير معروف فإنه ملاق جزاءه الكبير مادياً وأدبياً .

فهل ترى إذا أجاد المؤلف المصري أواجد هو مايقرب من ذلك الجزاء والتقدير ؟

لا ! وذلك لايرجع لأى نقص في التقدير والفهم ولكنه يرجع إلى عدم القراءة والعناية بشؤون الفكر ومشاهدة الآثار الفنية . والإعتقاد السائد أن كل هذه الأشياء لاخطر لها ولاضرورة فيها .

بازروف *

في الأدب الروسي شخصية معروفة هي شخصية « بازروف » في رواية الآباء والأبناء لـ «ترجنيف» . وفي تلك الشخصية تتجسم ثورة الجيل الجديد على الجيل القديم . كما أنها تجعل العراك الخالد بين الشباب والشيوخ في صورة محسوسة . ولقد هنأ المحافظون مؤلفها حين ظهور الرواية . لأنها في أعتقادهم قد رسمت شخصية الجيل الجديد على حقيقته . وقابلها الجيل الجديد حينذاك بالسخط والنقد لأن « ترجنيف » في أعتقادهم لم يرسم صورة صادقة . وإنما عرض « كاريكاتور » فقط .

والحقيقة التي نعرفها الآن أن «ترجنيف» كان صادقاً في قصته وأن «بازروف» ولا شك شخصية حية تمثل أغلبية كبيرة من الجيل الجديد .

ولقد كان المؤلف في صميم نفسه يعطف على الجيل الجديد وطموحه ومثله العليا . غير أنه لم يكن داعية إجتماعياً ولامروجاً . بل كان فناناً كل همه الصدق والأمانة بعيداً عن الدعاية والتشيع . فرسم شخصية «بازروف» وهو شاب ذكي ثائر لايشترك مع الجيل القديم في كثير أو قليل من الآراء . ثم رسم المفارقات والفكاهات التي تنشأ من مثل ذلك التصادم الذي ينشأ عادة بين الجديد والقديم . « فبازروف » لايعرف للمجاملة مكاناً . ولايقتصد في آرائه . بل يعلنها في وقاحة وصراحة . مسرف في آرائه . لايؤمن بشيء . ويتهكم من كل شيء .

كل هذه الصفات والفعال تجعلنا نعتقد أن «بازروف» بعيد عن الإنسانية يعيش في إطار أفكاره الغريبة . غير أنه بعد قليل يتضح لنا أن معين الإنسانية فيه واسع كبير . وأن سعة العطف عنده قوية كبيرة . وأنه من بعد ذلك كله إنسان كبير القلب لا كتلة أفكار كما رأيناه في مبدأ الأمر . وذلك حين نراه بين والديه يحتملانه ويرمقانه بعين العطف . فيعرف أن الفروق ليست في الإنسانية وعطف الحياة وإنما هي في الأفكار والإتجاهات الذهنية . ثم نرى أن ذلك الشاب الذي لايؤمن بغير الفكر يموت ميتة كلها تضحية وعطف في سبيل علم الطب — ذلك لأنه كان طبيباً — إذ يأخذ العدوى بينما هو يشرح جثة مريض بالتيفوس . ثم منظر الإبن وهو يحتضر وكيف يرق وكيف يعطف . ثم منظر حبيبته ووالدته ووالده وعطفهم وحزنهم . وزياراتهم لقبره بين آونة وأخرى .

والحق أن «ترجنيف» قد حل عقدة النزاع بين الجيل القديم والجيل الجديد . فأبان

---

* جريدة مصر الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ .

عطفه على كليهما . فهو يعطف على « بازروف » المحب للمثل العليا الذى يضحى بنفسه فى سبيل الإنسانية،والذى تزكو فيه عوامل العطف الواسع ، والحب المكبوح ، والإنسانية الحقة . فإذا ألجأته الظروف أو أنتابه الخطب ظهرت كل تلك الأشياء من تحت دخان الفكر على أشد ماتكون قوة . ثم أظهر لنا الجيل القديم ولو أنه يتبرم وتشتد القطيعة وتتسع هوة الخلاف بينه وبين الجيل الجديد، إلا أنه عاطف على نفسه فى شخص الجيل الجديد أشد من عطفه على نفسه، حادب عليه ناظر اليه نظرة العطف والحب والتفانى، كل هذه الأشياء تظهر جلية إذا ماجد الخطب لأنها موجودة هناك .

ولكل من الجيل القديم والجيل الجديد وجهة نظره . والأشياء التى تنأى بالجيلين عن بعض مرجعها إلى حب « توكيد الذات » وليس مرجعها فى صميم الأمر إلى نزاع أصيل بين الجيلين أو عدم عطف بينهما صادق أكيد .

دون كيشوت *

في الأدب الأوربي شخصيات معروفة خلقها خيال الأدباء من العدم، وأصبحت بفضل ذلك الخيال النشيط حية موجودة لاشك في حياتها ووجودها . وأصبح الناس يتداولون تلك الأسماء القصصية ويجرونها على لسانهم كما يتناولون الشخصيات التاريخية أو الأحياء على حد سواء . فإذا قال قائل « نابليون » أو « هاملت » أو « نيرون » أو « دون كيشوت » لكانت كل تلك الأسماء واحدة في صدق التاريخ ودلالة الواقع وصدق المعنى . وتلك هي معجزة الخيال القوي الذي لاإعجاز بعده : ودلالة قوة الخلق في هذا « الإنسان الخالق » .

فليس « دون كيشوت » أو « هاملت » أو « بازروف » أو خلافهم من الخلائق القصصية المشهورة ، بأقل حياة وواقعية للذين يعرفونهم من خلائق اليوم وشخصيات التاريخ . بل أن لهذه الشخصيات القصصية من الرمز القاطع والدلالة المعروفة ماليس لكثير من شخصيات الحياة الواقعية !

فمن منا لايعرف « دون كيشوت » ومن منا لم ترتسم في مخيلته صورة واضحة قوية لذلك الرجل المهووس الذي خلقته عبقرية « سرفانتس » الخصبية ؟ .

ونحن نستطيع الآن أن نصف لجليسنا خلق رجل فنقول عنه إنه « دون كيشوت » فيفهم مانعني بالضبط إذا ما كان له أقل إلمام بمنتجات الأدب الأوربي . فهذه الأسماء الخالدة قد تعدت كونها أسماء ، وأصبحت صفات تدل على ألوان من الخلق والسلوك والعقلية نطبقها كل على مانريد وكأنها ألفاظ في معاجم اللغات !

فـ« دون كيشوت » ليس هو « دون كيشوت سرفانتس » فقط . ولا هو « دون كيشوت أسبانيا » فقط ، وإنما هو « دون كيشوت كل عصر وكل يوم » وهو « دون كيشوت » الحياة ، ولعل وجوده في عصرنا هذا ليس بأقل منه في عصر الفروسية الكاذبة في أسبانيا !

وعندي أن المؤلف لم يقصد إلى نقد طائفة خاصة — برسمه لذلك البطل — ولم يكن قصده النقد والإصلاح : كلا ولا الدعابة والسخر : وإنما كان قصده أن يرسم الجانب الضعيف من الحياة الإنسانية فأجاد الرسم والتصوير .

فـ« دون كيشوت » هو رمز الوهم والهوس والعظمة الكاذبة وآمال الإصلاح ومخاوف الطريق ، وقل في الناس من لايمر بفترة في حياته تشبه هذه الفترة وتقرب منها

---

* جريدة مصر الأربعاء ١١ نوفمبر سنة ١٩٣١ .

وإن لم تحارب الطواحين وتضطرب من ظلنا وتقتل قطيع الأغنـــام ظنا منا أنـــه جيش الأعـــداء !

فـ«دون كيشوت» إذاً صورة لضعف الإنسان ومعين السخف والهوس فيه !
وهو من جهة أخرى رمز لمأساة الحياة وجنونها فى إطار من الضحك والعبث !

إياجو ! *

عرض طلبة معهد التمثيل برئاسة الأستاذ جورج أبيض رواية عطيل « لشكسبير ». وفي تلك الرواية شخصية فذة . إلى جانب شخصية « عطيل » المركبة . هي شخصية « إياجـو » .

وشخصية « إياجو » هي من شخصيات الأدب القليلة التي تعدت دلالتها الأدب إلى حياة كل يوم . وأصبح ذلك الإسم يستعمله الناس وكأنهم يستعملون لفظة الشر واللؤم والوقيعة وماشابهها من الصفات . وتلك هي قدرة « شكسبير » الخالقة على تخير الأسماء للشخصيات وطبعها باللون الذى يميزها ويشير اليها ويدل على هذا الخلق وتلك السجية بين كل الناس وفي كل العصور .

فـ « إياجو » هو نموذج الشر يعمل للشر . ولذة التشفي الذى لادافع له ولا حافز سوى لذة التشفي وحب الشر لأنه « الشر » وهو مثال الطبيعة اللئيمة التي لاتعرف الحياة ولايمكن أن تحيا في غير الوحل والطين — الطبيعة التي تجد كيانها وسلواها ولذاذتها في حبك الفصول الجهنمية . وتسلك لذلك القصد كل طرق الكذب والنفاق والخديعة . ولاتتورع عن إرتكاب أى شيء وتبرير أى عمل في سبيل الوصول إلى تلك الغاية المبتغاة ولعل تلك الشخصية نفسها — إذا وقفت تحاسب نفسها — لاتعرف ما السر الذى يدفع بها إلى ذلك العمل ويغرى بها اليه . إنها طبيعة والسلام .

وقد أنكر بعض النقاد هذه الشخصية على « شكسبير » وعدوها من هفواته التي لاتغتفر . إذ أنهم يقولون أن ليس في الحياة شر خالص . وأن في أحلك الشرور وميضاً من الخير وأنه يصعب وجود إنسان تنطبق صفاته على « إياجو » الذى ليس له من دافع سوى لذة الشر وحده .

ويقولون إن الإنسان الشرير ربما يعمل الشر ولكنه يبرره فيما بينه وبين نفسه ويرى أنه محق فيما يعمل . أما « شكسبير » فقد عرض إياجو يعمل الشر لذات الشر ويعترف فيما بينه وبين نفسه أنه يعمل لذلك الشر من غير أن يبرر عمله استناداً على دوافع وأسباب أخرى — كما هو المشاهد والمألوف في أغلب الجرائم والشرور !

« لم يكن شكسبير صادقاً للحياة أميناً للطبيعة البشرية في شخصية « أياجو » » هكذا يقول أولئك الناقدون !

---

* جريدة مصر الاحد ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ .

ونحن نقول إن أولئك النقاد على غير الصواب . فـ« إياجو » موجود فى الحياة .
« إياجو » الذى يعمل الشر لحساب الشر ويعرف فيما بينه وبين نفسه انه « الشر » ولا يسميه بغير ذلك من الأسماء . بل يجد لذته ويجد إشباع غريزته وإرواء العاطفة من نفسه في تلك المعرفة وذلك التحقيق !

وليس هذا الـ« إياجو » الذى رسمه « شكسبير » بالنادر القليل إذا فتحنا عيوننا إليه وتمعنا فى أعمال بعض الناس وأفعالهم !

مازاريك *

استوقف نظرى فى « أهرام » أمس الأول صورة للرئيس « مازاريك » رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا حاملاً على أكتافه حفيده الصغير ، وليس ذلك المظهر الإنساني بغريب من مثل « مازاريك » العظيم !

فهذا الرجل هو من رجال العالم القلائل المعاصرين . وهو من ذلك الرهط الذى لاتنسيه ضجة الوظائف وسمو المراتب وصولة المجد والحكم أنه إنسان قبل كل شيء وبعد كل شيء. وأن من الواجب عليه أن يعطي ذلك الجانب العامر من نفسه كل حقوقه وواجباته . فهو فيلسوف ولكنه إنساني فى فلسفته ، وهو أديب ناقد ومفكر باحث وسياسى فذ. غير أن كل تلك الميزات لاتنسيه أنه إنسان. أو ربما كان هو من أجلها ذلك الرجل « العبقرى » الذى يتضافر فيه الرجل والفيلسوف والسياسى ليكون كلا واحدا هو « مازاريك » العظيم .

والقارىء إن يعجب لشىء فأشد عجبه لهذا الشيخ الذى يجد الوقت الكافى من ضجة السياسة وزحمة العيش وتكاليف الزعامة لتتبع آخر تيارات الفكر والفن العالمى . وقل من الشبان أنفسهم من يقف على أعمال أدباء الشباب مثل وقوف « مازاريك » وعلمه . فهو يدرس «الدوس هكسلى» ويعجب به ، وله نظرات صائبة فى فن « مايكل آرلن » القصصى وخلافه من الأدباء الفنانين المعاصرين .

وإذا عرف القارىء أن هؤلاء الكتاب الإنجليز هم من ناشئة الكتاب وأن مركزهم الأدبي لم يتوطد فى العالم بعد. عجب لإطلاع « مازاريك » وجهده الصادق .

فهذا الرجل لم يكتف بأن يكون مؤسس هذه الأمة الناشئة والنافخ في روحها، حتى أصبحت ولها مركز سياسي وأدب وفن يذكران إلى جانب فنون العالم وآدابه .

وهو لم يكتف بالجهود الصالحة التى يوجهها نحو السلام العالمى ومايشابهه من المثل العليا ، بل يدرس الأدب ويساهم في الفلسفة ويكون شعباً بأسره .

إننى حين أذكر الرئيس « مازاريك » أذكر كلمة « أفلاطون » الخالدة « لاتصلح الممالك إلا حين يكون ساستها فلاسفة ، وفلاسفتها ساسة . »

ولم يصدق ذلك المثل فى ظنى مثل صدقه فى جمهورية تشيكوسلوفاكيا ورئيسها الفيلســـوف !

---

* جريدة مصر الاحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣١.

عــن معــاوية

الشهيد معاوية *

قصيدة

للأستاذ الكبير عباس محمــود العقاد

« . . . أحتفل أدباء السودان بتأبين الأديب السوداني النابغ معاوية محمد نور . وقد لقى نصباً من سقامة وعوجل رحمه الله في ريعان صباه ، بعد أن بشر العالم العربي بأمل كبير لم تنجزه المقادير .

وقد أرسل الاستاذ العقاد » هذه القصيدة لتلقى في يوم تأبينه .

أجـــل هذه ذكرى الشهيد معاوية ... فيالك من ذكرى على النفس قاسيه
أجل هذه ذكراه لايــوم عرسه ... ولايوم تكريم . ودنياه باقيــه
فما أقصر الدنيا التي طول الضنى ... أصائله فيها . وأشقى لياليــه
وما أضيع الآمال آمال مــن رأوا ... مطالعه في مشرق النور عاليــه
ومن أيقنوا أن الهلال الذى بــدا ... على الأفق أحرى أن يعم نواحيه
بكائي عليه مــن فــؤاد مفجــع ... ومن مقلة ماشوهدت قط باكيه
بكائي على ذاك الشباب الذى ذوى ... وأغصانه تختال في الروض ناميه
بكائي على ماأثمرت وهــى غضة ... وماوعدتنا . وهي في الغيب ماضيه
فضائل منها نخبــة أزهرت لنــا ... لماماً . وأخرى لم تزل فيه خافيه
تبينت فيــه الخــلد يوم رأيتــه ... وما بان لى أن المنيــة آتيــه
ومابــان لى أني اطالــع سـيرة ... خواتيمها من بدئها جــد دانيه
وأن إسمه الموعود في كل مقول ... سيسمعه الناعون من فم ناعيــه
أجل هذه ذكراه يانفس فاذكرى ... فجيعتنا فيه . وما أنت ناسيــه
أجل هذه ذكراه ياعين فاذرفــى ... عليه شآبيب المدامــع داميــه
إذا قصرت أيام مــن نرتجيهــم ... فياطول حزن النفس والنفس راجيه
وياطول حزن النفس وهي منيبــة ... إلى اليأس من عجز بها ، وهي آبيه
فيا يوم ذكراه سنلقــاك كلمــا ... رجعت إلينا والضمائــر صاغيه

---

* الشهيد معاوية : أعاصير مغرب .

وياعارفيه لاتضنـــوا بذكـــره ففي الذكر رجعى من يد الموت ناجيه
أعيروه بالتذكـــار ماضن دهـــره به عيشة في مقبل العمر راضيه

وزيدوا النفيس النزر مـــن ثمراتـــه
بتكرارهـــا في القلب أولى وثانيـــه
فإن لم تكن في العـــد كثراً فباركـــوا
معانيها حباً ، ووفـــوا معانيـــه
عليه سلام لايـــزال يعيـــده
ويبديـــه شـــاد في الديـــار وشاديه

معاوية نور *

بقلم أنور الجنـــدى

في محاولة لدراسة أعلام الأدب العربي المعاصر المغمورين لفت نظرى « معاويةنور » الأديب السوداني الذى ملأ الصحف المصرية بكتاباته سنوات ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ و١٩٣٢ فى جريدة (السياسة الاسبوعية) و(البلاغ الاسبوعى) و(الهلال) هذه الكتابات التى لـــم تلبث أن أنقطعت فترة طويلة ، ثم عادت فى دراسة مطولة للقصة المصــــرية نشرتها (الرسالة) ثم توقفت مرة أخرى حتى أوائل عام ١٩٤٢ حيث نعاه الناعى .

ولقد حاولت فى خلال عشر سنوات تقريباً أن أحصل على مزيد من المعلومات عن حياة هذا الكاتب العربي : الذى تدل آثاره على الذكاء والحيوية ونفاذ البصيرة على نحو يتوقع معه التبريز والشهرة وبلوغ المكانة فى ميدان الفكر العربي الحديث . غير أن هذه المحاولات لم تحقق شيئاً ، فكل اخواننا الذين اتصلنا بهم من السودان الشقيق كانوا يحيلوننا على الأستاذ العقاد الذى اتصل به الكاتب فترة إقامته فى مصر فى هذه السنوات التى نشر فيها أبحاثه .

ومع أن الكاتب سافر بعد ذلك إلى السودان ثم انقطع فترة عن الكتابة عاد يناقش كتاب القصة فى بحثه (بالرسالة) ثم صمت مرة أخرى .

ولعل آخر ماوصلني من أنبائه هو ماذكره الأستاذ عز الدين الأمين رئيس جماعة الأدب المتجدد فى الخرطوم فى رسالة شخصية لى وهو أن المرحوم « معاوية محمد نور » كان يكتب فى السياسة الأسبوعية (١٩٢٧ – ١٩٣٣) وكان يكتب فى المقتطف والبلاغ الأسبوعى (١٩٢٩ – ١٩٣٣) . وفى الفترة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ كان يكتب فى جريدة الجهاد ، وعمل محرراً فى «الاجبشيان غازيت الانكليزية» . وله صلة وثيقة بالعقاد إذ كان صديقاً له . ولذلك فالعقاد خير من يتحدث عن معاوية ، ولمعاوية سلسلة مقالات كتبها فى الرسالة بعنوان « أصدقائي الشعراء » وكان ذلك فى أوائل الثلاثينيات وقد نقد فيها إبراهيم ناجى وعلى محمود طه المهندس .

وإني لأذكر أن المرحوم «محمد أمين حسونة» كان قد نعاه فى الرسالة(١٢ر١ر١٩٤٢) وقال إنه كتب فى السياسة الأسبوعية منـــذ عام ١٩٢٩ ، واشترك فى تأسيس جماعة

---

* مجلة الأديب – أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

الأدب القومى برئاسة الدكتور هيكل . وكان قد تخرج حديثاً من كلية غردون بالخرطوم. وأراد أن يتم تعليمه فى كلية الآداب (المصرية) غير أنه صادف عقبات منعته من الإلتحاق بالجامعة : فأرسله الأمير «عمر طوسون» فى بعثة خاصة على نفقته إلى الجامعة الأميريكية فى بيروت . وبعد أن نال إجازتها فى الآداب عاد إلى القاهرة واتصل بالأوساط الأدبية. وزاول مهنة الصحافة فى صحف شتى كالأهرام والهلال والاجبشيان ميل ،ثم عين سكرتيراً للغرفة التجارية بالخرطوم ، ثم وقعت فاجعة أليمة له وانتهت باختلال قواه العقلية ومات وهو فى زهرة شبابه .

ولعل هذه الصورة الغامضة والحياة القصيرة التى أنهاها «معاوية نور» على هذا النحو هى التى لفتت نظرى إلى الكاتب فى عديد من أبحاثه وكتاباته فى المجلات المصرية . وهى مقالات بدأها فى ربيع عام ١٩٢٩ من بيروت . وكانت تصور جودة أسلوبه . وقدرته على البحث والاستيعاب ،ونفاذ قلمه وعمق مرماه فى النقد . فهو ناقد كامل الأدوات على الرغم من أنه كان فى بداية الشوط ،ممايدل على عبقرية كامنة لم تلبث أن انفجرت بعد عشر سنوات .

يقول : « ليس الأدب هو الشعر فحسب : وما أظن كائناً من كان يقول بذلك . وإنما الشعر فرع من فروع الأدب . فهنالك الرواية ، وهنالك الدراما والقصص القصيرة . وهنالك البحوث الفكرية والأدبية ذات الصبغة الإجتماعية والفلسفة التقدمية . ويحزننى أن أقول إن زعماء نهضتنا إلى الآن لم يحاولوا الرواية ولم ينتجوا فيها شيئاً يذكر . ويتلخص عمل كتابنا الناثرين فى عدة مقالات نقدية وصفية تنشر بالصحف السيارة ، ثم تجمع فى كتاب وتقدم للجمهور .

« وأعجب من هذا أنك إذا أردت أن تعرف شيئاً عن فلسفتهم الأدبية أو الفكرة الأساسية . كما هو الحال عند كبار الكتاب . ومن ليس له فكرة أساسية يصدر عنها فى كل مايكتب قمين به ألا يعد من زعماء النهضة.

« . . نحن نطلب منهم مقاييس أدبية مبتكرة ونظرة خاصة للحياة والآداب . والآن أنظر معى إلى مؤلفات الأستاذ «سلامة موسى» والدكتور «هيكل» والدكتور «طه حسين» وأضرابهم . فهل ترى فى جميع كتاباتهم شيئاً مثل هذه الفكرة الأساسية ؟

« فأوقات الفراغ للأستاذ هيكل ماهو إلا مجموعة مقالات ، وليس فيه أى فكرة أساسية . ما الذى عمله الدكتور طه حسين إلى الآن ؟ أعترف بأنه حينما يحلل القصص

الفرنسية وينقدها يلذ القارىء كثيراً، أو يدل على قوة نقدية رائعة . ولكن هل هذا هو كل مانطلبه من زعيم نهضة ؟ وقد يقول قائل إن الدكتور طه مؤرخ آداب وناقد وليس بأديب . فمالك تطلب منه ذلك ؟ فأقول : أين هي مقاييسه المبتكرة في نقد الآداب وكتابة تاريخها ؟ فإننا نعلم أن كبار مؤرخي الأدب لهم فلسفة خاصة بهم أمثال « تين » و« سانت بيف » و«هالام» فأين الدكتور طه من هؤلاء وأين هي تآليفه ؟ (حديث الأربعاء) وماهو إلا حديث عن الشعراء ليس فيه فكرة أساسية . (الشعر الجاهلي) نعم فيه فكرة أساسية ولكنها منقولة من المستشرقين أمثال «نولدكة» الألماني « ونيكسون » الإنجليزى . (فلسفة ابن خلدون) هو الآخر ليس فيه فكرة أساسية . وإنما هو تحليل فقط وتطبيق لنظرية «تين» في دراسة الرجال . فهل مثل هذا الإحتكار لآراء علماء الغرب يجدر بزعماء النهضة ؟ وكتاب سلامة موسى (حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ) الذى كتب عنه بعض النقاد فأسماه كتاب السنة وما إلى ذلك من مثل هذا الهراء المحض : مأخوذ من كتاب تحـــرير الإنسانية للأستاذ « فان لون » وتاريخ الحركة الفكرية لمؤلفه « ج . ب . برى » فأى فضل له سوى فضل الترجمة والنشر ؟

«لا، نحن نود أدباً بكراً، ونود أن يميز الناس بين التفكير البكر وبين تعميم الآراء...»

هذه هي مطالع الحياة الأدبية «لمعاوية نور» ثم هو يواصل عمله هذا فيما بعد فينقد أحمد زكي أبو شادي (فى السياسة الأسبوعية ٢٨ يونيو ١٩٣٠) فى ديوانه (الشفق الباكى) نقداً مراً فيقول :

« أنت تقرأ الديوان من الجلدة الى الجلدة . وقل أن تصادف فى هذا المقدار الضخم شعراً صحيحاً . . . فأنت ترى أن أبا شادى برىء من الشعر . ولايمكننا أن نعرض له فى شيء من الجد إلا حينما يكون للشاعر شعر وموضوعات شعرية . »

وهو معنى بعرض فنون الأدب الغربي الحديث وله في ذلك عدد من الأبحاث :

١ ــ فلسفة الدراما : بحث في الأدب المسرحي (السياسة الأسبوعية ــ ٢أغسطس ١٩٣٠).

٢ ــ بحث فى أصول الفن القصصى (الهلال أغسطس ١٩٣١) .

٣ ــ فن التراجم الجديد (الهلال أبريل ١٩٣١) .

ومعنى هذا فى كتاباته المتعددة أنه معنى بنقد الشعر والقصة والنثر جميعاً ، وأنه حفي بمختلف الدراسات الغربية التي ظهرت في هذا المجال . ولما كان فن القصة فى هذه الفترة من الثلاثينات جديداً، فقد حاول معاوية أن يشترك مع بناة أساسه بما عرض من دراسات ونقدات ، يقول فى مقاله عن القصة :

«قصارى هذه الكتابات التي تسمى قصصاً أن تكون واحدة من أثنين :

» أما أنها حواديت عادية لاتمتاز بشيء من الحكايات التي سمعناها في أيام الطفولة ، أو أنها بالمقالات الإنشائية أشبه .

« والسبب في ذلك ان الذين يتصدون لكتابة القصة ، اما أنهم لم يتوفروا على الدراسة الواسعة والثقافة العالمية في هذا الفن ، واما أن من يتصدى للكتابة القصصية ليس عنده هذه السليقة الفنية الخصبة والطبع الفني السليم » .

ثم يحاول أن يرسم للقصة منهجاً وعنده أن القالب في الفن : هو أن يختار الكاتب الشكل الذى يناسب الأثر الفنى الذى يود إحداثه فى أذهان قارئيه . فحركة الأسلوب مثلا يجب أن تتمشى مع حركة العاطفة . أو الحادثة الشخصية ، فنجد الكاتب القصصى يستعير عدة الموسيقى فى هذا الصدد من حيث الإيقاع والإتساع والتدرج والموازنة .

ويرى أن الفن في موضوعه قطعة من الحياة يعرضها أمامنا الأديب من خلال مزاجه الخاص . ويسألنا بما أوتيه من لوذعية وتفنن أن نرى هاته القطعة كما يراها هو ، وعلى قدر عمقه فى الإحساس وتفننه فى العرض يقوم فنه وتتجلى عبقريته .

ويرى معاوية نور : أن هناك طريقتين لرسم الشخصية القصصية وإحيائها ، أولها الطريقة المباشرة التى تحدثك عن كل ماتود معرفته عن الشخصية عن طريق الوصف المباشر .

والطريقة الأخرى هى أن يعرض عليك القصاص شخوصه فى تفكيرهم وأعمالهم فتعرف أنت الشخصية عن طريق تفكيرها ونهج أعمالها وبدوات روحها . وعنده أن الطريقة الأولى أقل فناً ، وأسهل كتابة ، وأرخص فى ميدان النقد والتقدير من الطريقة الثانية التى تحتاج إلى قوة مبتكرة وإبداع يدل على الفطنة والذكاء .

ثم يعرض لفن التراجم فى استيعاب ودقة فيقول :

« بديهى أن التراجم لم تكن يوماً مجهولة فقد عرفها القدماء واعتنوا بها وكتبوا فيها الشيء الكثير ، غير أن نظرتهم إلى الترجمة كعمل فنى تختلف عن نظرتنا فى الأغلب والأعم . فهم يؤرخون أو يترجمون لرجالهم ليشيدوا بذكرهم ويشيعوهم بالثناء والمدح إلى مقرهم الأخير . أما المترجم الحديث فهو قل أن يعنى بالمدح وما إليه ، وهو لا يتغاضى عن سوءات أبطاله ولايخفى من مواطن ضعفهم ، ولايهول مما يحسب لهم فى الحسنات ، ولايجعل لأى هوى أو غرض مكاناً فى نفسه وفنه سوى غرض التصوير الحق ، وإحياء الشخوص الميتة نفوساً تتحرك على الورق .

« وقد كانت التراجم القديمة فى جملتها تقع فى المجلدات الضخمة مكظوظة بالتواريخ والأسانيد والأرقام . أما درس مايسمى بالعواطف وتحليل الدوافع والسبح مع نبضات القلب والغوص وراء بـدوات النفوس وتصوير الأزمـات النفسانية والعرض للفتات الذهن . . .

« فالمترجم الحديث حريص على أن يبرز الصورة بكل مافيها من ضعف وقوة . فيستعين بكتب بطله وكل ماكتب عنه . كما أنه يضع فى المحل الأول خطاباته الخاصة ورسائله ومذكراته حيث النفس هناك على سجيتها ، ثم يحاول تكوين الصورة الأولية لبطله وهو لايشترط فى كل عمله هذا طريقة خاصة . . كما أن من خواص الترجمة الحديثة أنها لاتحكم ، وإنما قصاراها أن تفرض لا أن تجزم ، فهى لاتهتم بعصر البطل إلا بقدر صغير يعين على فهمه . وهي مستند إنساني يعرض صحيفة حياة إنسان لا إله ولاتصف إله . وهي لاتقرب من الإنسان وكأنه خير كله أو شر كله . وإنما الشر والخير أومايسمى كذلك كله قريب من الإنسان . »

وهكذا يبدو «معاوية نور » فى إهاب الأديب المثقف الواعى الذى أحرز قدراً كبيراً من الثقافة العالمية ، وإستطاع أن يحيط بتياراتها المختلفة . وأن ينقل ذلك إلى الأدب العربي فى أسلوب دقيق وعبارة نقية . غـير أن صورته الذاتية كمفكر لاتبدو واضحة فى هذه النماذج التى نقلناها .

وقد إستجاب معاوية نور لجيله وللثقافة العربية حين اشترك مع الكتاب المصريين فى الدعوة إلى الأدب القومى ، وكان أحد الموقعين على الوثيقة التى نشرتها السياسة الأسبوعية فى هذا الصدد . وكانت إحدى أعمال الدكتور هيكل فى مجال إحياء الفرعونية وبعثها . غير أن «معاوية نور» كان يفهم (الأدب القومى) على أنه تصوير للمشاعر الوطنية القومية . ورسم للبيئة نفسها . وخلق أدب فيه أنفاس الأمة وروحها وعواطفها ومشاعرها .

يقول فى السياسة الإسبوعية — ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠ « ليس معنى الأدب القومى أن تتحدث فى موضوعات قومية . ولو كان هذا يدخل فيه . وليس لزاماً على الأديب القومى أن يتكلم عن الحياة فى الريف أو فى المدن أو فى وادى النيل . وإنما جوهر الأدب القومى إنما هـو « الإحساس القومى » هو أن يكون الكاتب فناناً تمثلت فيه خصائص أمته الشعورية والفكرية . فأبرزها فى العمل الفنى فى ثوب تفسيره الخاص به كفرد من تلك الأمة . »

ولعله قد حاول ذلك حين رسم بعض ما أسماه « صور سودانية » تحت عنوان

(في القطار) . .

« . . بعد أن قطع القطار صحراء العتمور العاتية ومافيها من جبال ملتفة، ورمال بيضاء منبسطة، وأحجار سوداء متناثرة في لج ذلك الخضم الذى لاتقف منه العين على شيء من صور الحياة النابضة . سار ينساب إلى أرض لاتحوجه إلى مثل ذلك الكفاح والنضال القوى . بل راح راكضاً في إتساق وسرعة على ضفاف وادى النيل . . . وكنت من قبل أنظر إلى هذه الصحراء وأمعن النظر إليها . وكلما أمعنت النظر جاشت بي الخواطر والذكر . وخيل الى أن لى تاريخاً مع هذه الصحراء . وأنه محال أن تكون هذه هى المرة الثانية أو الثالثة التى أشاهد فيها هذه الصحراء. لما أشعر به من القرابة والعطف والإيناس لهذه الحجارة التى تترامى بالقرب من سير القطار . .

« والقطار سائر إلى أن اقترب من مدينة شندى بعد أن مر بمدن عدة ، والمسافر لايرى غير السهول الواسعة حيناً ، والأشجار المتناثرة الكثيفة حيناً آخر ، وقد يرى بعض الأحيان أرضا خضراء . ولايرى غيرها سوى الرمال والحصى . غير أن النظرة إلى شجرة من هذا الشجر الذى تجده بين حين وآخر . واقفاً متدلى الأغصان فى أسى واكتئاب . وصبر ووحشة لاتخالطها بشاشة أو يمازجها فرح . خرى بأن يحمل الإنسان إلى الإعتقاد بنضوب هذه البقاع من الحياة كما عرفها وذاقها بين المدن الصاخبة . وأنفاس الإنسان النابضة . ووثبة الحياة الدافقة .

« كل هذا وبعض أصحابنا المسافرين المترفين فى شغل عن الصحراء والسهول والأشجار وحديثها . هذا يدخن سيجارته . وغيره يقرأ كتاباً . وثالث نائم . وغيره وديع حالم . وما أن يقف القطار عند قرية صغيرة يحسبها الإنسان خلاء وقفراً . قبل أن يطلع عليه بعض أهلها من شبان وشيب ومعهم أشياء من الطعام يرغبون فى بيعها إلى المسافرين. أو أنواع من الخزف والآنية .

« . . وقف بنا القطار فى هدوء طارىء فى محطة من المحطات بعد أن إجتاز مدينة شندى . وكنت تسمع المسافرين ينادون بعضهم بعضاً : « اقفل الشباك ، اقفل الباب . . » بين قصف الرياح وأصوات المسافرين . وذلك لأن الرياح قد ابتدأت تعصف بشدة . وتذر التراب فى العيون . والعاصفة تولول كالشارد المجنون . والشمس تختفى بين حين وآخر ؛ لأن بالسماء الداكنة غمام يتجمع ويقلـــع حيناً ، ثم يتلاشى حيناً آخر ، فتظهر الشمس سافرة . وكان النيل الذى وقفنا بالقرب منه يرسل أصواتاً هائجة من أمواجه الثائرة. وهكذا وقف القطار بين ولولة العاصفة. وهدير الموج الصاخب ، ودكنة السماء. وحلوكة الجو . . . »

هذه صورة للقطار بين القاهرة والخرطوم . وهذه صورة أخرى لتأملات فى ليل الخرطوم على ضفاف النيل الأزرق . . .

« الوقت ليل . والكون ساج نائم . فما تسمع نأمة ولاترى حركة . ولاتحس سوى الركود والإغفاء والسكون الشامل والظلام الصامت . . .

« وقد خيل إلى أن الحياة قد وقفت فجأة ، وأن الوجود قد أخلد الىنومة هادئة . ويعديني ذلك الشجو والسهوم فلا أستطيع أنا الأخر حركة أو قياماً . بل أظل أتبع حركة الماء الدافق أمامي ، وحركة مايجرى فى خواطرى وأحاسيسى ، وأنا جالس على أحد المقاعد على ضفاف النيل الأزرق فى مدينة الخرطوم . والنيل ينساب فى مشيته هادئاً كأنه صفحة المرآة المجلوة . وعلى يمينى فى النهر بضع سفن تجارية ، وأمامى الخرطوم بحرى وجزيرة توتي ، وعلى شمالى مدينة أم درمان ، يخيم عليها الصمت ويكسوها الليل ثوباً رقيقاً ، ويخيل إلى أن ذلك الشجر الحاني بعضه على بعض . والذى يظلل شارع الشاطىء . وذلك النهر الهادىء بما فيه من قنطرة . وأمامه من مدينة وجزيرة . ومافوقه من سماء تحسبها لشدة زرقتها وانكفائها على حدود النيل ، أن السماء نيل وأن النيل سماء . .

« . . ظللت الساعات وأنا مأخوذ بسحر ذلك المنظر فى شبه صلاة روحية وخشوع فكرى ، وجلالة تغمر النفس وتخلع على الحياة شعراً ، وتحيطها بالأسرار والأطياف والأروح .
لم يظهر لى النيل فى تلك الليلة بالشىء السائل المائي ، وإنما هو بالتماسك أشبه . وإلى مادة كالزئبق أقرب .

« ويأتي النيل الأبيض من الناحية الأخرى وهو أكثر زبداً ورغياً وصخباً من النيل الأزرق ، قد ترى موجه المزبد يتكسر فى عنف وشدة على الشاطىء ، حتى إذا التقى بالنيل الأزرق عند الخرطوم شد من أزره . وأخذ بساعده وتكاتف الأثنان معا فى مرحلة الحياة ، وهكذا يسيران وقد صارا نيلاً واحداً وقلت وحشتهما وزاد أنسهما . فتلمح نجواهما وشعورهما بالرضاء الوادع . »

هذا فى رأيي هو مفهوم الأدب القومى عند « معاوية نور » . ولم أصل إلى أرائه الأخرى فى مجال القومية العربية أو الأقليمية . ولعله كان من رأى الدكتور هيكل إذ ذاك — هذا الرأى الذى تحول عنه هيكل فيما بعد .

وقد كتب معاوية نور عدداً من الأقاصيص السودانية ذات الصبغة المحلية ، وصور كثيرا من ملامح الطبيعة فى السودان . وقال عن هذه الصور والأقاصيص إنها تهدف إلى درس الشخصيات درسا « بيسكولوجيا » يعنى بالنتائج والأسباب كما يعنى بالدوافع

والأزمات .

« وإنهـــا ليست « بسودانية » في معنى الكلمة المحدود الضيق ، حتى وإن كانت حقا سودانية في شخوصها وجوها وإحساسها . فإن خصائصها الفنية هي خصائص سكان هذا النيل المبارك ، وعبقرية وصفها هي عبقرية هذا الوادي الحزين . »

وقد عاش « معاوية محمد نور » حياة جميلة من الشباب الذكي المثقف المتطلع بطموح إلى أخذ مكانه في صف النهضة . ولابد أنه قد واجه كثيراً من القلق ، مصدره مفاهيمه والآراء التي إستفادها من ثقافته الواسعة . وضيق الحياة الإجتماعية في السودان في ظل الإحتلال . وعدم القدرة على التطور وسيطرة المحتل في هذه الفترة ، ولذلك إنطبع تفكيره بطابع الحزن والقلق .

ويبدو أنـــه بعد أن حصل على درجة الجامعة لم يتوقف عن العمل الصحفي في القاهرة ، وتطلع إلى وطنه لعله يجد مكان الصدارة الفكرية فيه ، ويبدو أنه لقي عقوقاً وعنتاً ، فلم يكن يبرز في هذه الفترة إلا المتصلون بالحكام ، وهو الذي يبدو من وراء كتاباته عفيفاً عازفاً عن مثل هذه الأساليب ، ما كان ليجد مكانه الحق .

ولدى صورة نفسية له لعلها تلقي بعض الأضواء على مشاعره : إنه يحاول أن يصور طفولته ويستعيد ذكراها ، فلا يلبث أن يواجه اليتم والفقر والحياة الضيقة ، يقول :

« إنني لأذكر (توتي) وأذكر أياماً لي بها ، وأذكر زرعها ، وأذكر مجدها ، أذكر تلك الخضرة ملء العين والبصر نهاراً ، وهي الجلال والخوف والأطياف ليلاً . . .

« وأذكر أبي وأذكر بيت أبي ، أذكر ذلك البيت القائم وسط الزرع ، وحيداً لا أخ له ، كالشارة المرسومة وسط ذلك الزرع الحافل ، أين كل ذلك اليوم ؟ لقد مات أبي ، واضمحل الزرع ، وتهدم البيت . وهذا الشارع الجميل المنسق على ضفاف النيل الأزرق ، ماذا يترك في نفسي من إحساس ؟ لاتزال صورته التي رأيتها وأنا طفل بأم درمان مرسومة أمام ناظري ، وهي صورة فيها من الحنين والشوق مالاسبيل إلى وصفه .

« وإني لأذكر ليالي المدرسة ، وسماعي لذلك البوري الذي يهز كياني هزاً ، ويلعج نفسي ويذكرها بمن مات من أهلي وأحبابي . »

هذه صورة الطفولة . وهذا كل ما استطعت أن أحصل عليه من آثار « معاوية نور » وهي مبعثرة في صحف كثيرة .

وإنني أتطلع اليوم إلى حفل ضخم يقام في الخرطوم من أجل إحياء ذكراه ، وطبع آثاره ، والتنويه به في العالم العربي كله .



هذا الكتاب

يسر قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم أن يقدم إلى القراء الجزء الثانى من مؤلفات الكاتب السودانى الفذ المرحوم معاوية محمد نور ١٩٠٩–١٩٤١. وهو يحوى مجموعة من القصص القصيرة تعتبر محاولات رائدة فى هذا المجال ليس فى السودان فحسب وإنما على نطاق العالم العربى فقد قام معاوية بكتابتها فى العشرينات عند ما كان فن القصة القصيرة يشق طريقه فى عسر إلى رحاب الأدب العربى.

كما يضم الخواطر الذكية التى يسطرها يراع معاوية يومياً اثناء اضطلاعه بأعباء تحرير جريدة مصر فجاءت صوراً قلمية رائعة ولمحات فكرية مشرقة لا تمحى جدتها ولا تفنى طرافتها.

ويحوى أيضاً مقالات إجتماعية وسياسية بعضها عن السودان هاجم فيها الإستعمار متمثلاً فى تجربته الإدارة الأهلية وقصور ادائه فى مجال الصحة والتعليم. اضف إلى ذلك بحوث متفرقة فى الأدب والفن اتسمت بالعمق وسعة الافق.

قام بجمع مؤلفات معاوية الأستاذ رشيد عثمان خالد الذى اهداها مشكوراً إلى جامعة الخرطوم. وقسم التأليف والنشر بالجامعة اذ يشيد بهذه الروح الكريمة يحمد للأستاذ رشيد ما أسدى للأدب السودانى من جميل ببعثه لهذا التراث القيم.